بسم الله الرحمن الرحيم

في

الأصول الإسلامية للتربية

(الجزء الأول)

تأليف

أ. د. محمد عبد العليم مرسى

أستاذ أصول التربية

بمعهد الدراسات والبحوث التربوية

جامعة القاهرة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتبة الجامعية

الازاريطة . الاسكندرية ت : ٤٨٤٣٨٧٩

المحتويـــــات

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل :

من المسلم به لدى علماء التربية أن " أصول التربيـــة " Foundations of Education تعتبر الركيزة الأساسية لعلوم التربية جميعا، وأنها تمثل حجر الزاوية لكل من يريد أن يدرس التربية ، وأن يتخصص فيها ، ومن هنا نجد أن جميع كليات التربية ، وكذا أقسام التربية فى الجامعات التى ليس بـــها كليـــات للتربية تقدم مقرراً أو أكثر فى مادتها ، أى مادة أصول التربية ، وذلك ضمـــن مقررات " المدخل إلى التربية " أو " المدخل إلى علوم التربية "، والـــذى كـــان يقدم فى السنتين النهائيتين فى كليات التربية ، أى الثالثة والرابعة، ولكن بعـض هذه الكليات عدّل هذا النظام ليقدم علوم ذلك المدخل الـــتربوى فـــى الســـنتين الأوليين ، أى الأولى والثانية .

أما الطلاب الذين يواصلون دراساتهم العليا فى التربية ، والذين يحصلون على دبلومات فيها " الدبلوم العام أو الدبلوم الخاص ، وكذا الســـنة التمهيديـــة للماجستير والتى هى موازية للدبلوم الخاص فى بعض الجامعـــات "، هـــؤلاء الطلاب يدرسون مقرر الأصول بشيئ من العمق ، حيث يتعرضون لكل أصـــل من تلك الأصول على حده ... فى الدبلوم العام ، ثم تكثف لهم الدراســـة فـــى الدبلوم الخاص ، وتعمق أكثر فى أصلين منها أو أكثر ، وذلك حسب التوجـــه العلمى الموجود بالقسم الذى يدرسون فيه .

هذا ويتكون علم " أصول التربية " من الأصول التالية :

١ – الأصل الدينى .

٢ – الأصل الجغرافى .
٣ – الأصل التاريخى .
٤ – الأصل الاجتماعى .
٥ – الأصل الاقتصادى .
٦ – الأصل السياسى .
٧ – الأصل الثقافى .
٨ – الأصل الفلسفى .
٩ – الأصل النفسى .
١٠– الأصل الإدارى .
١١– الأصل الأخلاقى .
١٢– الأصل الإعلامى .
١٣– الأصل العلمى .
١٤– الأصل العسكرى .
١٥– الأصل الصحى .. والرياضى .

وقد جرت عادة علماء التربية على التركيز على عـدد من هذه الأصـول قد لا تتعدى نصفها فقـط (وخاصـة الأصـول التاريخيـة والاجتماعيـة والاقتصـادية والثقافية والفلسـفية) ويمسون عـددا آخر منها مسا خفيـفا جدا، وخاصة الأصل السياسى ، ربما تخوفا أو تجنبـا لحساسـيات معينـة فـى مجتمعاتنا، بينما بعض الأصول الأخـرى التى أوردنـاها هنـا جديـدة تماماـ – حسـب علمنا وقراءاتنا – حيث لم يكتب فيها أحد من أساتذتنا أو حتى مـن زملائنـا ، وبالتحديد الأصول الجغرافية والإعلاميـة والعلميـة والأخلاقيـة والعسـكرية .

ومن ناحية أخرى يمكننا القول بأن ما كتب فى هذه الأصول جميعا ورد فى كتابات الغالبية العظمى من أساتذتنا الذين كان لهم فضل السبق فى إرساء معالم هذا العلم (علم أصول التربية) ، أو من الإخوة الزملاء الذين واصلوا نفس الطريق ، وهذا الذى كتب جاء متأثراً لدرجة كبيرة جداً بما كتب فى الغرب ، وبالتحديد فى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، وهما البلدان اللذان جرى إرسال البعثات الدراسية إليهما من مصر بعد الحرب العالمية الثانية، أى خلال الخمسينات والستينات من هذا القرن ، وإن كان قد وجد اتجاه آخر – فى مصر أيضا -- بإرسال بعض البعثات إلى الاتحاد السوفيتى خاصة ، وإن كان تأثير من عادوا من تلك الدول قد ظل محدودا ، وفى أضيق نطاق ولله الحمد (*) ، وبعد الانفتاح على الغرب مرة ثانية جرى إرسال أعداد كبرى من البعثات إلى دوله ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، خلال منتصف السبعينات ، ولا يزال هذا الاتجاه مستمرا إلى وقت كتابة هذه السطور .

هذا ولقد ركزنا على دور الابتعاث من مصر فى مجال التربية لأن الذين عادوا من تلك البعثات كانوا – ولا يزالون – هم الذين تولوا التدريس فى جامعاتنا المصرية ، وهم الذين تولوا إنشاء الكليات الجديدة للتربية فى مصر ، فيما عرف باسم " الكليات الإقليمية " ، والتى صارت المراكز الأولى التى بنيت حولها الجامعات الإقليمية فى مصر ، كما أن هؤلاء الأساتذة هم

(*) حينما اتجه عبد الناصر بالسياسة المصرية تجاه الكتلة الشرقية عامة ، وروسيا خاصة ، حولت البعثات العلمية إلى دول هذه المجموعة ، ولم يكن هناك بأس فى بعثات ترسل فيدرس أبناؤها الهندسة والكيمياء والرياضيات والزراعة والصيدلة والطب .. إلخ ، ولكن الخطر كان فى إرسال البعض ليدرسوا " التربية " بالتحديد نظرا لاختلاف مجتمعنا المصرى " المسلم " جذريا عن مجتمعات تلك الدول " الملحدة " والتى لابد أن تتعارض تربيتنا مع تربيتهم بالضرورة .

الذين كانوا العمد الأساسية فى إنشاء الأقسام العلمية للتربية ، بل وفى إنشاء كليات التربية فى العالم العربى عامة وفى دول الخليج العربية على وجه الخصوص .

وأهم من ذلك أنهم هم الذين كتبوا وألفوا فى مجال التربية ، ومن هنا انتشر ما حملوه من فكر تربوى إلى آلاف وآلاف من الدارسين باتساع العالم العربى ، سواء من خلال التدريس لهم تدريسا مباشرا فى قاعات المحاضرات، أو من الذين تتلمذوا على كتاباتهم وبحوثهم عن بعد ، أو من الذين تخصصوا فى التربية على أيديهم ، من خلال إشرافهم العلمى المباشر على رسائل الماجستير والدكتوراه التى أعدوها ، سواء كان ذلك فى جامعات بلادهم ، أو أنهم يكونون قد ابتعثوا من بلادهم للدراسة والتخصص فى مصر .

النقطة الأساسية التى نحن وراءها هى أن ما يدرس لأبنائنا فى مجال "أصول التربية " فى مجمله ، أو فى معظمه جاء إلينا من الخارج (*) من مجتمعات تختلف عنا جذريا فى عقائدها وقيمها وأخلاقياتها وأهدافها ومثلها ، وعلم " أصول التربية " بالتحديد يمثل الركيزة فى هذا ، ومن هنا تأتى خشية المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية من بعض التوجهات الخطرة التى قد تتسرب من خلال ما يعطى للطلاب . إن الأساس إذا أصابه وهن أو ضعف ، أو دخل بين لبناته شيئ من الخبث خيف على البناء كله أن يصيبه الخراب أو الدمار أو الانهيار .

(*) ينبغى الإشارة هنا إلى أن هناك عددا لا بأس به من الرسائل العلمية التى أعدت فى مجال الأصول ، فى عدد من جامعاتنا ، وخاصة فى مجال التربية الإسلامية ، والتى اهتمت بها أصلاً أقسام أصول التربية فى تلك الجامعات .

إننا قد نستورد الجديد فى مجال التخطيط التربوى ، أو فى مجـــال علـــم الإدارة التربوية ، أو حتى فى مجال تطوير المناهج وطرق التدريس والتقويـــم والقياس ، فهناك الجديد بلا شك من البحث والتجريب والدراسات العلمية الرائدة والمتجددة فى مجالاتها ، ونحن نحتاجها ، لنعرف موقعنا منها ، ولكـــن مـــع التحفظ والغربلة ، أما فى " مجال الأصول " بالتحديد فإننا ينبغى أن تكون لنـــا وقفة حاسمة مع النفس .. .

إن هذه الأصول لابد أن تكون نابعة من صميم مجتمعنا ، وهو مجتمـــع عربى مسلم ، والتربية فى أصولها ينبغى .. بل لابد أن تنبع من ذاتـــه ، مـــن صميم تكوينه ، من جذوره ، فهى هنا " عملية مجتمعية Societal " بالدرجـــة الأولى ، أى لا يصلح فيها الاستيراد ، ولا يجوز . إننا فى بنائنا التربوى قـــد نستورد بعض ما يلزمه ذلك البناء من الخارج ، مما يكمل البناء ، أو يزينـــه ، أو يطليه أو يلونه ، أما عمد البناء وأساساته فلا يمكن أن تكون إلا من صميـــم ديننا وبيئتنا ومجتمعنا وثقافتنا ، من هنا كان هذا الكتاب المعنون " فى الأصـــول الإسلامية للتربية " .

إنه كتاب يستهدف الغوص – بإذن الله – فى كل أصل من هذه الأصـــول لتصل إلى جذوره الإســـلامية ، فى محاولة لمعرفة نظـــرة الإسلام إلـــى كـــل منها ، وإلى كيفية تدريسه لطلابنا ، ولباحثى المســـتقبل ، وكـــذا للمخططيـــن التربوييـــن ، ولواضعى المناهج والمعلمين ، حتى تكون هذه الأصول منعكســـة فى كل عمل تربوى نقوم به أو نؤديه ، بحيث تظهر كل " الأصول التربويـــة " وهى نابعة من الإســـلام ، ومرتبطة بـــه ، تدور فى فلكه ولا تنحرف عنـــه ، فإذا قدمنا " الأصل الاقتصادى " للتربية مثلا فسوف نجدنا ونحن نبحـــث فـــى تربية الإنسان المسلم على أســـس اقتصادية إسلامية تتجنب الربا ، وتحيى قيمة

العمل ، وإتقانـــه ، وتشجع على المبادرات الفردية ، وطالما أديـــت زكاتـــه .. وهكذا .

والكتاب بهذا الشكل يعود بجذور الأصول إلى منبعها العذب الصـــافى ، الإسلام العظيم ، الذى جـاء كتابه " القرآن العظيم " من فوق سبع ســموات ، من لدن حكيم خبير ، ولذلك فإنه لا يأتيـه الباطل من بين يديـــه ولا مـــن خلفـــه ، كما أن الله – جلت قدرتـــه – يقول فيـــه : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيئ﴾ كما أن الكتاب سوف يقتفى ســنة الرسول الأعظم ، والمعلم الأســمى ، محمد بن عبد الله – ﷺ – ، ليبين الأمثلة الرائعة التى قدمها وهو يربى " خـير أمة أخرجت للناس" بنص القرآن الكريم .

ويكفى أن نشير – فى هذا المجال – إلى " الأصل الاجتماعى " للتربية فى الإسلام ، وكيف أن جذوره تعود للأسرة المسلمة التى أولاها الإســلام عنايــة رائعة ، لأنها هى الخلية الأولى فى المجتمع ، وكيف تتابعت أحاديث المصطفى – ﷺ – لتحث الشباب على الزواج من الفتاة الصالحة " فاظفر بذات الديـــن ، تربت يـــداك " ، وكيف حث القـــرآن العظيم على العنايـــة بالأسرة التى جعـل – سبحانه وتعالى – " الرحمـــة والمودة " من أهـــم ما تبنى عليـــه ، كمـــا أن العنايـــة بالأطفال الناشـــئين تأتى ضمن واجبـــات هذه الأســرة، ونشير فقط – من بعيد – إلى توصية الرسول – ﷺ – بالجار ، والعنايـــة به ، حتـــى ظـــن الرسول – ﷺ – ، كما أخبر السيدة عائشة – رضى الله عنها – ، أنـــه ، أى جبريل ، سيورثه .. !!

هذه هى إذن فكرة فى غايـــة الإيجاز عن هـــذا الكتـــاب الذى وضع فيـه كثير من الجهد والوقت يعلمهما الله ، إلا أنى لم استطع أن أنتهى مـــن كتابـــة

جميع الأصول ، ومن هنا اقتصرت على بعضها ، ربما النصف ، ومن هنا أشفقت أن يعنون الكتاب " الأصول الإسلامية للتربية " وآثرت أن يعنون : "في الأصول الإسلامية للتربية " ، على وعد قطعته على نفسي بأن يستكمل في القريب إن شاء الله ، وأعطيت الكتاب عنوان " الجزء الأول " ، وربما يعينني الله – سبحانه وتعالى – على إنجاز " الجزء الثاني " ، إن كان في العمر بقية إن شاء الله ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

بقيت في النهاية كلمة شكر واجبة ينبغي أن تسجل للأخ الكريم الدكتور عصام توفيق قمر ، الباحث بالمركز القومي للبحوث التربوية والتنمية على جهده الوفير في تتبع كل ما تعلق بهذا الكتاب منذ الانتهاء من كتابته وحتى خروجه من المطبعة جزاه الله خيرا ، ووفقه في كل ما يهدف إليه ، إنه سميع مجيب .

القاهرة : مدينة نصر

صفر ١٤٢١ هـ/ مايو ٢٠٠٠م

المؤلف

أ . د. محمد عبد العليم مرسى

الفصل الأول

أصول التربية .. وأوضاع المجتمع

الفصل الأول

أصول التربية .. وأوضاع المجتمع

يقول " مطاوع " إن العلوم التربوية تنقسم إلى أقسام وفروع مختلفة ، وكل فرع منها يبحث جانبا من جوانب الظاهرة الخاصة بالنمو الإنسانى ، وأهم هذه الفروع هو فرع الأصول ، أعنى " أصول التربية " وتأتى هذه الأهمية من أنه ، وفلسفة التربية ، هما حلقة الوصل بين التربية كنظام ، وبين ثقافة المجتمع وفلسفته ، ثم تأتى بقية الفروع بعدها ، وإن كان نفس القدر من الأهمية ينصب على التربية المقارنة ، وتاريخ التربية ، لأنهما الميدانان اللذان يعكسان التطبيقات التربوية فى الأنظمة التعليمية ، سواء كانت معاصرة أو ماضية ، ثم تأتى بقية المواد التربوية التى تطبق ما تتوصل إليه أصول التربية [١] .

وعنده أن الأصول هى " ذلك العلم الذى يهتم بدراسة الأصول أو الأسس التى يبنى عليها أى تطبيق تربوى سليم ، ثم إنها الدراسة التى تهدف إلى تزويد الطالب أو الدارس بمجموعة النظريات والحقائق والقوانين التى توجه العمل التربوى التطبيقى ، ومصادر هذه النظريات والقوانين قد تكون الفلسفات المختلفة ، أو الأديان ، أو القيم الاجتماعية ، أو نتائج التجريب فى علم النفس والاجتماع ، وغيرهما من فروع المعرفة المختلفة .

ومعنى هذا أن التربية تستمد أصولها ونظرياتها وقوانينها من مختلف فروع المعرفة الإنسانية ، وهذا أمر عادى بالنسبة للتربية ، ذلك أنها مادامت علماً وفناً فى آن واحد ، فإنها تستوحى المجتمع فى تحديد أهدافها ، ثم تصوغ وتطبق محتواها لتحقيق هذه الأهداف ، وبناء عليه فإنه لا يمكن اعتبارها علما

---

[١] إبراهيم عصمت مطاوع : أصول التربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠م ، ص ١٥ .

خالصا ، وإنما القول بأنها فن يعتمد على المعرفة العلميـــة ، فـالمربى حيـن يمارس عمله ، لا يعتمد فقط على المعرفة ، ولا يحتاج إلى المـــادة الدراسـية وحدها .. أو معرفة الأصول التربوية (فلسفية واجتماعية ونفســية .. إلــخ) وحدها ، كما أنه لا يعتمد فى ممارسة مهنته على طرق التدريـــس وأصولـه فحسب ، وإنما المربى هو كل هذا فى آن واحد ، فهو فنان ، والتربية فن يمنح فيه المربى جزءا من ذاته ، فيخرج التعبير ممثلا لشخصية المربى ومزاجــه ، وليس معنى هذا أنه فن أى فن ، إنما هو فن يعتمد على العلوم ، وعلى الأصول والمبادئ والقوانين التى تتضمنها العولم التربوية والنفسية ، والتــى بدونــها لا يمكن للمربى أن يقوم بعمله على وجهه الأكمل " [١] .

ويشبه " حسان " ميدان أصول التربية " أو ميادينــها ، بمعنــى أصـــح ، بميادين الطب أو الهندسة ، أو حتى الزراعة ، حيث أن كلا منها لا يمثل علمــا مستقلا بذاته ، أو قائما بذاته ، بل هو ميدان تلتقى فيه مجموعة علـــوم وثيقــة الصلة متداخلة الدوائر ، وذلك كما نقل عن " أوكونور Oconor " [٢] ، فميدان الزراعة – مثلا – تلتقى فيه نتائج علوم الكيمياء العامة ، وكيمياء الأراضـــى ، وعلوم النباتات والمحاصيل ، وعلـــوم طبقـــات الأرض ، ودراســة التربــة ، وتشريح النباتات ، والأرصاد الجوية ، وعلوم الوراثة والتغذية .. إلخ ، وهكـذا عشرات العلوم التى تلتقى نتائجها التطبيقية فى ميدان الزراعة .

وعلى ذلك فلابد للطبيب والمهندس والزراعى والتربوى مـــن الاســتعانة بأصول تساعد كل منهم على إتقان مهنته ، وزيادة معلوماته ، وإثراء خبراتــه ، وتنمية مهاراته ، وكل ذلك – لكى يحدث – يتطلب عدم الاقتصار على دراســة

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ١٥ – ١٦ .

[٢] Education, Rorethedge Kegan Paul, Lonon, 1968, P. 93.

هذه العلوم مرة واحدة ، أو الحصول على شهادة فيها ، بل لابد من مداومة الإطلاع ، واستمرار الاتصال [١] .

والواقع أن هذه الفكرة الأخيرة التى نادى بها الكاتب السابق فكرة هامة ، فهى تهيب بالباحثين فى العلوم التربوية ، وكذا العاملين فى مجال التطبيق التربوى ، بأن يظلوا على صلة دائمة ومتجددة بالبحوث التى تتم فى جميع المجالات التى تخدم العلم الذى تخصصوا فيه ، وهو التربية ، ويكفى أن نشير – كمثال – لمجال واحد ، وهو مجال التطورات الهائلة فى الإعلام ، وفقط نشير بالتحديد إلى " البث المباشر " الذى وصلت تقنياته حدودا ما كان يتصورها معظمنا إلى عهد قريب جدا ، والتى جعلت معظم بيوتنا الآن تقع تحت تأثير هذا البث المباشر الرهيب والمؤثر – بلا شك – فى عقول ونفوس وشخصيات أجيال بأكملها [*]، كما نحاول تربيتها ، فإذا بهذا البث المباشر يشاركنا ، رغما عنا ، تربية أبنائنا ، وعلى الرغم من أننا كنا نقول دائما بأن التربية عملية مجتمعية بحتة وينبغى أن تنبع من المجتمع ، وأن تستهدف تحقيق قيمه ومثله وطموحاته إلا أن مجتمعات أخرى تفرض علينا الآن – من خلال البث المباشر هذا – قيمها وتقاليدها وعادات أفرادها ن والتى قد لا تتمشى – وإلى حد بعيد – مع ما نؤمن به حسب عقيدتنا ، ولا مع ما نتمسك به من

---

[١] حسان محمد حسان : دراسات فى الفكر التربوى ، دار الشروق ، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ١٧ .

راجع كذلك : أولفابنكس : اجتماعيات التربية ، ترجمة محمد على محمد المرصفى ، بدون ناشر أو مكان للنشر ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م .

[*] يمكن فى هذا مراجعة كتابى المؤلف :

– الثقافة .. والغزو الثقافى لدول الخليج العربى ، دار العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٦م .

– المنظور الإسلامى للثقافة والتربية ، دار العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٦م .

تراثنا، ولا مع ما نحاول أن نحافظ عليه من قيمنا وتقاليدنا ، ولعلنا نعمق فكـرة الكاتب السابق .. قليلا .

وجوب الإطلاع الدائم على الجديد والمتغير :

ونقصد به الإطلاع ، ومداومة الإطلاع على الجديد فى الميـادين التـى سبقت الإشارة إليها ، والتى تكون " الأصول " التى يستمد منها علم " أصـول التربية " مادته ، والتى يعتمد فيها على قوانينـها العمليـة ، وعلـى حقائقـها ونظرياتها . ولعل بعض التمثيل يوضح الفكرة ويعمقها .

لقد دأب كثير من التربويين فى الماضى علـى الاهتمـام بعلـم النفـس وفروعه، وبما يجرى فى ميادينه من تجريب ، وذلك للصلة الوثيقة بيـن هـذه الفروع النفسية وبين التطبيقات التربوية التى تجرى فى مدارسنا بقصد المواءمة بين الجانبين اللذين لا ينفصلان عن بعضهما ، ونعنى بهما : التربية .. وعلـم النفسي ، ولكن لم تكن هناك جهود موازية لتلك الجهود فى المجالات الحيويـة الأخرى ، ونعنى بها ميادين علوم السياسة والاقتصـاد والاجتمـاع والثقافـة والإدارة والتاريخ ، بل والإعلام (وهذا الميدان الأخير .. الإعـلام .. سـوف نتعرض له إن شاء الله فى جزء لاحق ، باعتباره أصلا من أصول التربية لـم يسبق أن مسه أحد من التربويين من قبل فى مجال الأصول) .

إن هناك تغيرات كثيرة ، بل تغيرات عنيفة ، تجرى فى تلك المجـالات ، ولابد للمظرين فى ميدان أصول التربية من ملاحقتـها بـالبحث والـدرس ، ومتابعة أبعادها وتأثيراتها على حياة المجتمعات التى يعملون فيها ، لأنها - بـلا أدنى شك - ذات صلة وثيقة بالتربية ، ولنضرب لذلك عددا من الأمثلة ، علـها توضح فكرتنا .

إن " التغير " قد أصبح سمة لازمة ، لا فرار منها ، من سمات العصر الذى نعيشه ، التغير فى كل شيئ ، فى السياسة ، كما فى الاقتصاد ، فى الاجتماع ، كما فى الإدارة ، فى الإعلام ، كما فى الثقافة ، وتغير اليوم يختلف عن تغير الأمس . لقد كان التغير فى الماضى هادئا .. رتيبا ، بينما تغير اليوم يتسم بالفجائية والسرعة ، وربما لهذا السبب لا يكاد التربويون يعرفون أبعاده وآثاره على العلم الذى يدرسون ، ولا على الطلاب الذين يخرِّجون . !!

التغير فى الجوانب السياسية :

بالأمس القريب كان العالم ينقسم إلى قطبين كبيرين تعارفنا على تسميتهما بالقوتين العظميين ، وكان العالم من حولهما ينقسم إلى ثلاث كتل ، الأولى غربية ، وهى تتبع القوة العظمى الأولى .. الولايات المتحدة الأمريكية ، والثانية شرقية ، وتشايع روسيا أو الاتحاد السوفيتى المفروض بالقوة والعنف على كثير من الجمهوريات فى وسط آسيا ، والتى من بينها عدد كبير من الجمهوريات الإسلامية ، والمفروض كذلك على دول آوروبا الشرقية التى بسط سيطرته عليها فور انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أما الكتلة الثالثة فقد أسمت نفسها " كتلة عدم الإنحياز " ، وكانت تحاول الوقوف بين العملاقين أملاً وطمعا فى موقف مستقل لم يتحقق [١] .

وبالتأكيد فإن هذا الوضع كان ذا أثر كبير على التربية فى بلدان الكتل الثلاث ، حيث كانت كل منها تؤكد لتلاميذها الصغار وطلابها الكبار الذين هم أجيالها الصاعدة ، على معانٍ معينة ، وعلى أهداف محددة تبرر من خلالها

---

[١] يمكن لمن أراد التوسع فى هذا المجال أن يعود لكثير من المراجع التى عالجت قضاياه ، ومن بينها كتاب "السياسة الدولية المعاصرة " تأليف روبرت د. كانتور ، ترجمة أحمد الظاهر ، مركز الكتب الأردنى ، عمان، ١٩٨٩م .

أسباب وقوفها مع هذه الكتلة أو تلك ، وتؤكد - في الوقت ذاته على أن هذا الموقف " نابع من المصلحة العليا " لمجتمعها وبلادها ، وبأنه ينبغي المحافظة على هذا الموقف والدفاع عنه ، بكل الطرق ، وبشتى الأساليب .. حتى بالحرب المسلحة ، فهو هدف يستحق من أصحابه أن يضحوا في سبيله ، ومن أجله بالغالي والنفيس ، حتى بأرواح أبناء الوطن ، ولإقناع هؤلاء الأبناء بذلك كان لابد من تربيتهم تربية سياسية معينة ، ويمكن لمن أراد الإطلاع على نموذج من هذه التربية السياسية أن يعود لما كانت تربى روسيا (الاتحاد السوفيتي سابقا) عليه أبناءها ، بحيث ينشأ الأطفال الصغار على الشيوعية منذ نعومة أظفارهم ، حتى لا يرون شيئا غيرها حين يشبون عن الطوق وذلك كما كتب " لونج Long " [١] .

فجأة انقلبت الموازين ، وتغيرت الظروف ، وزلزلت أمور كان الناس يظنونها صامدة شامخة صمود وشموخ الرواسخ من الجبال ، سقط الاتحاد السوفيتي ، سقوطاً مريعاً ، وتفككت أوصاله وتناثرت وعيون الناس لا تكاد تصدق ما ترى ، وعقولهم لا تكاد تلاحق التغيرات التي تترى كل يوم ، بل كل ساعة ، على الرغم من أنه كانت هناك بوادر لكل ذلك تمثلت في تململ واضح في دول الكتلة الشرقية ، وخاصة في المجر (١٩٥٦م) ، وبولندا (١٩٦٨م) ، وأخيرا في ألمانيا الشرقية حيث انفجر الناس هناك ضد الوجود السوفيتي البغيض ، بعد أكثر من أربعين عاما من الاحتلال ، حين حطموا وأزالوا من الوجود " سور برلين " الذى كاد أن يصبح من حقائق الكون .. وبالرغم من سحق ثورتي المجر وبولندا بالدبابات ، ومصرع الألوف من المطالبين بالحرية .

Delbert Long & Roberta Long : Education in the USSR, Phi Delta Keppa Educational Foundution, Bloomington, Indiana, U. S. A, 1980.

وإذا كانت جماهير عريضة من سكان الاتحاد السوفيتي نفسه قد فوجئت بما جرى على أرضها حين وجدت ما كان يسمى " بالاتحاد " وقد أخذ يتفتت إلى جزئيات ، وأخذت هذه الجزئيات يحارب بعضها البعض ، أقول إذا كان ذلك قد حدث هناك إلا أن بعض التوابع والذيول فى بقية العالم ، ومنطقتنا العربية من بينها ، لم تستطع أن تعى أبعاد ما جرى هناك ، لأنهم كانوا قد الغوا عقولهم وأفهامهم ، وساروا مغمضى العيون والأفهام خلف أسيادهم الشيوعيين ، فلما انكشف الأمر هناك ، وظهر الخراب الشيوعى العفن للجميع كان من أشباه المستحيلات عليهم هنا أن يصارحوا أتباعهم بأنهم كانوا يقودونهم خلف سراب ، أو أنهم كانوا لا يفهمون ، أو – وهذا هو الأخطر – أنهم كانوا عملاء لدرجة أن بعضهم (الشيوعيون العرب) ذهبوا إلى موسكو يقابلون المسؤولين هناك ، محاولين أن يقنعوهم بأن يتماسكوا ، وأن يستمسكوا بالشيوعية التى لا بديل عنها ، وذلك كما روى من كان ذات يوم أشهر صحفى عربى على المستوى الدولى (*) .. !!

لقد كان كبار المسؤولين فى الاتحاد السوفيتى السابق يحاولون أن يشرحوا لهم الوضع الجديد فى بلادهم – روسيا – وكيف أن " البيروسترويكا " الجديدة التى نادى بها " جورباتشوف " ، والتى كان يحاول بواسطتها أن " يصارح " شعبه بأن وضع الاتحاد السوفيتى الراهن هو غير وضعه فى السابق ، وبأن أوضاعهم الاقتصادية المتدهورة والمرهقة لم تعد تحتمل الجرى واللهث الذى يقطع الأنفاس خلف نفقات التسليح الرهيبة ، وخاصة ما عرف منها باسم " حرب النجوم " Star War " ، وبأنهم فى الحقيقة – وفى النهاية – ليسوا إلا دولة من دول العالم النامى فى جميع مجالات حياتهم ، مع استثناء واحد فقط ، هو مجال السلاح والذى ركزوا عليه جهودهم فأفقروا مجتمعاتهم وطحنوا

(*) محمد حسنين هيكل : راجع كتاباته التى مست هذا الموضوع الخطير .

مواطنيهم ، بحيث أن أفراد شعبهم كانوا يحتاجون إلى أساسيات الحياة [1] ، وهم بطبيعة الحال ما كانوا يفكرون فى كمالياتها ، ورغم كل ذلك كان صعبا على الذيول والأتباع أن يعوا وأن يفهموا ، لأن الأوضاع الجديدة كانت أسرع منهم ، أو من عقولهم وأفهامهم التى سبق وأن تحجرت ، وبالتالى قادت أصحابها إلى الوقوف فى مواقع العبيد الخانعين .

وفى الخليج العربى ، ولازال الحديث عن التغيرات السياسية الدراماتيكية والعنيفة ، عاشت دوله ، وخاصة الكويت والمملكة العربية السعويدة ، تجربة مرة قاسية ومرعبة ، بكل ما فى الكلمة أو الكلمات من معانى، فلقد اعتادت هاتان الدولتان – بالتحديد – على مد يد العون للنظام الحاكم فى العراق ، وعلى مساندته فى المحافل الدولية ، وخاصة فى صراعه المسلح والممتد مع إيران .

ولقد نشئت أجيال من الأطفال والشباب الصغار فى المنطقة وهى تقرأ فى الصحف والمجلات ، وتشاهد على شاشات التليفزيون وقنواته أن نظام الحكم فى " بغداد " نظام عربى شقيق ، وأنه مهتم بقضايا الأمة العربية ، وأنه مدافع متمرس عن مقدساتها ، بل وأكثر من ذلك أنه أعلن نفسه حامى حمى " البوابة الشرقية " للأمة العربية ضد أطماع إيران ، كما أنه هو الذى يعد جيوشه ويجهزها للفتك بعدو العرب الأول – إسرائيل – بل إنه يهدد بإحراقها ، ونسفها من الوجود نسفا .. !!

---

[1] يمكن فى هذا المجال مراجعة الكتاب الذى كتبه الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون بعنوان "١٩٩٩م نصر بلا حرب " ، إعداد وتقديم المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، وفيه نظرات خبير متفرد فى شؤون السياسة الدولية عامة ، وشؤون الاتحاد السوفيتى على وجه الخصوص .

فجأة .. صحا الجميع فإذا القوات المسلحة للعراق (الشقيق .. !!) في قلب الكويت ، تقتل .. وتنهب .. وتغتصب .. وتسلب .. وتحرق .. وتدمر .. وتخرب ، وإذا – كذلك – آلاف الدبابات والعربات المدرعة والصواريخ وقد تحركت على حدود الجبهة الشرقية مع المملكة العربية السعودية ، في مفاجأة أذهلت الجميع وشلت تفكيرهم وروعتهم ، بل وقلبت حسابات المنطقة العربية كلها رأسا على عقب .. !!

وصعق العقلاء في العالم العربي والإسلامي وهم يرون أنظمة عربية اعتادت أن تقف في صف عرب الخليج ، بفضل ما كانوا يحصلون عليه من دعم ومعونات من تلك الدول ، واتضح لكثيرين أن الأحاديث عن العروبة ، وعن الأخوة العربية ، وعن التاريخ المشترك ، وكذا عن الأهداف الواحدة ، والمصير الواحد ، اتضح أنها لم تصمد في وجه الاختبار العنيف الذي فوجئت به على غير انتظار ..

وجاءنا – نحن التربويين – سؤال إجباري (!!) لا فرار منه ولا فكاك من الإجابة عليه ، فماذا سنقول لأبنائنا ، ولجميع أجيالنا الصاعدة عن هذا الحدث الغريب المذهل والمفاجئ ، بل والكارثة .. ؟ كيف نفسر لهم ، وكيف نعلل هذا السلوك من .. الأخ .. والجار .. والصديق .. بل والحامي للحدود التي اخترقها هو بنفسه ، وكيف نفسر سلوك جنوده وضباطه الذين فعلوا (بإخوانهم وأخواتهم) ما لم يفعله الأعداء الألداء ، وهل يمكن أن تكون لدينا إجابة تربوية تستجيب لحيرة عقول أبنائنا ولانفعالاتهم النفسية بعد ما شاهدوه على شاشات التليفزيون من فظائع وجرائم كنا نحاول أن نشرحها لهم عن إناس كنا نقول لهم إنهم " التتار " و " المغول " ، فإذا بهم يرونهم – رأى العين – أمامهم على تلك الشاشات ، وهم يفعلون أكثر من " التتار " وأعنف من "المغول"

كما استمعوا لحكايات وقصص أغرب من الخيال ، من الذين هربوا من جحيم تلك الأيام [١] [٢] ؟؟ !!

إن التربية هنا ، وفى أى مجتمع ، ينبغى على القائمين على أمرها أن يكونوا واعين لما يجرى داخل مجتمعهم من تغيرات وتقلبات ، خاصة فى هذا المجال الخطير ، مجال السياسة ، لأنه لا يثبت على حال إلا فيما ندر من المجتمعات ، خاصة فى عصر كثرت فيه الثورات والانقلابات ، وأصبح من المعتاد على مجتمع أن يمسى وهو محكوم بنظام سياسى معين ، فإذا طلع عليه الصباح فوجئ بنظام آخر مغاير تماما للنظام الأول . وإن لم يقع هذا له وقع عند غيره ، من الجيران أو حتى ممن يبتعدون عنه .

إن هذا القول ينطبق ، على وجه التحديد ، على البلاد التى لا تعرف الاستقرار السياسى ، والتى تشتهر بالانقلابات العسكرية التى تقوم بها مجموعات من الضباط يرى أفرادها أن أقرب وسيلة للحكم هى الدبابة والمدفع والطائرة . وكم عانت بلاد كثيرة من تلك الانقلابات ، نظرا لأن هؤلاء الضباط فى معظمهم يكونون من الشباب المتحمسين الذى لا يعون شيئا فى بحور السياسة العميقة ، ولا فى أمور العلاقات الدولية المتشابكة ، وهم لا يهتمون – للأسف الشديد – بذلك كثيرا ، طالما بقوا هم فى مواقع السلطة والحكم ، وطالما يحققون أحلام الشهرة والمجد التى يتصورونها ويحلمون بها ، بينما مجتمعاتهم وشعوبهم هى التى تدفع الثمن من أمنها واستقرارها ، لأن هؤلاء الحكام المتحمسين إلى حد التهور يغيرون كل شيئ فى مجتمعاتهم من الشيئ إلى نقيضه عادة .

---

(١) محمد عبد العليم مرسى : غزو الكويت كارثة المسلمين الجديدة ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٩٩١م .

(٢) محمد عبد العليم مرسى : التربية وكارثة غزو الكويت ، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩١م .

وهم – للأسف الشديد – إذ يفعلون ذلك إنما يتخذون التربية وسيلة لذلك التغيير بقصد تخريج أجيال من الشباب تؤمن بأهدافهم هم ، بل وتصرخ بشعاراتهم التى يبتدعونها ، ويبتدعها لهم صنف من الناس الذين يشايعونهم ويتسلقون معهم على أكتاف الشعوب المغلوبة على أمرها ، والمقهورة بقوة الحديد والنار اللذين دفعت أثمانهما من أقواتها .. !!

التغير فى الجوانب الاقتصادية :

وفى هذه الجوانب نجد تغيرات راديكالية مؤثرة ، بل إنها ، فى بعض الحالات ، وصلت إلى حد التغييرات الجذرية العميقة .. من النقيض إلى النقيض تماما ، مما ترتب عليه حيرة أجيال عريضة من أبناء مجتمعاتنا الذين نشئوا على مفاهيم معينة درست لهم فى الكتب ، وشرحت لهم فى فصول الدراسة ، بل ولاحقتهم بها وسائل الإعلام ليل نهار تغرسها فيهم ، وتبين لهم محاسن ما تقدم ، ومناسبته لمجتمعاتهم ، بل والجنان الموعودة التى ستأخذ هذه المجتمعات إليها فيما لو طبقت هذه المفاهيم ، وبالتفصيل :

لقد لقنت أجيال وراء أجيال من المواطنين الكبار ، والشباب ، بل والأطفال ، فى تاريخنا المعاصر مبادئ كثيرة عن محاسن " النظام الاشتراكى"، وعن عدالة التوزيع ، وعن الطهارة الثورية ، والنقاء الثورى الذى يتمتع به الاشتراكيون الذين تولوا مقدرات البلاد أو الأوطان التى كانوا قد قبضوا على أزمة الحكم فيها . وأكثر من ذلك أن الجهاز الإعلامى لعدد من تلك الأنظمة قد وعى بذكاء خبيث طبيعة مجتمعاتنا العربية ، وفهم تماما أنها مجتمعات متدينة ، وأن دينها الإسلامى يمثل لها بعداً بالغ الأهمية فى حياتها ، فأحال بعض الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، كى تناسب أغراضهم ومراميهم وما يهدفون إليه ، وللأسف الشديد سقط عدد من العلماء فى شراكهم ، إما عن

سذاجة ، وإما عن وعود بوظائف معينة ، ومن هنا أصدروا عددا من الشعارات، بل والدراسات التى تربط بين الدين الإسلامى الحنيف ، وبين اشتراكيتهم المشبوهة التى استوردوها من مجتمعات لا تؤمن بدين ، بل إنها تحرم هذا الدين وتحاربه وتقف فى طريقه بلا هوادة ، وتعتبره أفيون الشعوب، فخرجت علينا مقالات خطيرة تربط بين حديث لسيد الخلق أجمعين -ﷺ- يقول فى معناه أن الناس شركاء فى ثلاث : الماء والنار والكلأ ، كما أنهم افتروا على الصحابة الكرام – رضى الله عنهم أجمعين – ، بدعوى أن نفرا من بينهم كانوا " اشتراكيين " ، ومنهم الصحاب الجليل " أبو ذر الغفارى " – رضى الله عنه – ، وكذا السيدة عائشة – رضى الله عنها – ، واتخذوا من هذه المفاهيم المنحرفة التى أشاعوها بين الناس ستارا لعمليات من الظلم الاجتماعى والإضطهاد الاقتصادى ، حيث اغتصبت شركات ضخمة عملاقة كانت تخدم اقتصاديات أوطانها تحت شعار " التأميم " ، وحرم أصحابها الأكفاء الذين خدموا أوطانهم بكفاءة عالية لسنوات طوال ، حرموا من ممتلكاتهم ، ومن نتاج عملهم ، بل إن نفرا منهم غير قليل حرموا حتى من مساكنهم وممتلكاتهم الخاصة ، وبالذات فى الحالات التى كانت فيها تلك المساكن والممتلكات ملاصقة لمبانى شركاتهم الكبرى ، فاصبحوا بذلك ممن افتقروا بتلك الثورات ، وصاروا أذلة بعد أن كانوا روادا اقتصاديين فى مجتمعاتهم ، أو ممن يتكففون الناس بعد أن كانوا يمتلكون مئات الآلاف من الأفدنة الزراعية الخصبة التى كانت تطعم ملايين الناس فى بلادهم ، بل ويفيض إنتاجها فيصدر للخارج ، ليعود إلى بلادهم بعملة صعبة كانت ترفع رأس وطنهم عاليا ، ولم يكن بند الاستدانة واردا فى قاموس ذلك الوطن ، بل إنه ، وبالتحديد فى حالة مصر ، كان ميزان المدفوعات يميل لصالحها ضد بريطانيا (العظمى) عام ١٩٥٢م بمبلغ عظيم ، بمعايير تلك الفترة ، وهو خمسمائة مليونا من الجنيهات الاسترلينية ، وهو نفس العام الذى قامت فيه الثورة .. التي نادت بالاشتراكية ،

وطبقتها بعنف على أفراد مجتمع مسلم يختلف أفراده كلية عن المجتمعات الماركسية الشيوعية .

وكانت النتيجة أنه فى ظل هذه الأيديولوجية الاقتصادية المستوردة أصبحت بلادنا مدينة بعشرات المليارات من الدولارات ،وتحولت طبقات بأكملها إلى ما تحت حزام الفقر ، خاصة بعد أن ظهرت طبقات جديدة من المنتفعين والمهربين واللصوص وتجار المخدرات والمنحرفين ، وكان حتما أن يؤثر ذلك على الأوضاع الاجتماعية فى البلاد .

ونستطيع أن نمضى فى الحديث بلا توقف – عن التغيرات التى تجرى فى كل مجال من مجالات الحياة ، وكلها تمس جانب " أصول التربية " ، وهدفنا من كل ذلك هو أن الباحث فى مجال تلك الأصول ينبغى عليه أن يكون واعيا لكل ما يجرى فى مجتمعه من تغيرات ، لأنه إذا مست " الأصول " ولحق بها التغير فإن رجال " علم الأصول ذاته " ينبغى أن يكونوا أول المنتبهين لذلك ، وأول الداعين لضرورة ملاحقة التربية لما يجرى حولها من تغير ، حتى لا تتخلف عن ركب المجتمع الذى تعمل له وفيه ، وحتى لا ينصرف عنها من تعمل على تربيتهم وإعدادهم للحياة فى ذلك المجتمع .

إننا – نحن التربويين – ينبغى علينا أن نتنبه إلى ما يجرى على أرضنا .. ومن حولنا .. من تغير ، خاصة وأن هذا التغير يجرى بمعدلات سريعة ، تزداد سرعة كل يوم ، وتزداد عمقا فى جميع الاتجاهات ، وفى جميع مناحى حياتنا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .. بل والنفسية كذلك . ومعنى التنبه الواعى هنا هو أن نكون على حذر من هذه التغيرات ، وأن ندرس أسبابها وعواملها ونتائجها وتأثيراتها ، بل وأن ندرس الطرق التى تحدث بها ، وذلك حتى لا نفاجأ بها بحيث تأخذنا على غرة .

إن التغير أمر حتمى ، وهو من سنن الله الكونيـــة ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ و﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ . ولقد تنبه بعض العقلاء لهذه الحقيقة منذ أكثر من ألفى عام ، لدرجة أنه ينسب إلى هيراقليتس Heraclitus الذى عاش قبل خمســمائة عام قبل ميلاد المسيح – عليه السلام – ، قوله : ليس هناك من شيئ دائم على الأرض .. إلا التغير [١] .

هذا ولقد تنبهت الشعوب الغربية المتقدمة ، وخاصة الولايـــات المتحــدة الأمريكية ، لموضوع التغير هذا ، والـــذى يســير بســـرعة عظيمـــة فـــى مجتمعاتها، فبدأت تلاحقه بالبحوث وبالتوقعات العلمية ، وكذا بالاســتعداد لـــه فى كل مجال، لدرجة أنه ســادت هنـــاك صيحـــة ذكيـــة ذات معنـــى واع حصيف ، تقول : "دعونا نســتعد لتنظيم المســتقبل ، لأن الوقت قــد اصبــح متأخرا جدا لتنظيم الوقت الحاضر " [٢] . كذلك قيل هناك " لم يعد السؤال هــو هل هذه الدنيا تتغير أم لا، وإنما الســؤال الملح أصبح هو ما كيفية ذلك التغير، وما سرعته " [٣] .

كذلك ظهرت فى المجتمع الأمريكى صيحـــات محمومـــة ومتلاحقـــة ، نتيجـــة لســـرعة وشدة التغير الذى يجـــرى هناك ، وكلها صيحـــات واعيـــة تتحدث عن المستقبل ، وعن الاســـتعداد لـــه ، بناء على توقعـــات علميـــــة بنيت على إحصاءات وأرقـــام ومعـــادلات وإســـقاطات تبين حركة الحيـــــاة فى المجتمع ، خاصة فيما يســـتقبله من أيـــام ، بل وأصبحت هنـــاك – مـــن

---

[١] William C. Millen : The Third Wave of Educations Future, Phi Delta Kappa Educational Foundution, Bloomington, Indiana, U. S. A., 1981. P. 8.

[٢] Ilid., P. 7 .

[٣] Ilid, P. 10 .

فترة ليست بالقصيرة .. ربما منذ السبعينات - مقررات تدرس على مستوى الدراسات العليا فى كثير من الجامعات ذات السمعة العلمية الطيبة ، فى مجال " علم المستقبل Futurism " وصار أصحاب هذه الصيحات يدعون " بالمستقبليين " ، " المهتمين بشؤون المستقبل Futurists " .

وعلى سبيل المثال فإن بعض المحاور الرئيسية لهذه الدراسات التى يعتنون بها هناك تقول أنه بحلول عام ٢٠٠٠ الميلادى سوف يصل عدد سكان العالم إلى ٦,٤ بليون نسمة ، وتلك زيادة خطيرة ، تصل إلى ٥٠% من عدد السكان الذى كان فى بداية عقد الثمانينات ، وهم يتوقعون أن نسبة كبيرة من هؤلاء السكان سوف يكونون فقراء بشكل محزن ، وأن هذا العالم المزدحم لن يكون مستقرا ، بل إنه سوف يكون عرضة للتمزق والبؤس والفاقة (*) .

بل وأكثر من ذلك أن نقرأ عن التقرير المعنى بشؤون العالم كله ، والذى كتبه نفر من العلماء ، ودفعوا به إلى الرئيس الأمريكى ، وقد وضعوا له عنوانا : " التقرير العلمى للعام ٢٠٠٠ للرئيس The Global 2000 Report to the President ، وقد تنبأوا فيه بأن الطلب على الطاقة سوف يزداد بنسبة ٥٨% ، وبأن الطاقة النووية سوف تتضاعف ثلاث مرات بحلول عام ١٩٩٠م (أى منذ نحو عشر سنوات الآن) ، ويختتم كاتب التقرير ما

(*) لعل ما جرى ويجرى فى الصومال ، البلد العربى المسلم ، خير دليل على صدق التقرير فى ذلك الجانب ، ولعلنا لازلنا نذكر مئات الألوف الذين حصدهم الموت ، وكانوا هياكل آدمية ، كما رأيناهم جميعا على شاشات التليفزيون ، وما يجرى فى بعض بلاد أخرى للمسلمين قريب من هذا ، وفى وسط إفريقيا هل نستطيع نسيان ما جرى فى رواندا ، ذلك البلد التعيس ، والذى حصد الموت فيه أكثر من مليون من البشر التعساء الذين ذهبوا وكأنهم لم يكونوا .. !!

توصلوا إليه قائلين بأن هناك عالما سوف يكون مختلفا تمام الاختلاف عن العالم الحالى (وقت كتابة التقرير منذ أكثر من عشرين سنة) ، وهذا العالم جارى التكوين فى الوقت الحاضر ، وهذا العالم يتطلب أساليب جديدة للتعامل معه، كما أنه – بالقطع – سوف يتطلب إعداد وتربية أفراد من نوعيات خاصة [١].

ولمن أراد أن يقرأ فى الجانب الاقتصادى والاجتماعي لواحد من العلماء فعليه أن يعي أبعاد الأرقام التى سنوردها – نقلا عنه – وعليه ن يفكر فى دلالاتها ، كما أن عليه أن يتحمل قسوة الحقائق ، فيما يختص بعالم المسلمين ، ذلك العالم الذى قال عنه رسولنا الكريم – ﷺ – : " لا يؤمن من بات شبعانا وجاره جائع " ، يقول الطويل ، وهو واحد من الخبراء الأطباء فى الأمم المتحدة :

" تقول مصادر الأمم المتحدة إن أكثر من نصف سكان بنجلاديش ، البالغ عددهم (٩٢) مليون نسمة ، يعيشون دون مستوى الكفاف ، وتنقل وكالة رويتر للأنباء أن عشرة بالمائة من سكان العاصمة (دكا) البالغ مجموعهم (٢,٥) مليون نسمة ، هم من الشحاذين الذين يسهمون بنصيب وافر فى الجريمة والدعارة " [٢] .

---

[١] محمد بعد العليم مرسى : التربية ومشكلات المجتمع فى دول الخليج العربية .. مشكلة العمالة الأجنبية (معالجة إسلامية) ، مع نموذج عالمى للتطبيق عن مشكلة الطاقة ، دار الإبداع الثقافى ، الرياض ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

[٢] نبيل صبحى الطويل : الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين ، كتاب الأمة ، العدد (٧) ، رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر ، ١٤٠٤هـ ، ص ٢٧ .

هذا ولقد وضع علماء الاجتماع مقاييس كمية لمدى انتشار الحرمان فـــى العالم باعتماد مؤشرات تقريبية معينة منها : نقص التغذية ، متوسط طول العمر المتوقع عند الميلاد ، مدى انتشار الأمية .. وغير ذلك .

أما التغذية فحاجة بدنية أساسية لازمة ، وأما متوسط طول عمر الفــرد فيعكس مدى تأثير مختلف أنواع الحرمان ، وقد أضيف إلى هذين المقياســين البيولوجيين عنصر الأمية كمؤشر على الحرمان مــن التطــور الاجتمــاعى . وتعطى هذه المؤشرات الثلاثة – فى نظر خبراء الأمم المتحدة – صورة موجزة وواضحة لمدى انتشار الفقر فى مظاهره الشائعة .

وعلى هذا الأساس صنّفت هيئــة الأمم المتحدة عام ١٩٧١م دول العالم ، حســب هذه المقايــيس ، فى جدول مقسم إلى ثــلاث فئــات : دول متقدمــة ، ودول نامية فقيرة ، ودول معدمــة (وهى أكــثر بلاد العالم فقــراً .. وتخلفــا ماديــا) أو هم يتطلفــون فى اللفــظ ويطلقون عليها مصطلح " الــدول الأقــل نمــواً .. !!

أما الفئة الأولى المتقدمة فتشكل ٢٥% من سكان العالم ، وهى فـــى ٣٧ دولة تعداد سكانها حوالى (١١٠٠) مليون نســمة ، والدول الناميــة تشــكل ، مع الــدول المعدمــة ، ٧٥% من سكان العالم ، ومجموع دولهــا ، آنــذاك .. أى عام ١٩٧١م ، (٨٩) دولة ، أما سكانها فبلغوا (٣٠٠٠) مليــون نســمة ، وحددت الجمعيــة العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٧١م الــــدول المعدمــة – الأكثر تخلفــا بــ (٢٤) دولــة ، ثم أضيفت إليــها أربــع دول أخــرى عــام ١٩٧٥م ، وزيدت ثلاث أخرى عام ١٩٧٧م ، وأخــيرا رفعوهــا إلى ســت وثلاثين دولــة ، بعد إضافــة خمس دول أخرى (*) ، وقالوا إن هذه الــدول –

(*) يلاحظ أنها تتزايد .. باستمرار .. ولا تتناقص .. وليس فى هذا غرابة طبعا .

الأقـــل نمـــوا .. كما أســـموها – صنفت هكذا على أساس شـــروط ثلاثـــة قائمة فيها [١] :

١ – إجمالى الدخل القومى للفرد كان أقل من (١٠٠) دولار أمريكى فى العام .
٢ – كان نصيب الصناعة من إجمالى الدخل القومى لا يتعدى (١٠%) .
٣ – كانت نسبة الأمية فيها (٨٠%) أو أكثر .

ومن بين هذه الدول كان (٢٥) منها فى إفريقيا ، (٨) فى آسيا ، (٢) فـــى أوقيانوسيا ، وواحدة فى أمريكا . وعموما فإن أغلبية سكان هذه الدول فى قارتى آسيا وإفريقيا هم من المسلمين ، وأربع منها أعضاء فى جامعة الدول العربيـــة ، وهذا هو ما يهمنا جدا فى عالمنا العربى الإسلامى حين نتحدث عـــن اشـــتقاق أصول التربية من واقع مجتمعاتنا وفيما يلى جدول يبين أسماءها – أى أســـماء الدول – ومواقعها حسب القارات .

---

[١] المرجع السابق .

جدول رقم (١)
يبين أفقر دول العالم (وأكثرها تخلفا) [١]

فى إفريقيـــا		فى آســـيا
١ – تشاد .	١٤– الرأس الأخضر.	٢٦– أفغانستان .
٢ – غينيا .	١٥– بوروندى .	٢٧– بنجلاديش .
٣ – مالى .	١٦– بنين .	٢٨– بهوتان .
٤ – النيجر .	١٧– بوتسوانا .	٢٩– اليمن (الشمالى) (*)
٥ – الصومال (*) .	١٨– ليسوتو .	٣٠– اليمن (الجنوبى) (*)
٦ – السودان (*) .	١٩– ملاوى .	٣١– جزر المالديف .
٧ – ناميبيا .	٢٠– رواندا .	٣٢– نيبال .
٨ – تنزانيا .	٢١– أوغندا .	٣٣– لاوس .
٩ – فولتا العليا .	٢٢– جيبوتى .	**فى أوقيانوسيا**
١٠– الحبشة .	٢٣– غينيا الاستوائية .	٣٤– جزر ساموا (الغربية)
١١– غينيا بيساو .	٢٤– ساوتومى .	٣٥– تونجا .
١٢– جزر القمر .	٢٥– سيشيل .	**فى أمريـــكا**
١٣– إفريقيا الوسطى .		٣٦– هاييتى .

ومن مثل هذه الإحصائيات ، ومن غيرها .. وهو كثير ، هل يمكننـــا أن نفصل بين الظروف الاقتصادية لمجتمـــع ، أى مجتمـــع ، وبيـــن الأوضـــاع

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٢٨ – ٢٩ .

(*) دول عربية .

الاجتماعية السائدة فيه ، وهل يمكن أن نفصل بين هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية .. وبين التربية التى تسود بين قطاعات أفراد ذلك المجتمع .. ؟؟

هل يمكن أن نتحدث عن تعليم مناسب ، وليس عن تربية مناسبة ، بين أفراد مجتمع يعيش نصف سكان عاصمته على الأرصفة ، ويبحثون فى أكوام الزبالة عن شيئ يقتاتون به .. ؟ وقد لا يفكر كثيرون منهم فى ملابس تستر أجسامهم ، لأن التفكير قضية متعبة وهى - بعد - غير مجدية .. ثم إنها مكلفة .. !!

- وهل يمكن أن نتحدث عن تعليم مناسب ، وليس عن تربية مناسبة ، بين افراد مجتمع تعيش نسبة لا يستهان بها من سكان عاصمته ، والتى هى للعلم واحدة من أكبر عواصم العالم سكانا ، يعيشون بين المقابر ، ووسط جثث وبقايا الأموات ، وهل يمكن أن نتتبع بالبحث والدرس الآثار النفسية لأطفال يرون الأموات يدفنون حولهم .. كل يوم ، ويشاهدون مواكب المشيعين وهم يبكون ويصرخون نهارا ، بينما قد يقيم أهلوهم .. هم .. بعض الأفراح .. مساء ، داخل المقابر ، احتفالا بزواج بعض ذويهم .. ؟ أليست هذه صورة مأساوية لبيئة ينشأ فيها هؤلاء الأطفال ، ويتوقع منهم أن يكونوا أسوياء فى حياتهم المستقبلية .. ؟؟ !!

ألا تتدخل الأوضاع الاقتصادية من فقر وبؤس ومسغبة ، والتى أدت بآلاف مؤلفة إلى السكنى وسط المقابر ، مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة لأبناء هؤلاء البشر ، والذين لونت تنشئتهم الاجتماعية الجديدة بصرخات الثكالى والأرامل والأيتام ، كما أنهم أصبحوا يجاورون ، دون ، اختيار منهم ، بعض الفارين من العدالة ، والذين اتخذوا من المقابر مأوى لهم ، سواء كانوا من تجار

المخدرات ، أو القتلة والسفاحين ، أو على أقل تقدير من الهاربين من بعض أحكام القضاء .. ؟؟

وهل يمكن أن نفصل أوضاع هؤلاء الأطفال ، أبناء سكان المقابر ، عن أوضاع نظرائهم من الأطفال الذين يعيشون معهم فى نفس العاصمة – القاهرة – ولكن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية جد مختلفة ، بل هى تماما مختلفة ، ولا وجه للمقارنة بينها وبين أوضاع هؤلاء الفقراء التعساء ، ولنقرأ :

تقول دراسة موثقة ، قام بها أحد الباحثين ، نشرت فى مجلة الهلال عدد يناير ١٩٩٥م بالقاهرة ، إن هناك طائفة من الأثرياء فى مصر يعيشون على دخول خيالية لا يمكن تصورها ، ويكفى أن نفرا من هؤلاء الأثرياء يمتلكون شققا فى إحدى العمارات الضخمة الفخمة التى تطل على نيل مصر ، وأن الشقة الواحدة فيها وصلت قيمتها (٥٤,٥) مليون جنيه مصرى ، وأن أفراد هذه الطائفة من السكان يتناولون أطعمتهم فى مطاعم خاصة تقدم الوجبة فيها ، فى المتوسط ، بمبلغ (٥٠٠) جنيه ، وأن بعضهم يمتلكون جزرا بأكملها فى البحر المتوسط ، وفى البحر الكاريبى ، وأن لهم نوادٍ خاصة بهم وكذا بأسرهمَ ، لا يقربها غيرهم [١].. !!

هل يمكن أن تكون هناك تربية توحّد بين أبناء هاتين الطبقتين ، فى مجتمع واحد .. ؟ خاصة وأننا نعرف أن التربية من عناصر توحيد الأمة وتماسكها ، ومن عناصر ربطهم ببعض ، إذ تقوم بدور المادة اللاحمة بينهم مثلها تماما مثل الأسمنت فى البناء ، والذى يجعله قويا متماسكا .. هل هناك فرصة حقيقية لتربية طرفى المعادلة .. هؤلاء .. تربية سليمة مشتركة .. ؟

---

[١] رشدى سعيد : الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى المعاصر ، مجلة الهلال ، القاهرة ، عدد يناير ١٩٩٩م ، ص ص ٨ – ٢١ .

وسؤال آخر : هل يمكن للتربويين ، مهما أوتوا من علم ، ومهما كان لديهم من إخلاص لأمتهم أن يحلُّوا هذه المعضلة .. وحدهم .. ؟؟

ولنقرأ بألفاظ الكاتب د. رشدى سعيد ، بعض ألفاظ هذه المعادل الخطيرة فى واقع المجتمع المصرى المعاصر ، وقد قدم لموضوعه بذكاء وحذر شديدين حين أفاد بأن المعلومات التى نشرها فى المقال ، والإحصاءات التى دعّمه بها، ليست من عندياته ، وإنما هى منشورة فى أجزاء منها بجريدة " الأهرام الاقتصادى " ، و " مجلة المصور " وفى الحالتين فإن الجريدة والمجلة حصلتا على المعلومات من تقريرين لسلطات عليا فى مصر لا يرقى إليها الشك ، حيث حصلت الأولى بياناتها من تقرير لمجلس الشورى المصرى ، وقد نشرته "الأهرام الاقتصادى " بتاريخ ١٩٩٤/١٠/٢٤م ، كما حصلت المجلة " المصور " على بياناتها من تقرير أعدته محافظة القاهرة عن حالة الإسكان فى القاهرة الكبرى ، ونشرته المجلة بتاريخ ١٩٩٤/١/١٤م .

هذا وقد قسّم الكاتب فئات المجتمع المصرى إلى : كتلة البشر الغاطسة ، وكتلة البشر الطافية ، وداخل كل كتلة قسّمها إلى فئات ، ولن نورد التفصيلات الكثيرة التى حظيت بها الدراسة ، ولا الأرقام الكثيرة التى اشتملت عليها ، ولكننا سوف نورد – فقط – طرفى المعادلة ، لنرى مدى الفروق الهائلة الموجودة بين طبقتين يعيش أفرادهما فى مجتمع واحد ، ويتلقى أبناؤهما نفس التربية .. أو هكذا يفترض .. !!

يقول الكاتب عن " كتلة البشر الغاطسة " : " هذه الكتلة البشرية الهائلة ، والتى تبلغ الخمسين مليونا من البشر تنتظم فى حوالى ٨,٥ مليون أسرة ، يتراوح دخلها الشهرى بين ١٠٠ ، ٥٠٠ جنيه (مصرى طبعا) مما يجعلها تحصل على حوالى ٢٦% من جملة الدخل القومى ، على الرغم من أنها تمثل

٨٦% من جملة سكان مصر . ويسكن ٥٦% من أسر هذه الشريحة فى الريف، ويسكن الباقى فى المدن ، سواء فى أحيائها الشعبية ، أو علـــى أطرافـــها فـــى مناطق عشوائية أسستها بنفسها دون تخطيط . ولا يحتاج المرء إلى خيال كبـــير لكى يرى أن هذه الكتلة الكبيرة من البشر تسكن مساكن بدائية تعانى من تدنـــى الاشتراطات الصحية التى تتمثل فى سوء التهوية والإضاء وتدنـــــى المرافـــق الصحية ، وأحيانا انعدامها ..!!

وتزداد الحالة سوءا فى حالة مساكن الريف لوجـــود حظـــيرة المواشـــى والدواجن داخل المسكن ، ولوضع مخلفات المواشى والدواجن داخل المســـكن ، ولوضع مخلفات المحاصيل فوق أسطحها . ويشكل سكان هذه الكتلـــة البشـــرية حوالى ٧٠% من جملة سكان المدن والأحياء العشوائية التى تعيش فيها ، وهـــى لا تقل سوءا عن مساكن الريف .. بل لعلها أكثر سوءا إذ لا يوجد حـــول هـــذه الأحياء خلاء أومنطقة خضراء يمكن أن يخلو إليها الإنسان ، كما هى الحالة فى الريف .

وفى تقرير أعدته محافظة القاهـــرة عن حالة[٣]الإسكان فى القاهرة الكبرى أن ٨٤% من جملة إنشـــاءات المساكن فيها قـــد تم بطريقة غير رســـمية ، وأن ٤٥,٦% من جمـــلة سكان القاهرة الكبرى ، والذيـــن بلـــغ عـــــددهم ١٢,٩% مليون نسمة يعيشون فى المناطـــق العشوائية .. ويزدحم الســـــكان فـــى هـــذه المناطق العشـــوائية بحيث يبلغ متوسط عدد الأنفس فـــى الحجـــــرة الواحـــدة حوالى الســـتة ، وباســـتثناء نســـبة صغيرة لا تتعدى ٢٠% من جمـــلة مساكن هذه الأحياء فإنه لا توجد لأى من هـــذه المساكن دورة مياه صحية مستقلة ، بل يشترك أعداد منها فى دورة واحـــدة ، كما أن مياه الشرب لم تدخـــــل إلا إلـــى ٤٥% من جملة هذه المساكن، أما باقيـــها فيعتمد على النهر أو الترعـــة فـــــى

الريف، أو على صنبور عام فى المدينة . وليس بأى من القرى صرف صحى إلا ما ندر ، أما المناطق العشوائية فالصرف الصحى فيها إما أنه غير موجود أصلا ، أو أنه فى حالة لا تسمح بمواكبة الزيادة فى السكان ، أو فى استهلاك المياه [١].

وننتقل الآن إلى الطرف الآخر من الصورة ، الجانب المترف من المجتمع والذى يتمتع أفراده بنوع من الحياة المادية لا علاقة له على الإطلاق ،من قريب أو من بعيد ، بأفراد الطبقة السابقة ، ويسمى المؤلف أصحاب هذه الطبقة بكتلة البشر الطافية ، يقول " إنها تحصل على ٧٤% من مجمل الدخل القومى ، رغم أنهم يمثلون ١٤% فقط ، وهم يعيشون فى مستوى أعلى من العيش عن جموع كتلة البشر الغاطسة .. إنها هى التى تستخدم كل عدد (!!) الحضارة فى مصر فهى التى تملك جميع السيارات الخاصة ، وهى التى يوجد بمساكنها كل التليفونات المستخدمة فى المنازل ، وهى التى تظهر أسماؤها فى صحيفة الاجتماعيات فى الجرائد عندما يتزوج أبناؤها ، أو يولد لها مولود ، وفى صحيفة الوفيات عندما يموت أفرادها ، وهى التى تشكل طبقة المستهلكين التى يسعى إليها المستثمرون الأجانب لبيع منتجاتهم الاستهلاكية ، فهم الذين يأكلون هامبورجر ماكدونالدز ، ودجاج كنتاكى ، ويشربون الكوكاكولا (!!) ويذهبون إلى مدن الملاهى الجديدة ، ويدمنون مسلسلات التليفزيون الأمريكى ، ويلبسون الجينز وأحذية أديداس ، ويستمعون إلى موسيقى الروك الصاخبة .. وهم الذين جنّدت الحكومة أجهزتها لخدمتهم تمد لهم خطوط التليفون ، وتقوم بتوسيع الشوارع لسياراتهم ، بل وتزيد على كل ذلك فتبنى لهم الفيلات الفاخرة على الشاطئ الشمالى غرب الإسكندرية ، وتهذب لهم الشاطئ حتى يصبح بحيرة هادئة مملوءة بالمياه

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ٩ – ١٠ .

الهادئة مخدوم بالكهرباء وخطوط التليفون ، وكابلات التليفزيون عبر مئات الكيلومترات [١] .

ويتركز حديث الكاتب حول الكتلة الطافية هذه فيقول : فعلى قمتها تقع شريحة صغيرة بالغة الثراء ، قدرها بحوالى المليون فرد ، ينتظمون فى مائتى ألف عائلة يمثلون أقل من ٢% من جملة سكان مصر ، ويحصلون على ٤٠% من مجمل الدخل القومى .. إن هذه الشريحة بالغة الثراء ، فهى التى تستورد لها السيارات الفارهة ، وهى التى تدفع عشرين جنيها للهطة (!!) من " الأيس كريم" أو الزبادى الذى يستورد خصيصا لها ، وهى التى تقيم الأفراح الباذخة ، حيث تبعثر الأموال دون حساب ، وهى التى تدفع ملايين الجنيهات فى شراء شقة تبنى خصيصا لهم ، وهم الذين يملكون القصور فى جزيرة " ما يوركا " و "كان" و " كاليفورنيا " ، ويضعون يخوتهم فى موانى " مونت كارلو " و "سان مارينو " .. !!

وقد ذكرت جريدة الأهرام الاقتصادى (بتاريخ ٣/١٠/١٩٩٤م) أثمان شقق عمارة جديدة يجرى بناؤها بالقاهرة بين النيل وشارع الجيزة ، أمام حديقة الحيوان ، تباع فيها الشقة مساحة ٤٠٠ متر مربع بسعر (٦,٥) مليون جنيه ، ثم تأخذ أثمان الشقق فى الارتفاع كلما زادت مساحة الشقة حتى تصل إلى ٥٤,٥ (أربعة وخمسين مليون جنيه .. ونصف المليون) للشقة مساحة ٣٢٠٠ متر مربع (أى مساحة ثلاثة أرباع الفدان) ، وهم الذين يشكلون زبائن الصناعات الجديدة التى ظهرت لترضية شهيتهم فى الإنفاق كصناعة المطاعم ، حيث يصل سعر الوجبة الواحدة خمسمائة جنيه ، والكباريهات

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ١٤ – ١٥ .

حيث تبعثر الأموال بلا حساب ، والأندية التى يبلغ اشتراكها آلافا كثيرة من الدولارات .. إلخ [١] .

وهذه الشريحة الصغيرة من سكان مصر ، والتى تقل نسبتها عن ٢% من مجمل السكان تستهلك أكثر من ٢٠% من جملة الكهرباء المستخدمة فى منازل الجمهورية ، وهناك عمارة واحدة ، هى عمارة مصر – إيران ، أمام حديقة الحيوان بالجيزة تستهلك حوالى ٢ فى الألف من جملة الكهرباء المستخدمة فى كل عمارات ومنازل الجمهورية من الإسكندرية وحتى أسوان .. !!

ومعظم أعضاء هذه الشريحة محدثو نعمة جمعوا ثرواتهم ، أو جلها فى العقدين الأخيرين ، وهم – فى أغلبهم – لا ينتمون إلى طبقات عريقة الثراء ، وباستثناء عدد قليل منهم ، قد لا يصل إلى آلاف قليلة ، ممن جمعوا ثروتهم بالعمل الإنتاجى المثمر ، كبناء المصانع ، أو منشآت السياحة ، أو تجارة المال، فإن الباقين جمعوا الثروة بطرق مريبة [٢] . وقد فصّلها الكاتب فى شرائح ست بيّن فيها المنافذ الخطيرة التى يصل فيها أفراد هذه الشريحة إلى جمع ثرواتهم المهولة هذه ، وجميعها مما يعاقب عليه القانون ..!!

وبعد ..

فيكفينا جدا هذا النموذج الصارخ ، من داخل أحد مجتمعاتنا العربية الإسلامية ، وقد رأينا فى النموذج معادلة بالغة التعقيد، حيث الفقر الفاقر فى كفة ، وحيث الغنى الفاحش فى الكفة الأخرى ، وأستاذ " أصول التربية " الذى ينظر أو يحاول أن ينظِّر لهذا العلم ، وأن يفلسف له لا يمكن أن يغض الطرف

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٥ – ١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ١٦ – ١٧ .

عن آثار هذه الأوضاع على التربية في مجتمعه ، ولعلى أبين وأوضح فكرتى في عدد من النقاط المحددة :

أولا : لا يمكن الفصل بين التربية فى أى مجتمع ، وبين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى ذلك المجتمعُ ، وذلك ببساطة شديدة – لأن التربية التى نتحدث عن أصولها ، والتى يفترض أن تعمل لهذا المجتمع تسعى إلى تخريج أفراد يعيشون الحياة فى هذا المجتمع . ولو أغفلت التربية ما يجرى فى مجتمعها من أوضاع اقتصادية واجتماعية ، ودرست أمورا نظرية بعيدة عن واقع الحياة في مجتمعها ، فإنها بذلك تخدع نفسها من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنها سوف تخرج مواطنين لا يعون أبعاد ما يجرى فى مجتمعهم ، وحال تخرجهم من مؤسساتنا التربوية سوف يشعرون أنهم غرباء فى ذلك المجتمع ، وأننا خدعناهم بما درسنا لهم ، كما أنه لن يكون ذا نفع لهم فى التعامل مع قطاعات المجتمع المختلفة ، وذلك – بالضرورة – مؤد بهم إلى فقدان الثقة فى المؤسسات التربوية ، وما أظن ذلك بالأمر الذى سوف نسعد به .. !!

ثانيا : إن اختلال الموازين الاقتصادية فى المجتمع ، أى مجتمع ، مؤثر بالضرورة على بقية الجوانب الأخرى فى ذلك المجتمع ، ولا يستطيع إنسان ،مهما أوتى من قوة الحجة وبلاغة المنطق ، أن يدعى بأن الطبقات الاجتماعية التى يتكدس أفرادها فى حجرة واحدة ، والذين لا يجدون المتطلبات الضرورية لحياة الآدمى ، سوف تتلقى أنواعا وأنماطا من التربية والتعليم مثل تلك التى يتلقاها أبناء الطائفة الذين يسكن ذووهم فى ناطحات عمرانية على النيل يصل مسطح الشقة الواحدة فيها لأكثر من ثلاثة آلاف متر مربع ، وتتاح لأفرادها خدمات يعجز خيال أبناء الأغلبية الكادحة عن مجرد تصورها أو التفكير فيها ، وخير لهم ألا يفعلوا ، إذ

الواقع أن عقولهم وخيالاتهم لن تستوعب معنى أن الغذاء يستورد (ساخنا) من مطعم " مكسيم " من باريس ، كي يؤكل على أسطح اليخوت ، أو فى حدائق القصور ، كما أنهم لا يمكنهم تخيل أن بشرا مثلهم ، مصريون . لازالوا ، يمتلكون قصورا فى جزر فى شمال المتوسط ، وأن هذه القصور يقوم على خدمتها وصيانتها والعناية بها موظفون وموظفات أوروبيون يتقاضون مرتبات خرافية ، بالنسبة لهم ، على مدار العام ، فقط انتظارا لكى يحل " العظيم " صاحب القصر أياما معدودات خلال العام كله ، بينما تمتلئ أفلام فى عاصمة بلادهم تتحدث عن الصراع المرير للحصول على سكن بجوار مقبرة ..!!

ثالثا : ومع الاقتصاد وتأثيره على الأوضاع الاجتماعية هل يمكن أن نلغى تأثر الأوضاع الثقافية فى المجتمع الواحد بهذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية .. ؟ إن الثقافة فى المجتمع ، أى مجتمع ، تعتبر العنصر الأساسى الموحد لذلك المجتمع ، بل العنصر اللاحم بين جزئياته [١] ، ولكن ، وفى ضوء هذه الأوضاع الاقتصادية التى سبقت الإشارة إليها هل يمكن القول بأن ناقلات الثقافة وموصلاتها إلى أبناء " الطبقة الغاطسة " أو الغارقين المطحونين فى المجتمع هى هى ناقلاتها وموصلاتها إلى أبناء طبقة الموسرين المتخمين .. ؟؟

هل يتعرض هؤلاء لمؤثرات ثقافية مثل تلك التى يتعرض لها أولئك .. ؟؟

هل أبناء الطبقة الثرية الذين يتاح لهم – اقتصاديا – السفر دوما للخارج ورؤية المعالم السياحية على هواهم ، فى الأوقات التى يحددونها ، والتمتع

---

[١] يمكن لمن أراد التوسع فى هذا الجانب مراجعة كتابنا " الثقافة والغزو الثقافى فى دول الخليج العربية .. معالجة إسلامية ، دار العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

بما فى ذلك العالم من أشياء ، وبلا حساب ، تظل ثقافتهم مثل ثقافة الملايين من أبناء شعبهم الذين يعيشون مأسى القاع الذى وجدوا فيه دون اختيار من جانبهم .. ؟؟

هل رؤية النائحات فى المقابر ، ووجوههن المغبرة والمكفهرة ، وصراخهن على الموتى يوازى عند أبناء الفقراء المطحونين ما يوازيه سماع الموسيقى الحالمة ، وآخر السمفونيات ، ومشاهدة أحدث المسرحيات العالمية .. فى عواصمها حيث تمثل وتؤدى ، أو حتى مشاهدتها على شرائط خاصة للفيديو تحضر خصيصا لهم ، ولا تباع فى الأسواق .. ؟؟

رابعا : ومن الناحية السياسية هل يمكن أن نغفل أثر الأوضاع الاقتصادية فى المجتمع ، أى مجتمع ، على نظرة الناس للأمور التى تجرى من حولهم .. ؟ هل عشرات أو مئات الآلاف من أبناء الموسرين يهمهم ، أو يمكن أن يهمهم ما تعانيه طوائف عريضة من أبناء مجتمعهم الذين يسعون لإسماع أصواتهم للمسؤولين فى وطنهم ، سواء عن طريق ممثليهم فى المجالس النيابية أو غيرها حتى يحلُّوا لهم بعضا من مشكلاتهم اليومية التى تطحنهم وتطحن أبناءهم معهم ، وهل تتساوى نظرة هؤلاء لمجهودات المسؤولين فى حكومة بلدهم مع نظرة الآخرين الموسرين الذين ربما ينحصر كل همهم فى السماح لمستورداتهم المترفة بعبور مناطق الجمارك بأيسر الطرق ، سواء كان ما يستورد هو الآيس كريم أو سيارات الرولزرويس والمرسيدس الفاخرة ، أو لنشات السباق على أسطح المياه فى البحر المتوسط أو على شطآن البحر الأحمر وسيناء .. إلخ .

خامسا : كيف يشعر أبناء الطبقات الفقيرة من الناحية الدينية تجاه أبناء الطبقات الموسرة ، خاصة فى جوانب للإسراف البشع تتضح أمامهم فى مظهرهم اليومى ، فى اللباس ، والإنفاق ، وركوب السيارات .. وغيرها، خاصة وأن بعض الأحياء فى مدينة القاهرة تتقارب جدا – جغرافيا أو موقعا – من بعضها ، بينما الفواصل الاجتماعية والاقتصادية بين ساكنيها تتناقض تماما ، وذلك كما هو الحال بالنسبة لحى الزمالك الراقى ، وحى بولاق الذى تتدنى فيه المستويات الاقتصادية والاجتماعية بشكل خطير ، بينما لا يفصل بينهما سوى أحد فروع النيل ، وعبور الكوبرى القائم بينهما ينقل الإنسان فى دقائق معدودة إلى عالم مختلف تماما.. فى أى الاتجاهين ..!!

نخلص فى النهاية إلى أن التربية فى أى مجتمع تبقى عملية خاصة جدا ، بل من أخص خصوصيات ذلك المجتمع ، أى أنها تنبع ، أو يجب أن تنبع من ظروف ذلك المجتمع ، ومن أحواله التى تحيط به ، والتى تلف أفراده ، سواء كانت سياسية ، أو اقتصادية ، أو اجتماعية ، أو ثقافية .. إلخ ، فهى إذاً عملية مجتمعية بالدرجة الأولى ، وبالتالى لا يصلح فيها النقل أو الاستيراد من مجتمعات أخرى ، ومن هنا نقول بأن أولئك الذين حاولوا استيراد نظم – أى نظم – لمجتمعاتهم الإسلامية من مجتمعات أخرى .. شرقية أو غربية .. ضلوا الطريق على وجه اليقين ، وبالتالى لم يستطيعوا أن يضعوا أقدامهم على معالم ذلك الطريق .

إن النظم التى تسود فى مجتمع ينبغى أن تنبع من ذلك المجتمع ، من دينه، ومن قيمه ، ومن عاداته ، ومن تقاليده ، وكذا من أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. إلخ .

وإذا كان النظام الرأسمالي قد صلح لبعض المجتمعات في الغرب ، وإذا كان النظام الاقتصادي الشيوعي (الاشتراكي) قد ساد في بعض الدول ولا نقول قد صلح – حيث أثبتت التجربة فشله الذريع ، وانهياره المريع ، نقول إذا كانت هذه النظم قد صلحت لتلك المجتمعات فإنها – يقينا – لا تصلح لمجتمعاتنا الإسلامية ، حيث أن الإسلام ، ديننا العظيم الذي جاء من فوق سبع سماوات من لدن حكيم خبير ، قد عالج المسألة الاقتصادية معالجة رائعة من خلال أركان أساسية لاقتصاد الأمة المسلمة ، ركز فيها على العمل وقيمته في بناء اقتصاد المجتمع ، وعلى العدالة في توزيع الدخول من خلال قناة الزكاة التي لو طبقت فعليا فإنها لن تدع في أمة الإسلام فقيرا ولا محتاجا ، كما أن قضية الملكية الخاصة في الإسلام محسومة ومصونة ، لا تمس بالتأميم ولا بالمصادرة ، تحت أية دعاوى .

ثم إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا نظير له ، ويكفي أن يستعيد الإنسان صورة المجتمع المسلم في عصوره الزاهية ، ليرى نتائج ذلك كله والتي تبدت في حياة الناس ، التي كانت – وبكل المعايير – غاية في الاستقرار والانضباط ، كما أنها كانت غاية في البعد عن الأحقاد والنزاعات بين الطبقات ، أو بين الأفراد [1] . وهل هناك مجتمع ظهر على وجه الأرض ، وعبر عصور التاريخ كلها ، يبحث فيه حاكم عن المحتاجين في أمته ، كي يوزع عليهم من الأموال التي فاضت بها خزائن الدولة ، مما أفاء الله على

(*) هناك الكثير من الكتابات العلميةفي هذا المجال ، ومن بينها :

[1] أحمد محمد العسال ، فتحي أحمد عبد الكريم : النظام الاقتصادي في الإسلام .. مبادئه وأهدافه ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م .

المسلمين ، فلا يجد محتاجا (!!!) [١] فيأمر عماله بـــأن يبحثــوا عــن غــير المتزوجين من الشباب فيحصنونهم بالزواج .. كما فعل الخليفة العادل عمر بــن عبد العزيز .. ؟؟ [٢]

---

[١] يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م .

[٢] عبد الرحمن الشرقاوى : خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (بدون تاريخ) .

الفصل الثانى

المجتمع .. وماهيته

الفصل الثانى

المجتمع .. وماهيته

مدخــل :

من المسلم به - الآن - لدى علماء التربية أن المجتمعات تختلف عن بعضها على أساس اختلاف ثقافاتها ، وأيضا على أساس اختلاف أنواع تربياتها التى تتبعها فى تنشئة أجيالها الصاعدة ، تلك التى تعد أفرادها للحياة داخل مجتمعاتها على أساسها .

وعندما أراد الله - سبحانه وتعالى أن يميز الأمة الإسلامية عن غيرها من الأمم لم يميزها بأى مظهر من مظاهر الحياة المادية ، أو بزخرف هذه الحياة ، أو بأى شيئ يمتلكه أفرادها ، بينما يفتقده الآخرون ، وإنما ميزهم - سبحانه وتعالى - بسلوكهم الإيجابى القويم ، ذلك السلوك الذى يأمر بالمعروف، والذى ينهى عن المنكر ، قائلا فى حقهم : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ (آل عمران / ١١٠) ، وهذا نوع من التربية يبتعد بأصحابه عن أن يكونوا سلبيين ، ويقترب بهم كثيرا من المصلحة العامة للأمة كلها ، ومن الاهتمام بسير الحياة فيها على الطريق القويم [١].

والتربية على أية حال هى نتاج المجتمع الذى تعمل فيه ، ومن أجله ، إذ أنها تشتق من أهدافه ، ومن أنواع النشاط التى تمارس فيه ، وقبل ذلك من موّجهات السلوك فيه ، خاصة إذا كانت تربية ذلك المجتمع خاضعة لموجّهات

---

[١] هذا الفصل سبقت للمؤلف كتابته ضمن فصول كتابه " التربية ومشكلات المجتمع فى دول الخليج العربية"، ولكن أضيفت إليه آراء أخرى وتصويبات ، كما كتبت بعض الردود على آراء بعض الكتاب ، والكتاب فى طبعته الثانية صادر عن دار الإبداع الثقافى ، الرياض ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

سلوكية عليا ، كما هو الحال فى المجتمع المسلم ، كما أنها تعود فتمد هذا المجتمع بعناصره البشرية ، على صورة أفراد يحاولون تحقيق أهداف مجتمعهم قدر استطاعتهم ، ويعملون من خلال مؤسساته العديدة ، على إنجاز ما يتطلبه ذلك المجتمع ، وما يرفع من شأنه ، وما يجعل الحياة فيه تسير وتستمر ، وتتقدم وتزدهر .

إننا إذا استطعنا أن نحكم على المجتمع من خلال التربية التى يقدمها لأبنائه فإننا نستطيع - بالمثل - أن نعرف هذه التربية ، وأن نتعرف عليها وعلى آثارها والنتائج ، وذلك من خلال ما يتم إنجازه فى المجتمع ، وما ذلك إلا لأن تلك التربية تتبدى فى كل مظهر من مظاهر الحياة فيه ، وفى عمل كل مؤسسة من مؤسساته " فى الأسرة ، كما فى المؤسسات الحكومية ، فى ملاعب الأندية ، كما فى وسائل الإعلام ، فى الصحف والمجلات والراديو ، وعلى وجه الخصوص .. فى التليفزيون ، كما يقول " بيرباك " وزملاؤه [١] .

إن التربية فى ضوء هذا المفهوم تعكس صورة المجتمع الذى توجد فيه . بقوته .. أو بضعفه ، بتقدمه .. أو بتخلفه ، بطموحات أفراده .. أو بكسلهم ، بنظرتهم المتفائلة إلى الحياة ، وبقدرتهم على تحدى المشكلات التى تعترض تلك الحياة .. أو باستسلامهم وخضوعهم وعدم مقاومتهم ، باستثمارهم لكل أنواع المصادر التى وهبهم الله إياها أحسن استثمار ، مع المحافظة عليها ، والبحث - فى نفس الوقت عن مصادر أخرى للاستفادة منها ، أو بإهدارهم لتلك المصادر والإسراف فيها وبعثرتها كيفما اتفق ، بسرعة إيقاع الحياة فيه ، وشدة تيارات التغير التى تتفاعل فيه .. أو ببطء ذلك الإيقاع وركود تياراته وخمولها .

---

(١) **Harold J. Burback & Others : The Socio – Cultural Foundations of Education, Omni Press Inc,. Florida, 1975, P. 45 .**

وكون التربية تعكس المجتمع بهذا الشكل ، وتعكس صور الحياة فيه ، بكل ما تتميز به ، يجعل لكل مجتمع من المجتمعات تربية خاصة به ، تميزه عن غيره ، وتعمل على تفريد شخصيته عنهم ، لأن لكل مجتمع ثقافته التى تميزه عن غيره وتفرده عنهم ، فالتربية التى تتم داخل أحد المجتمعات الإسلامية التى تطبق الشريعة فى حياتها ، تختلف ،أو ينبغى أن تختلف ، عن التربية التى تتم داخل مجتمع ملحد لا يعترف أفراده بدين ، أو حتى داخل مجتمع له دين ، لكن المسؤولين فيه وأولى الأمر لا يضعون حدوده وتشريعاته موضع التنفيذ " وكون التربية تتصف بصفات المجتمع الذى توجد فيه ، وكونها عنصرا من عناصر ثقافته ، يجعلها فى مجتمع من المجتمعات مختلفة عنها فى مجتمع آخر"، وذلك كما قال أبو الفتوح رضوان وزملاؤه [1] .

هذا ونلاحظ أن هذا الموضوع ، أى اختلاف التربية من مجتمع إلى مجتمع آخر بسبب اختلاف ثقافتهما ، ينطبق أيضا عل حال المجتمع الواحد ، ولكن عبر فترات من التاريخ المختلفة ، فما لا شك فيه أن ثقافة مجتمع شبه الجزيرة العربية ، قبل الإسلام ، كانت مختلفة اختلافا جذريا عنها بعد ما آتاها نور الإسلام ، والسبب هو أن التربية قد اختلفت فى الحالتين اختلافا بينا ، ومن هنا اختلفت الثقافتان بشكل اساسى لأنهما نتيجة من نتائج التربية ، كما سبقت الإشارة لذلك من قبل .

وهكذا كان الحال فى مصر القديمة ، أو مصر الفراعنة ، قبل أن يسطع على أرضها وشعبها نور الإسلام ، بعد أن تم فتحها على أيدى جنود الرحمن من المسلمين الفاتحين الأوائل ، حيث تغيرت الثقافة فى المجتمع ، نتيجة لتغير

---

[1] أبو الفتوح رضوان وآخرون : المدرس فى المدرسة والمجتمع ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص ٦ .

تربيته لأفراده ، بل إن لغة المجتمع ذاتها ، والتى هى وعاء تفكيره ، ومحتـوى ثقافته ، قد تغيرت كليا ، فاندثرت " الهيروغليفية " القديمة ، وحلـت محلـها " العربية " لغة القرآن الكريم ، وظهرت بذلك ثقافة جديدة كل الجدة ، مختلفة كـلى الاختلاف عما سبقها ، وذلك نتيجة للتربية الإسلامية الجديدة التى حلّـت علـى أرض النيل .

ويمكننا أن نمضى فى ضرب الأمثلة بكثرة ، من بلاد اليونان والرومان ، إلى بلاد الصين والهنود واليابانيين ، إلى موطن الأمريكيين الحمر وغزاتهم من الأوروبيين الذين غيروا شكل الحياة جذريا على أرضهم ، وكل هـذه الأمثلـة تؤكد على ارتباط التربية بثقافات المجتمعات التى تعمل لها ومن أجلها ، كمـا تؤكد على تغير تلك التربية بتغير الظروف على أرض تلك المجتمعات ، ثـم إن هذه المجتمعات تتأثر ثقافاتها بمختلف العوامل عبر سنى التـاريخ وقرونـه . ولدينا مثل واضح بالنسبة لدول أوروبا ، تلك التى تأثرت تربيتها لأبنائها بسـبب الكشوف الجغرافية ، وما جلبته تلك الكشوف على مجتمعات أوروبا من ثروات، وما احتاجت إليها أوضاعها الجديدة من خبرات ومهارات جديدة ، وكذلك بعـد أن دخلت عصر البخار وعصر التصنيع ، وكانت النتيجة الحتمية هـى اتجـاه التربية بالاستجابة لمتطلبات ذلك العصر عن طريق إعداد الأفـراد المؤهليـن للتعامل مع تلك المتطلبات ، أى متطلبات هذا العصر أو ذاك " [٤] .

ماهية المجتمع :

منذ بدء الخليقة والإنسان يعيش فى تجمعات تحمى أفراده ، وتدافع عـن ذواتهم ومصالحهم ، سواء كان هذا الدفاع ضد عناصر الطبيعة القاسية ، مـن فيضانات وعواصف/وزلازل وبراكين وغيرها ، أو ضد الحيوانات الكاسـرة ،

---

[٤] Robert M. Hutchins : The Learning Society, Fredrick A. Prager (Publishers) N. Y., Washington, London, 1988, P. 12 .

أو الزواحف السامة ، أو ضد تجمعات أخرى من البشر أرادت أن تعتدى على ممتلكات تلك الجماعة ، أو أرادت أن تفرض عليها سيطرتها وسلطانها ، وأن تتحكم فيها أو فى أفرادها .

ومعنى هذا أن كل مجتمع من المجتمعات البشرية ، تلك التى تنتشر باتساع الكرة الأرضية ، يجمع أفرادا معينين ، ذوى مصالح مشتركة ، وأهداف موحدة ، وهؤلاء الأفراد تجمعهم ثقافة مشتركة ، توحد بينهم ، وتؤلف بين أفكارهم ووجداناتهم من ناحية ، كما أن المشكلات المشتركة التى تجابه هؤلاء الأفراد وتهددهم تعمل على توحيد مشاعرهم ، وعلى تماسك جماعاتهم .

ومن المتفق عليه أن ترابط المجتمع يقوى ويشتد إذا لم تكن بين جماعاته وأفراده صراعات أو اختلافات تفرق بينهم ، وتباعد بين طوائفهم ، وتمزق وحدتهم ، خاصة فيما يتعلق بأمور العقيدة ، ولسنا فى حاجة لأن نذهب بعيدا لضرب الأمثلة على ذلك مما يجرى فى دول أمريكا اللاتينية ، أو فى أقصى الشرق من آسيا حيث فيتنام ، أو إلى جنوب الهند ووسطها ، حيث جماعات التاميل والسيخ .. وغيرهم .

وإنما يكفينا أن نمد البصر إلى بلد كان الجميع يعتبرونه ركنا هادئا ، فى العالم العربى ، ونقصد به " لبنان " الذى مزقته الصراعات الطائفية ، على مدار سنوات طوال زادت على الخمس عشرة سنة ، اشتعلت خلالها النيران فى كل ركن من أركانه ، وسقط على كل شبر فيه قتيل ، بحيث عز الجمع ، وعز الحساب ، أى حساب أعداد القتلى والجرحى والمفقودين ، وبدا للجميع أن تلك النيران لا يريد لها أصحابها أن تهدأ أو تنطفئ ، أو أن القوى الخارجية التى تغذيها لا تريد لهذا البلد المسكين أن يهدأ ويستقر ، ومن هنا تمزقت وحدته ،

وضاع اقتصاده ، وفقد حياته ، بعد أن تعددت فيه الولاءات ففقد حياته كمجتمع موحد يضم شعبا واحدا (*) ..!!

تعريفات المجتمع

مدخل :

هناك تعريفات عدة لمصطلح " المجتمع " اجتهد علماء الاجتماع والتربية في التوصل إليها ، ونرى أنه قد يكون من المناسب ذكرها هنا ، ولكن قبل الدخول في تفاصيل تلك التعريفات ينبغي علينا الاعتراف والتسليم ، من البداية، بأننا لن نجد تعريفا جامعا .. مانعا ، يجعلنا نتوقف عنده ونقول هذا هو التعريف الذى لا تعريف قبله ولا بعده ، وللعلم .. فإن هذا هو شأن العلوم الإنسانية Human Sciences دوما ، والتى تختلف فى ذلك اختلافا جذريا عن العلوم الطبيعية Natural Seiences ، تلك التى توصل علماؤها وباحثوها ، من خلال التجارب العلمية المنضبطة إلى تعريفات علمية لها ، تعريفات واضحة ومحددة، بل قاطعة مانعة ، وذلك لكل فرع من فروعها .

وبعد هذا المدخل لقضية التعريفات الخاصة بالمجتمع ، سوف نحاول أن نورد عددا منها ، إن شاء الله ، وسوف نشفع ذلك بالتعقيب عليها ، أو على معظمها على الأقل ، حتى نبين وجهة نظرنا فيها ، وسوف ننهى ذلك – بإذن الله – موضحين أى التعريفات هى التى سنتعامل على أساسها خلال صفحات

(*) بدأت الصورة تتغير على أرض لبنان منذ أن قصم ظهر النظام العراقى فى حرب الكويت ، ووضح للجميع أنه كان يؤيد " عون " الذى هرب من لبنان إلى فرنسا ، فبدأت الأمور تهدأ فى ربوع لبنان ، وعاد الأمل لأفراد شعبه هناك فى ممارسة حياتهم الاعتيادية من جديد ، مثلهم مثل كثير من شعوب العالم الأخرى .

هذا الكتاب .. كما أننا سوف نورد تعريفا خاصا بنا لمفهوم المجتمع موضحين الفرق بينه وبين غيره من التعريفات،إن شاء الله .

أولا : تعريف جون ديوى :

في تعريف مختصر للفيلسوف الأمريكي " جون ديوى John Dewey " يقول عن المجتمع إنه " حقيقة عبارة عن كلمة واحدة ، ولكنها تشتمل على الكثير من المعاني والأمور ، فهي تعني الأفراد عندما يرتبطون ببعضهم البعض، وحينما يعملون معاً بشتى الطرق بغية إنجاز الكثير من الأهداف " [1].

ومن ناحية أخرى نجد تفصيلا لعبارة " جون ديوى " هذه في ترجمة لكتابه يقول فيها المترجمان " المجتمع كله كلمة واحدة ، ولكنه أشياء كثيرة ، فلاجتماع الناس طرق وأغراض شتى ، والفرد منهم ينتظم في مختلف الجماعات ، ويكون خلطاؤه فيها متباينين كل التباين ، حتى ليتراءى أنه لا يجمع بينها إلا كونها أنماطا من الحياة المجتمعة ، ففي كل نظام اجتماعي واسع جماعات صغيرة متعددة ، لا سياسية فحسب ، ولكن صناعية وعلمية ودينية ، فهناك الأحزاب السياسية بأهدافها المتباينة ، والفرق الاجتماعية ، والزمر ، والعصابات ، والشركات التعاونية المساهمة ، والجماعات التي توثق عراها وشائج القربى ، إلى غير ذلك مما لا نهاية لاختلافه وتنوعه .

وهناك كثير من الدول الحديثة ، وبعض الدول القديمة التي تموج بشتى أجناس البشر على اختلاف لغاتهم وأديانهم ودساتيرهم الخلقية وتقاليدهم ، وبهذا الاعتبار نرى كثيرا من الوحدات السياسية الصغيرة ، كإحدى مدننا الكبرى مثلا

---

(1) John Sewey : Democracy of Education, An Introduction to the Philosophy of Education, The Macmillan Company, N. Y.,. 1964, P. 95 .

(فى الولايات المتحدة الأمريكية) أدنى إلى أن تكون شيئاً من جماعات مفككة الصلات من أن تكون جماعة شاملة متلاحمة فى الفكر والعمل " [١] .

تعقيب :

ونعتقد هنا أن تعريف " ديوى " للمجتمع متأثر – بطبيعة الحال – بوضع مجتمعه هو .. أى مجتمع الولايات المتحدة الأمريكية ، والذى هو مجتمع خليط من ثقافات وأعراق كثيرة ومتنوعة ، جاء أصحابها فى مجملهم من دول أوروبا، والقسم الغربى منها على وجه الخصوص ، كما اضيفت إليهم أعداد كبيرة من أماكن أخرى من العالم ، مثل المكسيك ، ودول أمريكا الوسطى ، بالإضافة إلى الذين جاءوا من الهند وباكستان واليابان وبعض دول إفريقيا والشرق الأوسط فى السنين الأخيرة .

وهذا الوضع السكانى العجيب تكاد تنفرد به الولايات المتحدة الأمريكية ، بل هى تنفرد به بين دول العالم مجتمعة ، نظرا لضخامة مساحتها ، ولاتساع فرص العمل فيها ، مما جعل ملايين من البشر من كل بقعة فى العالم تفد إليها، وتعيش فوق أراضيها مكونة مجتمعا من أصول عرقية شتى ، حقيقة عملت " بوتقة الصهر The Melting Pot الأمريكية على إذابة الفروق بين هذه الطوائف ، ووحدت بينها ، خاصة فى الأجيال التالية ، ولكن مما لا شك فيه أيضا أن هناك بعض الجماعات التى احتفظت بكثير من خصائص مجتمعاتها الأصلية ، ولا يزال أفرادها يحتفظون بكثير من عاداتهم وتقاليدهم وخصائص تلك المجتمعات، بل ويتحدثون لغاتهم الأصلية فيما بينهم ، ولعل هذا يفسر تصور " ديوى " لمفهومه عن " المجتمع " .

---

[١] جون ديوى : الديموقراطية والتربية ، ترجمة متى عقراوى ، زكريا ميخائيل ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، نقلا عن دراسات فى أصول التربية لمحمود قمبر وزملائه ، ص ٥٦ .

أما ما تختلف فيه مع " ديوى " هنا فهو قضية أن المجتمع يتكـــون مـــن جماعات مختلفة تتباين فيما بينها ، ولا يجمع بينها إلا كونها " أنماطا من الحيـلة المجتمعة " ، وأنها تتشكل من جماعات أو أحزاب سياسية ، وفرق اجتماعيـــة ، وزمر ، وعصابات ، وشركات .. إلخ . إذ أن هذا هو الوضع العادى والطبيعى فى أى مجتمع أن ينتظم الناس فى مثل هذه الأمور التخصصية ، وفى الأمـــور الاجتماعية الأخرى مثل الانتماء للأحزاب أو الجماعـــات المختلفـــة ، ولكـــن الحديث عن " المجتمع " يهم الباحث والعالم من حيث ثقافة المجتمع التى تربـــط بين أفراده وطوائفه ، ولغة المجتمع التى هى محتوى ثقافته ووعاؤها ، وقبـــل الاثنين معا .. الثقافة واللغة .. هناك دين المجتمع وعقيدته ، دينه الذى يوجـــه الحياة فيه ، والذى منه يستمد المجتمع قيمه وأخلاقـــه ومثله .. كل هـــذا غـــاب عن تعريف " ديوى " للمجتمع ، لأنه غاب – أصلا – عن المجتمع الأمريكـــى ذاته ، وكان لابد من الإشارة والتنويه .

ثانيا : تعريف تشيلدز Childs :

وقد ركز هذا العالم على دور العلاقات الاجتماعيـــة Social Relations فى تعريفه ، وخلص إلى النفى التام لفكرة أن يكون هناك أى مجتمـــع يعيـــش أفراده بدون هذه العلاقات ، أو على غير أساس منها ، يقول : " إن المجتمع هو الأفراد فى حالة تبادلهم العلاقات الاجتماعية ، أما الفرد – بعيـــدا عـــن هـــذه العلاقات الاجتماعية – فهو خرافة Myth يستحيل وجودها ... " [١]

تعقيب :

والواقع أن هذا التعريف لم يأت بجديد ، فليس هنـــاك شـــخص يعيـــش بمفرده فى معزل عن الآخرين ، وإن وجد الإنسان على ظهر هذه الأرض ، أى

---

[١] John Childs : American Pragmatism, An Introduction & Griticism, Henry Holt & Company, N. Y., 1956, P. 162.

أى منذ بدء الخليقة ، وكما علمنا القرآن الكريم الذى هو المصدر الأول والأساسى لنا نحن المسلمين ، فى المعرفة وفى التربية ، وفى غيرهما ، كان هذا البدء بأكثر من فرد ، حيث يقول الله عز وجل فى محكم آياته : ﴿ قلنا أهبطوا منها جميعا ﴾ والخطاب هنا كان موجها لآدم – عليه السلام – ، ولحواء ، وكذا لإبليس الذى ظل وراءهما يغريهما بالأكل من الشجرة المحرمة التى أمرهما الله – جلت قدرته – بعدم الاقتراب منها .

وتبادل العلاقات الاجتماعية التى نادى بها " تشيلدز " لم يحددها أو لم يحدد نوعها ، فلقد تكون هذه العلاقات السائدة بين أفراد وطوائف المجتمع علاقات إيجابية طيبة ، كما قد تكون علاقات سلبية سيئة ، وكثير من المجتمعات التى نعرفها مرت بالحالتين ، فى فترات مختلفة من حياتها وحياة أفرادها ، ويكفى أن نضرب المثل من مجتمع شبه الجزيرة العربية ، قبل الإسلام ، والعلاقات السيئة التى كانت سائدة فيه ، تلك العلاقات التى وصلت فى بعض مراحلها السيئة إلى الاقتتال والتناحر بحد السيوف ولعشرات السنين لأتفه الأشياء ، ويكفى أن نذكر بحرب البسوس أو حرب داحس والغبراء التى استمرت بين بعض القبائل العربية لمدة اقتربت من أربعين عاما لسبب تافه أو حتى أقل من تافه ..!!

هذا المجتمع ذاته ، مجتمع شبه الجزيرة العربية ، هو المجتمع الذى تغير بالإسلام ليصبح أفضل مجتمع على وجه الأرض بنص القرآن الكريم ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ﴾ وبالتأكيد كانت العلاقات بين أفراد هذا المجتمع فى قمة تفاعلها الإيجابى الرائع ، ذلك التفاعل الذى كان أساسه الإيمان والحب والتعاطف والتراحم والود ، وليس هناك أعظم من ذلك فى موضوع العلاقات الاجتماعية .

ثالثا : تعريف أوتاواى Ottaway :

وحينما نصل إلى " أوتاواى Ottaway " ، وهو واحد من علماء التربية ذوى الخلفية الاجتماعية الطيبة ، نجده قد تحدث عن " المجتمع " Society ، وعن الجماعة Canmunity ، وأنه أراد أن يفرق بين المصطلحين على الوجه التالى ، يقول : " وتستعمل هاتان الكلمتان أو اللفظان فى أغلب الأحيان بمعنى واحد تقريبا ، غير أن الاختلاف فى استعمالهما يقوم على نوع ودرجة التنظيم فى المجموعة ، وعلى مدى وعى الناس بأسلوبهم الاجتماعى فى الحياة ، ومع هذا فكلاهما يستلزم وجود بعض العوامل المشتركة ، كالحياة فى إقليم جغرافى معين ، وكذا الإحساس بالانتماء إلى نفس المجموعة .

ويعبر مصطلح " الجماعة " هنا – والحديث لازال لأوتاواى " • عن معنى أكثر إجمالا ، فى حين أن مصطلح " المجتمع " يعبر عن نوع خاص للجماعة ، ويحدث الاضطراب حينما نستخدم كلمة " مجتمع " بمعنى عام يقصد به المجال الكلى للعلاقات الاجتماعية ، وحين نستخدمها بمعنى الإشارة إلى مجموعة محددة من السكان تعيش فى مكان ما ، وهنا نلاحظ أن مصطلح " الجماعة " يشير أيضا إلى مجموعة محددة من السكان تعيش فى مكان ما " [1].

تعقيب :

ونحن لا نتفق مع هذا المفهوم الذى ذهب إليه " أوتاواى : ، إذ أن المجتمع – فى تصورنا – أعم واشمل من الجماعة ، وللتدليل على ذلك نقول بأننا نتحدث عن المجتمع المسلم ، وعن المجتمع العربى ، والمجتمع الخليجى ، والمجتمع المصرى ، والمجتمع السعودى ، والمجتمع الأمريكى . إلخ ، بينما نفرق فى

---

[1] أ ز. ك . أوتاواى : التربية والمجتمع ، ترجمة وهيب سمعان وآخرين ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م ، ص ٣ .

حديثنا بين كل هذه المجتمعات ، وبين الجماعات التى توجد فيـــها .. كلـــها أو بعضها ، فنقول " الجماعات الإسلامية " ، " وجماعات الكشافة " ، " وجماعـــات الخطابة والشعر والتمثيل .. إلخ ، وهذه كلها جماعات صغيرة تندرج تحت لواء " المجتمع الكبير " ، أو المجتمع الأم ، وهذا الفهم هـــو الـــذى اتبعـــه العـــالم الاجتماعى الأمريكى " روبرت هافيجهعيرست Havighurst " والذى يعد مـــن أبرز العلماء الذين كتبوا فى مجال اجتماعيات التربية ويعتبر كثيرون أن كتابـــه "المجتمع والتربية Society & Education " من أبرز الكتب المرجعية فـــى هذا المجال، بل هو الكتاب " العمدة " .. كما يقال [١] .

كذلك فإننا لا نتفق مع " أوتاواى " فى التخفيف من وزن العوامـــل التـــى يقول إنها لازمة مثل " الحياة فى إقليم جغرافى معين ، والإحساس بالانتماء إلى نفس المجموعة " . إن الأمر عندنا أعمق من هذا وأكبر ، إنها ليســـت مجـــرد الحياة .. أى حياة فى إقليم جغرافى معين ، إنها ينبغى أن تكون حياة منســـجمة متناغمة بين أفراد المجتمع ، وكذا بين جماعاته ، لأنها إذا لم تكن كذلك ، فمـــا أسرع ما ينتهى أمره ، ويتفتت إلى وحداتٍ أصغر يقضى بعضها على بعـــض ، وليست هذه من سمات " المجتمع " كما نفهمه ، ويكفى أن نذكر بما حدث قريبـــا جدا ، فى إحدى الدول الإفريقية وهى " رواندا " التى قتل فيـــها نحـــو مليـــون ونصف المليون من البشر بأيدى مجموعة يفترض أنهم من أبناء جلدتهم ، وأنهم جميعا.. معا .. يكونون مجتمعا واحدا .. !!

ونفس رأينا الذى عارضنا به رأى " أوتاواى " ، حيث قلنا بأن المجتمـــع أعم وأشمل من الجماعة نجده واضحا فى كتابات " ستالكوب Stalcup " عنـــد معالجة الاختلافات القائمة بين " الجماعات المختلفة أو المتنوعـــة Different

---

[١] **Robert J. Hovighurst & Bernice L. Neugarten : Society, & Fducation, Allen & Bacon Inc., Basten, Third Edition, 1967, PP 3 – 14 .**

Communities " داخل المجتمع الأمريكـــى The American Society ، وكيف أنه يجب على التربية والمربين أن ينظروا إلى هذه الاختلافـــات بعيــن الاعتبار ، حيث أن المطالب التربوية بالنسبة لكل جماعـــة أو مجتمـــع محلـــى Community تختلف من مجتمع لآخر ، وقد ضرب " ستالكوب " لنـــا مثـــلا على ذلك بمجتمع الزنوج فى مدينة لوس أنجلوس " [١] .

كذا نحا هذا النحو ، أو اتخذ هذا الاتجاه " روجر هيمســترا Hiemestra " عندما أرجع كلمة " المجتمع المحلى Community " إلـــى أصلـــها اللاتينـــى "Communis" ، والتى قصد بها الصحبة أو الزمالة ، أو العلاقات المشــتركة ، والمشاعر الموحدة . أما فى العصور الوسطى فلقد كان معناها – عنده – أكـــثر تحديدا ، وذلك حين قصد بها " مجموعة من الناس فى مدينة معينة " .

ويمضى الكاتب السابق " هيمسترا " ليقول بأن هذا التعريـــف الأخـــير لا يزال ساريا فى الأدبيات حتى اليوم ، حيث يستطيع الإنسان أن يحدد مجتمعــــه المحلى على أنه مدينته التى ينتسب إليها ، أو محل إقامته الذى يقيـــم فيـــه ، أو حتى جيرانه المحيطَيْن به [٢] .

رابعا : تعريف وافى :

وننتقل لمنطقتنا العربية ، قلب العالم الإسلامى ، لنقرأ لكاتب عربى مسلم، هو الدكتور على عبد الواحد وافى فنجده يدلى بدلوه فـــى موضـــوع تعريـــف "المجتمع " قائلا : " إن مصطلح (المجتمع) يطلق على كل مجموعـــة أفـــراد

---

(١) Robert J. Stalcup : Sociology of Education, Charles E. Merril Publishing Company, Ohio, 1968, P. 50 .

(٢) Roger Hiemestra : The Educative Community, Linking the Community, School & Family, Professional Educators Publications, Inc., Lincoln, Nebraska, 1972, P. 7 .

تربطهم رابطة معروفة لديهم ، ولها أثر دائم ، أو مؤقت فى حياتهم ، وفى علاقاتهم بعضهم مع بعض ، فهو – أى المصطلح – يطلق على جماعة المسلمين ، وجماعة المسيحيين ، وجماعة اليهود ، وجماعة العرب ، وأفراد المدينة .. والقرية .. والحى .. والأسرة ، كما يطلق على من تتألف منهم جامعة أو كلية أو مدرسة أو فصل دراسى ، أو جمعية ، أو مؤسسة، أو نقابة ، أو حزب ، أو مجلس تشريعى أو تنفيذى ، وعلى القائمين بشؤون مشروع صناعى أو تجارى .

كما يطلق المصطلح ، والحديث لا يزال لنفس الكاتب ، على الناس يتجمعون عرضا فى الطريق العام لمشاهدة حادث ، أو فى ملعب لحضور مباراة رياضية ، أو فى مسرح لرؤية تمثيلية ، أو فى قاعة للاستماع لمحاضرة عامة ، أو فى مسجد أو كنيسة لأداء عباداتهم ، أو فى قطار أو سيارة أو باخرة أو طائرة للوصول إلى مقاصدهم [١] .

وبناء على ما تقدم نجد الكاتب يقسّم المجتمعات من حيث الاستقرار ، وعدم الاستقرار ، كما يقسمها من حيث القصد والتلقائية إلى ثلاثة أنواع هى :

١ – مجتمعات مقصودة ومستقرة مثل مجتمعات الجامعة ، والمدرسة ، والفصل والجمعية ، والمؤسسة ، والنقابة ، والحزب ، وهذه مجتمعات مستقرة وثابتة، أسّست أو أنشئت عن قصد وبسابق تخطيط وتدبير ، وبالتالى فإن لها أهدافاً محددة وواضحة ، وهى تسعى دائبة لتحقيقها .

٢ – مجتمعات غير مستقرة ، أو غير مقصودة ، كالناس يتجمعون عرضا فى الطريق لمشاهدة حادث ، أو فى ملعب للاستمتاع بمشاهدة مباراة رياضية

---

[١] على عبد الواحد وافى : علم الاجتماع ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، (بدون تاريخ) ، ص ١٦ .

معينة ، فهى – بناء على ذلك – مجتمعات غير مستقرة ، وغير ثابتة ، لا تكاد تلتئم حتى تنفض بمجرد انتهاء الغرض من تجمعها ، إذ لا هدف مسبق لأصحابها ولا قصد .. !!

٣ – مجتمعات مستقرة تلقائية ، كمجتمع الأمة والمدينة والقرية ، وقد تكونت فى صورة تلقائية ، لا فى صورة مقصودة ، كما تتكون الجمعية أو الحزب السياسى مثلا ، وتنشأ الأمة فى صورة تلقائية مندرجة تحت تأثير عوامل مادية ومعنوية كثيرة [١] .

تعقيب :

والواقع أن هذا الأسلوب الذى اتبعه د. وافى إنما يربك القارئ حين يجد أن مصطلح " مجتمع " قد استخدم ليصف كل تجمع فى حياة البشر ، من المجتمع الكبير الذى ربما يمثل دولة بأكملها ، أو حتى أمة من الأمم ، مثل الأمة الإسلامية أو الأمة العربية ، إلى أصغر تجمع يمكن أن نتخيله لمجموعة من البشر ، حتى الذين يتجمعون فى الطريق العام لمجرد أنهم مروا بحادثة فوقفوا يستطلعون كنهها أو حتى (يتفرجون) عليها .. أسماها " مجتمعا " ، وفى هذا تبسيط الأمور إلى حد قد يخل بالموضوعية العلمية المطلوبة وبالتحديد الدقيق المطلوب .

حقيقة كل هذه الأمور التى وصفها هى تجمعات للبشر ، مجرد تجمعات خلت فى معظمها من مقومات لفظ " المجتمع " ، فلا ماضى يربطها ، وبالتالى لا خبرات مشتركة بين أصحابها .. مفرحة أو مؤلمة ، ولا حاضر يشغلها بحيث يفكر أصحابها فيه ، بمعنى أنه ليست هناك قضايا تشدهم بعضهم إلى بعض ،

---

[١] المرجع السابق .

ولا مشكلات يعانون منها جميعا ، ويفكرون سويا ، بل ويجهدون أنفسهم في التفكير بغية الوصول لحلول عاجلة أو آجلة لها ، كما أنه لا مستقبل يهمهم بحيث يخططون له ، وبحيث يضعون أهدافا معينة يبتغون الوصول إليها ، وعليه فلا آمال ولا طموحات ولا توقعات ، ولمن أراد أن يقيس هذا الكلام فله أن يفعل ذلك، ومن ثم يعرضه على " المجتمعات " التى أوردها لنا الكاتب السابق ، وليرى هل ينطبق على " مجتمعات " الحادثة في الطريق العام ، المتفرجين على إحدى المباريات الرياضية الساهرين فى مسرح أو في دار للسينما يشاهدون فيلما أو يتفرجون على مسرحية .. ثم لنسأل أنفسنا بأمانة وموضوعية : هل هذه " التجمعات " فعلا يمكن أن نسميها " مجتمعات " .. ؟؟ إن علماء الاجتماع – فى حقيقة الأمور مطالبون بأن يجدوا ما يصلح لها من المسميات ، وهم كفيلون بذلك دون أدنى شك ، إن شاء الله .

خامسا : تعريف أبو الفتوح رضوان :

يقول د. أبو الفتوح رضوان وزملاؤه ، فى تعريف غاية فى الاختصار بالنسبة لمصطلح " المجتمع " ، يقولون " إنه مجموعة من الأفراد الذين تربطهم وحدة المكان والثقافة ، وما تتضمنه هذه الوحدة من علاقات متبادلة ومصالح مشتركة " [1] .

تعقيب :

والواقع أن هذا التعريف الشديد الاختزال يضعنا فى إشكالية أمام التعريف الشديد الاتساع ، بل الفضفاض ، الذى وضعه د. على عبد الواحد وافى ، والذى سبق وأشرنا إليه ، وقد اقتصر تعريف د. أبو الفتوح رضوان على أن المجتمع يتكون من مجموعة من الأفراد ، وغاب منه ، أى/من التعريف ، أن المجتمع

---

[1] أبو الفتوح رضوان وآخرون : مرجع سابق ، ص ٤ .

يتكون من " جماعات " بجانب الأفراد ، خاصة وأن كثيرا من هذه الجماعات Groups تشكل أفرادها وتطبعهم بالكثير من الصفات التى تجعلهم يتفاوتون فيما بينهم وبين الجماعات الأخرى داخل المجتمع الواحد .

ويضاف إلى ما سبق أن هذا التعريف للمجتمع قد أهمل بعدا هاما .. بل خطيرا فى تكوين المجتمع ، ونعنى به " البعد التاريخى " الذى على أساسه نشأ هذا المجتمع أو ذاك ، والأحداث التى مر بها أفراد ذلك المجتمع ، فى صراعهم ضد الطبيعة إن كانت غير مواتية ، وفى تعليمهم لأبنائهم كيف يتعاملون معها ، وكيف يتقون شرها ومخاطرها ، وكيف يستفيدون من جوانبها الخيرة ويستثمرونها ، وكذا فى علاقاتهم مع غيرهم من البشر المحيطين بهم ، وكيف يتعاملون معهم فى حالات السلم حين يسود ، وفى حالات الحرب والاقتتال حين تستدعى الأمور ذلك . إن هذا التاريخ المشترك هو الذى يوحد بين أبناء المجتمع الواحد ، وهو الذى يربط بينهم ، بل ويوثق ما بينهم من روابط بحيث يجعل منهم كتلة واحدة متماسكة متحدة ، مشاعرها متقاربة ، وأحاسيسها واحدة ، ونظرتها للأمور واحدة أو متقاربة على أقل تقدير ، كما أن رؤيتها للمستقبل تكون محكومة بكل ما سبق .

ونختم رؤيتنا لهذا التعريف – ولغيره – بأن اتجاه بعض الكتاب والباحثين حين يهملون " عنصر الدين " فى تعريفهم للمجتمع إنما يرتكبون خطأ جسيما ، مهما كانت أسبابهم ودوافعهم التى يتذرعون بها ، والتى من بينها – مثلا – أن بعض مجتمعاتنا العربية الإسلامية تعيش فيها " أقليات " غير مسلمة ، وليس هذا سببا على الإطلاق كى نهمل " عنصر الدين " فى حياة المجتمع حين تعريفنا له.

إن الدين ، سواء أرادوا ذلك أم حاولوا تجنبه ، وسواء رضوا به أو اعترضوا عليه ، موجود فى حياة مجتمعاتنا الإسلامية ، وغير الإسلامية ، على

السواء ، وإذا كانت بعض المجتمعات غير الإسلامية قد حاول علماؤها أن يبعدوا الدين عن الحياة فذلك شأنهم هم ، ولا ينبغى علينا نحن المسلمين أن نحذو حذوهم فى ذلك . إن " الدين " عنصر أساسى فى حياة المجتمع المسلم ، بل هو " العنصر الأساسى " ، ومن هذا الدين يستمد المجتمع المسلم فيمه .. ومثله .. وأهدافه .. ومبادئه .. بل وموجهات مستقبله ، والآخرون يعرفون ذلك ويعاملوننا على اساسه ، سواء أردناه أم حاولنا تجنبه .

سادسا : تعريف الشعبينى :

يقول د. محمد مصطفى الشعبينى : إن كلمة " مجتمع Society " تستخدم فى معان عديدة ، ويشير الاستخدام الاجتماعى لها أنها تعنى جماعة من الناس تعيش معا ، ويشترك أفرادها فى القيام بأعمال مختلفة يتفقون على تقسيمها ، كما يتفقون على أهداف واحدة ، والمجتمع نسيج معقد من العلاقات الاجتماعية ، وهو يتضمن مختلف أوجه الضبط الاجتماعى ، وهو يطلق نشاط أفراده ، وفى الوقت نفسه يحد منها، كما أنه يضع المعايير والضوابط للسلوك ، وأهم ما يطبع المجتمع أنه قابل للتغير (١) .

تعقيب :

وفى هذا التعريف – أيضا – يغيب البعد الدينى ، والبعد التاريخى ، وإن كان صاحبه قد ركز على المستقبل –وهذا شئ طيب – حين تحدث عن اتفاق أفراد المجتمع على " أهداف واحدة " ، كما أنه ركز على الحاضر ، حين أشار لعمليات الضبط الاجتماعى Social Centrol والذى عن طريقه يسيطر المجتمع على حركة الأفراد فيه ، وكذا على حركة الجماعات Groups ، حتى

---

(١) محمد مصطفى الشعبينى : علم الاجتماع التربوى .. فى اجتماعيات التربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة، ١٩٧٨م ، ص ١٥ .

لا تنفلت الأمور ، وحتى لا يعتدى فرد على حقوق الآخرين ، ولا تعتدى جماعة على حقوق ومقدرات الجماعات الأخرى ، فتضيع المصالح ، وتنشأ العداوات والصراعات Conflicts التى تبعثر جهود المجتمع ، وتضعف من هيكل البناء الاجتماعى ذاته .

ونعتقد أن البعدين : الدينى والتاريخى من أهم ما يمكن فى حياة المجتمع ، أى مجتمع إذ أن الدين عنصر موحّد للجماعة ، فى أهدافها وغاياتها ، فى قيمها وأحكامها ، فى علاقاتها مع بعضها ، وفى تعاملاتها مع غيرها .. فى كل شيئ ، حتى فى توحيد مشاعر أعضائها وأحاسيسهم ، ولننظر فى هذا المجال إلى أحاسيس المسلمين جميعا كما وصفهم الرحمن – جلا وعلا – فى فرحهم بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس عبدة النار : ﴿ الم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ (الروم / ١ – ٥) .

أما التاريخ فى حياة الجماعة فهو مكون أساسى فيها ، لا يمكن نكرانه أو تجاهله . وللعلم فإن التاريخ ليس مجرد أحداث تسرد ، ولا مجرد وقائع تحكى للأجيال الصاعدة من أبناء المجتمع ، كى يفتخروا بآبائهم وأجدادهم ، إنه حياة المجتمع فى ماضيه ، فى تعاملاته ، فى معاناة أفراده ، فى خبراتهم ومواقفهم التى مروا بها ، سواء كانت سارة أو مرة ، مع بعضهم البعض ، وكذا مع غيرهم من الجماعات ، ومن هذه المواقف والخبرات والتعاملات توصلوا إلى قيم يلتزمون بها ، ومعايير يحكمون على أساسها ، وعادات وتقاليد يمارسونها فى حياتهم اليومية ، ويضيفون إليها كل يوم بعدا ، وربما أبعاداً جديدة .

سابعا : تعريفات أخرى :

وبجانب التعريفات السابقة ، الأجنبية والعربية ، والتى فصلنا فيها بعض الشيئ ، هناك عدد من التعريفات الأخرى التى سوف نمر عليها مرا سريعا ، لأنها لا تختلف كثيرا عما سبق ، ومن بينها تعريف أورده باحثان عربيان يقولان فيه بأن " المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس تعيش فوق تراب أرض واحدة ، تربطهم آمال واحدة ، وتسودهم أنماط من العلاقات الاجتماعية مقيدة بنظم اجتماعية ، من أجل مستقبل يتطلعون إليه ، وآمال وأهداف تحقق لهم ولأبنائهم العزة والكرامة والخير " [١] .

كذلك يفرق " سرحان " فى كتاباته بين " المجتمع الكبير Society ، والمجتمع المحلى Community " على أساس أن الأول أعم واشمل ، وذلك "على الرغم من استعمال اللفظين – فى أغلب الأحيان – بمعنى واحد تقريبا " ، كما يقول الكاتب [٢] ، ونفس هذا الاتجاه السابق نجده واضحا فى كتابات نبيل صادق ، أى استعمال التعريفين الخاصين " بالمجتمع الكبير Society "، و " المجتمع المحلى Community " ، كما ورد فى كتابه عن طريق تنظيم المجتمع [٣] .

وللعلم فإن هذا التعريف الثنائى ، أى الذى يتحدث عن المجتمع الكبير Society ، والمجتمع المحلى Community ورد ، وبشكل لا يحتمل البس أو التأويل فى كتابات الفيلسوف التربوى الأمريكى " جون

---

(١) أحمد كمال أحمد ، عدلى سليمان : المدرسة والمجتمع ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، ص ٨٠ .

(٢) منير المرسى سرحان : فى اجتماعيات التربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨م ، ص ٢٣٠.

(٣) نبيل محمد صادق أحمد : طريقة تنظيم المجتمع فى الخدمة الاجتماعية – مدخل إسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ٧٢ .

ديـوى " [١] ، وللعـلم – كذلك – فإن هـذا هـو ما اتبعـته " آن بـاريليوس An Parker Parelius " وزوجها فى كتاباتهما فـى مجـال علـم الاجتمـاع التربوى [٢] .

وهذا التحديد " لمصطلح " المجتمع " وتقسيمه إلى مجتمع كبير ، ومجتمـع محلى ، هو الذى سوف نسير عليه فى هذا الكتاب ، إن شاء الله ، وكما سـبق وكتبنا فى كتابنا " التربية ومشكلات المجتمع فى دول الخليج العربية " ، حيـث قلنا نصا : " وعند تعاملنا مع اللفظين (المصطلحين) خلال سطور هذا الكتاب، سوف نتبع – إن شاء الله أسلوبا موحدا ، منعا للالتباس ، وتجنبا للبلبلة ، وهـو أننا حين نتحدث عن " المجتمع " سوف يكون حديثنا مقصـودا بـه المجتمـع الكبير.. أو المجتمع فى شموله ، مثل المجتمع المسلم ، أو المجتمع المصـرى ، أو المجتمع السعودى ، أو المجتمع الكويتى ، أو حتى مجتمع الخليج .. ككل .

أما عندما نريد أن نشير إلى بعض الجماعات الخاصة – داخل المجتمـع الكبير – فسوف يأتى التحديد واضحا ، بإذن الله ، فنقول " المجتمـع المحلـى " لكذا وكذا ، مثل : " مجتمع مدينة القاهرة " ، أو مجتمع مدينـة الريـاض " أو مجتمع مدينة العين " .. أو أننا سوف نصف من نعنيهم بمصطلح يوضح هويتهم مثل : " المجتمع الكورى " أو " المجتمع الهندى " أو " المجتمع الفليبينى " ، حال وجود تجمعات من أفراد هذه الجنسيات تعيش على أرض الخليـج – مثـلا – وتعمل فيها ، وتشكل – بالتالى – تجمعات محلية فيها .

---

[١] جون ديوى : الديموقراطية والتربية ، ترجمة متى عقراوى ، زكريا ميخائيل ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، نقلا عن دراسات فى أصول التربية لمحمود قمبر وزملائه ، ص ٥٦ .

[٢] An Parker Porelius & Rebert J. Parelius : The Sociology of Education, Prentice Hall Inc., New Jersey, 1978, P. 330.

وبعد ذلك نعتقد أنه من المنطقى ،وبعد أن أوردنا عددا لا بأس بـــه مــن تعريفات المجتمع ، عربية وأجنبية ، نعتقد أنه من حق القارئ علينا أن نضـــع تعريفا لمصطلح " المجتمع " ، كما نراه ، وسوف نحاول فيـــه ، إن شـــاء الله ، تجنب المآخذ التى تحدثنا عنها بالنسبة للتعريفات التى سبق وأشرنا إليها ، وقبـل أن نورد تعريفنا المقترح نشير إلى أن هناك عددا من الأبعاد أو الحدود جـــاءت فى تعريفات هؤلاء العلماء ، وهى :

١ – الحدود الجغرافية :

وهى التى تفصل بين أراضى دولة وأخرى ، بحيث يقـــال إن المجتمـــع المعنى له رقعة جغرافية محددة ، يبسط عليها نفوذه ، ويباشر داخلها ســـلطته ، كما يمارس أفراده على رقعتها حياتهم بـــالطرق والوســـائل والأســـاليب التـــى ارتضوها . وفى العـــادة فإن هذه الرقعـــة تشـــتمل علـــى تقســـيمات إداريـــة داخلية، تحدد معالم أجزاء ذلك الإقليـــم ، وصلاحيـــات الإدارة فيـــه . وهـــذه التقسيمات الإدارية – غالبا – تشتمل على ســـكان مجتمعـــات محليـــة Local Communities، وهذا هو ما يعنينا منها .

٢ – السكان :

أى البشر الذين يوجدون ويعيشون على تلك الرقعة الأرضية المحددة لهم، وهم الذين ارتضوا العيش عليها ، والعمل فى مناشـــطها متعـــاونين ، وعـــادة تجمعهم أهداف وأحاسيس ومصالح مشتركة ، وبطبيعة الحال فإنهم مروا خـــلال تاريخهم الطويل – معا – بتجارب وتفاعلات مشتركة ،وربما مروا بصراعـــات مع الغير وحدت بينهم ، وجمعت بين مشاعرهم ، وجعلت منهم مجتمعا واحـــدا متلاحما .

٣ – التفاعل الاجتماعى :

وهذا أمر لابد منه لأية جماعة من البشر تتواجد فى مكان واحـد ، فـهم يتفاعلون سويا ، ويتعاونون معا فى مواجهة عناصر الطبيعة المختلفة ، يحاولون إخضاعها لمطالبهم ، كما أنهم يتعاونون لدفع الغير المهاجمين أو المعتدين عـن منطقتهم ، فيما لو طمعوا فيهم ، أو فيما عندهم من خيرات ، ولا يمنع ذلك مـن وجود بعض أوجه التفاعل السلبى بينهم فى بعض الأحيان ، أفرادا وجماعـات ، ولكن ذلك يظل فى حدود الأمور الداخلية الخاصة بهم والتى تعنيـهم هـم دون غيرهم من البشر . بقى القول أن هذه التفاعلات الاجتماعية بين البشـر تنشـئ بينهم أنواعا من العلاقات الاجتماعية التى تتنامى فيما بينهم ، وتأخذ صفة الثبات بحيث تصبح ولها حدود واضحة المعالم يرتضيها أفراد المجتمع جميعا ، وكـذا جماعاته ، وهم يغضبون جدا حين يحاول أحد الإخلال بهذه العلاقات ، بل إنـهم يكونون على استعداد للدفاع عنها إذا استدعى الأمر .

٤ – الاعتماد المتبادل :

بين جماعات المجتمع وأفراده من ناحية ، وبين المجتمعات الأخرى وذلك المجتمع من ناحية أخرى ، ذلك أن سنة الله فى خلقه – جلت قدرته – قسّـمت الأرض إلى أقاليم اختلفت فيما بينها ، مساحات .. ومناخات .. ومواقع بحريـة وقارية (داخلية) .. وغنى . وفقرا ، كذلك فإنها اختلفت فى أوجه تعاملها مـع ما منحها الله من ثروات .. نشاطا .. وكسلا ، وعيا بما عندها واستثمارا له ، أو إهمالا له وعدم معرفة بقيمته ، وبالتالى اختلفت فيما تنتجه .. كميات وأنواعـا ، وأيضا اختلفت فى نوعية Quality ما تنتجه ، ومن هنا كان لابد مـن التبـادل والتعاون بين الجميع ، وتثبت الحقائق أنه ليس هناك مجتمع على وجـه الأرض يمكنه أن يكتفى بما ُعنده .. مهما كان غناه ، ومهما كانت درجة ثرائه ، ومـهما كان نشاط سكانه وتقدمهم .

٥ – النظم الاجتماعية :

مثل النظام الأسرى ، والنظام الاقتصادى ، والنظام السياسى ، والنظام القضائى ، والنظام التعليمى .. إلخ وكلها نظم تعارف عليها الناس داخل كل مجتمع من مجتمعات الدنيا ، وهم – فى كل مجتمع منها – ارتضوها لأنفسهم ولضبط شكل الحياة لديهم ، بحيث صارت حاكمة لتصرفاتهم وتعاملاتهم ، وجزء كبير من هذه النظم جاء من داخل المجتمع ذاته .. من قيمه ، ومن عاداته، وكذا من تقاليده وأعرافه ، وأجزاء أخرى استوردها المجتمع من خارج حدوده ، بعد أن وجد العقلاء فيه أنهم يحتاجون هذا الجانب المستورد لصلاح أمورهم ، ولضبط سير الحياة على أرضهم .

٦ – الشعور بالانتماء :

حيث الولاء للمجتمع جزء لا يتجزأ من صميم التكوين الاجتماعى لأفراد المجتمع أنفسهم ، وهذا الانتماء والولاء هما اللذان يوحدان المجتمع ويعملان على تماسكه وتلاحمه ، كما يقول صادق [١] .

وللعلم فإن هذا البعد الأخير المتعلق بالولاء والانتماء فى حياة المجتمعات قد لا يبدو واضحا وجليا بالنسبة لأعين الكثيرين من خارج تلك المجتمعات ، خاصة حينما يرون بعض الاختلافات داخل تلك المجتمعات بين أفرادها والجماعات ، ولكن حينما يجد الجد وتتعرض تلك المجتمعات للمخاطر وخاصة مخاطر الاعتداءات الخارجية ، فإنهم سرعان ما يرون طوائف تلك المجتمعات وجماعاتها وقد توحدت فيما بينها ، ووقفت سدا منيعا تدافع عن ذواتها ،وتحارب كل من تسول له نفسه الاعتداء على مجتمعها ، بل وتفتدى ذلك المجتمع بالمهج والأرواح ، وقد توصل علماء الجغرافية السياسية فى هذا المجال إلى مقولة تبدو

---

[١] نبيل محمد صادق : مرجع سابق ، ص ص ٧٣ – ٧٥ .

صائبة ، وهى أن العدوان الخارجى ، دائما يوحد القوى الداخلية ، ويؤلف فيمـا بينها .

٧ – الدين الواحد :

وقد أبقينا هذا العنصر للنهاية عن عمد لنختتم به مقومات وجود المجتمع لأنه أهم العناصر وأكثرها أثرا فى حياة المجتمعات ، إذ أنه من المعروف أن الحدود السياسية للدول أمر حديث نسبيا ، كما أن هذه الحدود خاضعة للتعديل والتبديل بين حين وآخر ، أما دين المجتمع فهو حياته ذاتها ، وعلى الرغم من وجود مجتمعات بها أكثر من دين إلا أن دين الأغلبية من السكان يكون هو الغالب عل المجتمع ، وهو الذى يتصف به ذلك المجتمع ، وكذا هو الذى عنه يدافع إذا هوجم من جانب مجتمع آخر ، وهو الذى يعتصم به عند الشدائد والملمات .

توضيح :

هـذا وبالنسبة للعنصر السابق ، عنصر الدين نبين أنه قد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أنه هو العنصر الأول والأخير ، والأكثر أهمية والذى يدافع عنه أفراد المجتمع ، والذى هم مستعدون للموت فى سبيل المحافظة عليه ، والوقوف فى وجه كل من تسول له نفسه الاعتداء عليه ، ومحاولة انتزاعه منهم ، هكذا تقول لنا نتائج الحروب الصليبية القديمة ، وكذا الحروب الصليبية الحديثة فى حياة الأمة الإسلامية ، فما وقفت الشعوب الإسلامية ودافعت ، وصمدت وضحت .. بالملايين من أبنائها إلا لهذا السبب .. وهذا السبب وحده .

وللذين يهونون من أمر الدين ، لجهل فى عقولهم ، أو مرض فى قلوبهم، أو ضعف فى عزائمهم ، أو مجاراة لبعض حكامهم ومستعمريهم ، نقول لهم إنه

- أى الدين - هناك رغم أنوفهم ، وأنه باق ما بقيت السموات والأرض ، بنص القرآن الكريم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وصدق الله العظيم .

ورغم أقلامهم وفلسفاتهم إلا أن ذلك لم يغير من هذه الحقيقة شيئا ، ولقد كانت شعوب الأمة الإسلامية واعية لهذا البعد فى حياتها بدرجة مذهلة ، فى كل مكان وصل إليه الإسلام ، وعلى امتداد التاريخ ، وكان إحساس هذه الشعوب نابعا من صميمها ، بفضل عقيدة الإسلام التى غرست فى شخصيات أفرادها .

ولمن يتشكك فى قولنا هذا ، أو كان فى قلبه مرض ، نعيده إلى تاريخ الإسلام والمسلمين ، منذ غزوات التتار والمغول والصليبيين فى العصور الوسطى ، إلى هجمات الصليبيين الجديدة على الإسلام والمسلمين فى الاتحاد السوفيتى وفى أفغانستان ، وفى مصر والجزائر وتونس والمغرب ، وإلى الهجمة الصهيونية على فلسطين ، وحتى حرب البوسنة والهرسك منذ سنوات ، وحرب الشيشان التى ألقت روسيا فيها بكل ثقلها ، والتى يتفرج عليها الغرب لأنها - فعلا - لا تعنيه لأن ضحاياها من المسلمين ، والتى يتفرج عليها المسلمون - كذلك - لأن عزائمهم خائرة ، ولأنهم شغلوا بالصغائر فى دنياهم ، ولأنهم لم يعودوا يرون إلا تحت أقدامهم .. !!

إن هناك خيطا متينا لا ينقطع بين هذه الحروب والهجمات ، وهو خيط الدين الإسلامى الذى تدافع عنه المجتمعات الإسلامية على اختلاف مواقعها ، وعلى اختلاف تواريخ الهجوم ، والانقضاض عليها ، إن وعى هذه المجتمعات بأن الهجوم مركز على الإسلام ، ولا يقصد غيره هو الذى استثار حميتها ، وبعث فيها روح الجهاد التى امتدت لمئات السنين ، ولم يرهب تلك المجتمعات أنها ضعيفة أو أنها لا تملك سلاح العصر ، إن سلاح الإيمان لديها كان أقوى من كل ما جمعه الكفار والمشركون من أسلحة وعتاد وذخائر ، وكل ذلك تطبيق

عملى لقول الحق – جلت قدرته – : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (*) .

التعريف المقترح :

فيما يلى سوف نقدم تعريفا مقترحا للمجتمع ، حاولنا فيه أن نجتهد قدر استطاعتنا بحيث نجنبه المآخذ التى سبق وأن ناقشناها فى تعريفات من سبقونا من الأساتذة والعلماء ، ولا نستطيع الادعاء بأن تعريفنا المقترح هذا سوف يكون جامعا مانعا ، وإنما هو اجتهاد قابل للنقاش ، وبالتالى قابل للتعديل والحذف والإضافة طالما اقتنعنا بوجهة نظر معينة أو وجهات نظر أخرى ، نقول :

" إن المجتمع عبارة عن جماعات من البشر يعيشون معا فوق رقعة من الأرض امتلكوها وفرضوا سيطرتهم عليها ، وتفاعلوا مع مقوماتها (موقعا وتضاريسا ومناخا .. إلخ) واستثمروها لخيرهم ، كما تفاعلوا فيما بينهم ، ومع من حولهم مكونين تاريخا خاصا بهم ،كما أن لهم نظما اجتماعيا خاصة بهم ، وثقافة مشتركة تجمع بينهم ، وكل ذلك فى ظل دين يحكم حركة الحياة من حولهم ، ويوجه سلوكهم ، وتنبع منه قيمهم ومثلهم ، وتخضع له عاداتهم وتقاليدهم ، كما أنه ينظم معاملاتهم فيما بينهم ، وكذا فى تعاملهم مع الآخرين، وغايات هذا الدين هى أهدافهم .

وكما ترى فإن هذا التعريف قد بدأناه " بجماعات من البشر " ، ولم نبدأه بفرد واحد ، حيث الفرد الواحد لا وجود له ، ولا تفاعل ، واشترطنا تفاعل هذه الجماعات مع بعضها فوق رقعة معينة من الأرض يمتلكونها هم ويتفاعلون مع كل مقوماتها ، وهم فى هذا التفاعل كونوا " تاريخا " خاصا

(*) إن أى محلل منصف محايد لا يستطيع إلا أن يسلم بأنه ليس هناك أى وجه للمقارنة على الإطلاق بين تسليح الشيشان البدائى وبين سلاح الاتحاد السوفيتى الذى كان القوى الكبرى الثانية فى العالم ذات يوم .

بهم مروا فيه بتجارب ومواقف كثيـرة فكونوا بذلك ثقافـة خاصة بهم يعرفـون على أساسها ، وتميزهم عن غيرهم ، ثم إن كل ذلك يتم فى إطـار دين (هـو الدين الإسـلامى بطبيعة الحال فى مجتمعاتنا) ، وهذا الدين القويم يوجه حركة الحياة فى تلك المجتمعات أو هكـذا يفترض ، وهو الموجه الأساسى لكـل مـا يوجد فى تلك المجتمعات من نظم اجتماعيـة ، واقتصادية وسياسـية وغيرها ، كما أن قيم تلك المجتمعات تنبـع من ذلك الدين ، وعادات أفرادهـا وتقـاليدهم لا تتصادم بحالٍ من الأحـوال مع ذلك الديـن . ثم إن أهداف تلك المجتمعـات لا تخرج عن إطار الدين، بل إن حيـاة أفرادها كلهـا ينبغى أن تدور حول هذا الدين فى كل أمر من الأمـور، تصديقا لقول الله – عز وجـلِ – ﴿ قل إن صلاتى ونسـكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ، وصدق الله العظيم .

وحينما نقول بأن غايات هذا الدين هى أهدافهم ، أى أهداف المجتمعـات الإسلامية ، فإننا نعنى بذلك أن كل الأمـور الرائعة والطيبـة التى جاء بها هذا الدين ينبغى أنّ تكون أهدافـا لتلك المجتمعات تسعى جهدها لتحقيقها ، وتربـى ناشئتها وأجيالهـا الصاعدة بقصد تنفيذهـا وتوطيدهـا وغرسها فـى نفـوس الجميـع .

إن مكارم الأخلاق التى قال رسولنا -ﷺ- أنه بعث ليتممها ينبغـى أن تكون فى مقدمة أهداف تربيتنا لأبنائنا ، باتساع المجتمعات الإسـلامية ، حتـى تعود فتخرج أنواعاً من البشر مثل البشر الذين رباهم -ﷺ- حتى كوّن منـهم أمة وصفها الحق – جل وعلا – خير أمة أخرجـت للنـاس ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ﴾ .

كما أن إقامة العدل بين الناس ، ورفع الظلم عنهم ، والمساواة بينهم في الحقوق والواجبات من صميم أهداف أفراد المجتمع المسلم ، فكلهم " سواسية كأسنان المشط " كما ورد عن الرسول المعلم الأسمى -ﷺ- . ثم إن تبليغ الرسالة للعالمين من أهم أهداف أفراد هذه الأمة الإسلامية ، وعليهم ألا يغيب هذا الهدف عن تربيتهم لأجيالهم الصاعدة ، وذلك كما فعلت جماعات سلفنا الصالح – رضى الله عنهم أجمعين – وهكذا .

الفصل الثالث

ماهيـــة التربيـــة

الفصل الثالث

ماهية التربيـــة

منذ وجدت المجتمعات البشرية على وجه الأرض ، وهى تتخذ من التربية وسيلة لتنشئة أفرادها ، وللعمل على تكييفهم مع البيئات المحيطة بهم ، البيئـات الطبيعية والبيئات الاجتماعية ، والتربية بهذا المعنى قرينــة الحيـاة ، بـل إن البعض يقولون إنها هى الحياة ذاتها .

فمنذ اللحظات الأولى لميلاد الأطفال تتولى الأسر العنايــة بــهم ، كــى يتوافقوا مع المجتمع الصغير المحيط بهم فى نطاقــها ، وكــذا مــع المجتمــع الخارجى ، كى يستطيعوا التعامل مع أفراده وجماعاته ومؤسساته ونظمه ، لأن العيش فى خضم تياراته ليس بالبسيط ولا بالهين . ولأن التربية تحتل موقعــا خطيرا فى حياة المجتمع - أى مجتمع - فإنها لم تترك للأســرة وحدهــا ، أو للأفراد ، وإنما تدخلت فيها الجماعة ، أو المجتمع ، وألقت وراءها بثقلها .

إن ما يميز أفراد مجتمع عن أفراد مجتمع آخر هو ثقافة ذلــك المجتمــع ونوع التربية السائدة فيه . لا يميزهم غناهم أو فقرهم ، لا يميزهم ألوان عيونهم أو أشكال أجسادهم ، أو طولهم أو قصرهم ، وإنما تميزهم التربية التى يتلقونها والتى تجعل منهم أشخاصا ذوى هوية معينة ولون مختلف (*) .

وللمحافظة على بقاء الجماعــة واستمرار وجودهــا فــإن المجتمعــات تحرص على أن تلقن الصغار من أفرادها أساسيات ثقافاتها ومبــادئ تربياتــها

(*) حينما يذكر المجتمع اليابانى لا نتذكر إلا العلم والتكنولوجيا والتقدم والاختراع والعمل الـدءوب وكـل ذلك من نتاج التربية ، ويغيب عنا لون اليابانى وصفات جسمه ، بل وتغيب عنا أرضه ومناخ بلـده وأى شيئ آخر .

حتى يخرجوا إلى الحياة وهم متماسكون اجتماعيا وثقافيا ، بحيث لا تسهل إذابتهم فى مجتمعات أخرى ، وبحيث يقاومون ما يتعرضون له من ضغوط قد تقع عليهم ، سواء كانت من جانب الطبيعة وعواملها ، أو من جانب المجتمعات المحيطة بهم والتى قد تطمع فيما عندهم من خيرات أو ثروات ، أو من جانب وسائل الإعلام الحديثة الموجهة نحوهم بقصد إذابتهم ، ومن ثم إذابة أرادتهم ، أو على الأقل التأثير فيها .

والتربية - بناء على هذا الأساس - عملية مستمرة ومرادفة للحياة ذاتها ، فهى تبدأ مع الإنسان ، منذ ولادته .. وحتى قبلها ، وهى كذلك تستمر معه طيلة أيام عمره ، ولا تنتهى أو تتوقف إلا بانتهاء تلك الحياة ، أو بتوقف نبض الدم فى عروق الإنسان .

ولعل هذا المعنى هو الذى كان - ولا يزال - وراء عناية الإسلام واهتمامه بالطفولة والتنشئة الاجتماعية ، حتى قبل الزواج ، عملا بحديث الرسول - ﷺ - " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس " ، ولقد حرص الإسلام على العناية بالأطفال منذ ميلادهم ، بل لقد شملت عنايته مرحلة ما قبل الميلاد، حين دعا إلى اختيار الزوجة الصالحة ، لتكون أما صالحة ، توفر المناخ الطيب، والبيئة الملائمة لتربية الطفل ، وأيضا برعايته والعناية بصحته الجسمية والنفسية [١] .

وعلى ذلك فإن التربية عبارة عن عملية تشكيل لشخصية الفرد ، ولبناء حياته داخل الإطار الذى ارتضته الجماعة لنفسها ، والذى وضعت معاييره وحدَّدت ضوابطه ، وهذه العملية " تبدأ مع الإنسان طفلاً يتشرب القيم

---

[١] حسن عبد العال : التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٨م ، ص ١٠٥ .

والاتجاهات والتصورات من والديه ، ثم ينمـــو الطفـــل ، ويحتـــك بالأقـــارب والجيران ، فتزيد دائرة احتكاكاته ، ثم يذهب إلى المدرسة ، إن كان هناك تعليم مدرسى ، فتتسع الدائرة أكثر ، وتستمر التنمية الأيديولوجية، حيث تصقل تلـــك القيم والاتجاهات وتتبلور " [١] .

ويقـــول " سويفت Swift " إن التربيـــة هى الطريقـــة التى يتمكن الفـــرد بواســـطتها من أن يكتســـب الكثير مـــن القـــدرات البدنيـــة والأخلاقيـــة والاجتماعية التى تتطلبها الجماعة التى ولد بهـــا ، والتى يجب أن يعمل فيـــها . ويسمى علمـــاء الاجتماع هـــذه العملية بـــالتطبيع الاجتمـــاعى ، أو التنشـــئة الاجتماعية Socialization . وترجع قيمة هـــذا المصطلح وأهميتـــه إلـــى سببين : فهو يؤكد – فى المقـــام الأول – على أن التربيـــة عملية اجتماعيـــة ، تحدث فى إطـــار اجتماعى ، كما أنهـــا تتم بالطرق التى تتطلبهـــا قوانيـــن الجماعة " [٢] .

ومعروف أننا نستطيع – كما يقول جونسون Johnson –أن نتحدث عـــن "شخصية الطفل الوليد " ، وذلك ببساطة لأن ذلك الرضيع لا يمتلك الشـــخصية بالمعنى الصحيح ، إذ أنها عبـــارة عـــن نظـــام داخلـــى معقـــد ، وبعبارتـــه Acomplex Inner Spystem يمثل العالم الخارجى ، بعد أن يحتك به الطفل ويتفاعل مع عوامله [٣] .

---

[١] عبد الغنى عبود : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربية المقارنـــة ، دار الفكر العربي ، القـــاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨م ، ص ص ٢٦ – ٢٧ .

[٢] د. ف . سويفت : اجتماعيات التربية ، دراسة تمهيدية تحليلية ، ترجمة محمد سمير حسانين ، مؤسسة سعد للطباعة ، طنطا ، ط ٢ ، ١٩٧٧م ، ص ١٦ .

[٣] Robert R. Bell (Editor) Hary M. Johnson : Socialization in the Sociology of Education, Temple University, The Dorsey Press, Inc., Homewood, IL., 1962, P. 86.

وهذا الكلام يقودنا إلى علمية " التطبيع الاجتماعى " التى حدثنا عنها " سويفت Swift " ، والتى هى من أخطر المهام التى تقوم بها الجماعة تجاه أفرادها الجدد من الناشئين ، حتى يستطيعوا أن يتكيفوا مع أعضاء الجماعة المحيطين بهم ، وأن يتوافقوا مع ما اصطلح عليه أفراد المجتمع ، وبالتالى فإن هذه العملية – عملية التطبيع الاجتماعى – عملية تربوية بالدرجة الأولى ، يتمكن الفرد ، أو الناشئ الجديد – من خلالها – من القيام بالأدوار الاجتماعية الجديدة عليه .

هذا ويركز علماء الاجتماع والتربية – كثيرا جدا – فى عملية التطبيع الاجتماعى هذه على دور الأسرة ، وهم بطبيعة الحال لا يغفلون دور المجتمع الخارجى ، وإن كانوا يقولون بأن الاحتكاك الأول للطفل مع أفراد أسرته ، وخاصة والدته ، يضع البنود الأولى ، أو اللبنات الأساسية فى بناء تطبيعه وتكيفه مع المجتمع الصغير من حوله ، وكذا المجتمع الكبير المحيط به .

وإذا كانت الأسرة تلعب الدور الأول والأساسى فى عملية التطبيع الاجتماعى – والتى هى عملية تربوية بالدرجة الأولى – فى المراحل الأولى من حياة الطفل ، إلا أنها تبدأ فى فقدان مساحة التأثير عليه فى كل يوم يشب فيه عن الطوق ، ويبدأ فى الاحتكاك بالعالم الخارجى ، حيث تشاركها ذلك التأثير جماعات أخرى من المجتمع ، من أهمها وأخطرها جماعات الأنداد أو النظراء، أو الأتراب Been groups ، والتى يتعاظم تأثيرها على الشباب اليافعين المنتسبين إليها ، خاصة فى مرحلة المراهقة ، حتى إن بعض الدراسات فى هذا المجال أثبتت أن تأثير أفرادها على بعضهم البعض يكون – فى بعض الأحيان– أقوى من تأثير الأسرة على أبنائها .

ويوضح لنا المعنى السابق أحد علماء الاجتماع الأمريكيين قائلا بأنه " إذا كانت جماعة الأنداد واضحة بعض الشيئ فى مرحلة الطفولة ، إلا أنها تصبح مظهرا سائدا ومسيطرا على الحياة الاجتماعية للمراهقين [1] . ويفسر البعض هذا الصراع الذى يأخذ مجراه بين المراهق وأسرته – خاصة فى المجتمعات الحديثة المتقدمة – على أساس أن المراهقين يقضون مع بعضهم أوقاتا أكثر مما يقضون مع أسرهم ، كما أن تماثلهم .. أو تقاربهم فى السن يجعل تفكيرهم متقاربا ، وبالتالى فحينما يوجد اختلاف حاد بين القيم التى تتمسك بها الأسوة ، وتلك التى تسود جماعات الأنداد أو النظراء ، نجد أن أفراد هذه الجماعات من المراهقين يفكرون ويسلكون فى إطار قيم هذه الجماعات ن والتى قد تكون – أحيانا – مخالفة لما تعتقده الأسرة [2] .

وعلى ذلك فإذا نظرنا إلى التربية لوجدنا أن إحدى أهم الوظائف التى تقوم بها بالنسبة للفرد والجماعة هى وظيفة العمل على تكييف الفرد وتكيفه مع جماعته ، فهى إذن تكيف من جانب الفرد للعيش مع الجماعة ، وللتوافق مع متطلباتها ومعاييرها وعاداتها وقيمها .. بل وقيودها أحيانا .

كما أنها عملية تكييفية من جانب الجماعة لهذا الفرد ،كى يستطيع أن يساير ما تضعه الجماعة من معايير ، وأن يعمل ، مع غيره من أفراد المجتمع، لتحقيق أهداف تلك الجماعة ، والعملية بهذا الشكل – كما يقول " سرحان " – عبارة عن " عملية تكيف بين الفرد وبيئته ، وهذه العملية تنشأ عن اشتراك الفرد ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فى الحياة الاجتماعية الراعية للجنس

---

(1) Ruth Shorle Covan : The American Eamily, Thomas Y. Crowell Company, N. Y., Third Edition, 1984. P. 262 .

(2) Earl Raab & Gertrude Joeger Seizinick : Major Serious Problems, Harber & Roa Publiohers, N. Y., Evanston & London, 1964, PP. 330 – 331 .

البشرى . وباستمرار هذه المشاركة واتصالها تتشكل عادات الفرد واتجاهاته وقيمه الفكرية والخلقية والاجتماعية ، فهى تمثل الحصيلة الكلية لاتحاد الخبرات الإنسانية التى تشكل ما يسمى بالشخصية [١] .

هذا ويعرف أحد الباحثين التربية بأنها تلك الجهود التى تتعلق بتعليم أفراد المجتمع من الجيل الجديد كيف يسلكون فى المواقف الاجتماعية المختلفة ، على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذى ينشأون فيه .

ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك ، وتنميته وتطويره وتغييره ، أن هدفها أن تنقل إلى أفراد الجيل الجديد المهارات والمعتقدات والاتجاهات وأنماط السلوك المختلفة التى تجعل منهم مواطنين صالحين فى مجتمعهم ، متكيفين مع الجماعة التى يعيشون بينها ، أى أن التربية عملية تعليم وتعلم لأنماط متوقعة من السلوك الإنسانى [٢] .

هذا ويركز بعض المفكرين التربويين على أن مهمة التربية هى أنها تهتم – بالدرجة الأولى – بتنمية الشخصية داخل الإطار الاجتماعى الذى توجد فيه هذه الشخصية وتتفاعل . والمفهوم الذى يأخذون به فيما يتعلق بالشخصية هو أنها " كل منظم شامل يتضمن الصفات الجسمية والعقلية والانفعالية والروحية ، كما يتضمن الخلق والمزاج اللذين يعتبران أجزاء من شخصية الفرد " [٣] .

وفى بعض كتابات هتشنز Hutchins نجده يركز على أن التربية تهدف – ضمن ما تهدف إليه – إلى تنمية قوى الإنسان العقلية Intellectual،

---

[١] منير المرسى سرحان ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

[٢] محمد لبيب النجيحى : الأسس الاجتماعية للتربية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٩٧٨م ، ص ٩.

[٣] أ . ك . أوتاواى ، مرجع سابق ، ص ٥ .

والأخلاقية Moral ، وكذا القوى الروحيـة Spiritual Powers ، وبمـا أن جهة واحدة من المجتمع ، أو مؤسسة واحدة كالمدرسة مثـلا ، لا تسـتطيع أن تنمى كل تلك القوى ، فإن العديد من المؤسسات كالمدرسة والمنزل والمؤسسات الدينية ، يجب أن تعمل جميعا معا ، وفى تناسق Harmony وتعـاون ، كـى تحقق هذه الجوانب فى الإنسان ، وكى تعمل على تنميتها [١] .

كذلك يربط البعض بين التربيـة والمجتمع الذى تعمل فيـه ، وثقافتـه التى تميز أفراده عن غيرهم من أفـراد المجتمعات الأخرى ، فالتربية عندهـم هى العملية التى يتم بها نقل التراث الثقافى وتحسينه على مر الأجيال ، وهـى عمليـة تقديم ثقافـة المجتمع لأفراده الصغار ، وتشكيلهم على نحـو يجعلـهم قادريـن على أن يكونوا حملة هذه الثقافة ، وبدون هذا التقديـم وذلـك النقـل تضمحل الثقافـة وينحط المجتمع . وعلى هـذا الأساس فإنه كما أن التربيـة ضرورية للمجتمع ، فهى ضرورية للفرد نفسـه ، إذ أن تشرب الفـرد لثقافـة المجتمع يكسبه الصفـة الاجتماعية المطلوبة للعـيش فى المجتمع الذى ينتمـى إليه ، وعلى ذلك فالتربية ضرورة اجتماعيـة ، وضرورة فرديـة .: بنفـس المقـدار [٢] .

وإن كانت هناك بعض الكتابات الحديثة فى التربية التـى بـدأت تنـادى بتوسيع دائرة اهتمام التربويين لتخرج بهم عن نطاق مجتمعاتهم ، كى يـهتموا فى بحوثهم وكتاباتهم بالأبعاد العالمية ، خاصة ونحن نعيش فى مجتمع " لحظى الاتصال " ، سريع المواصلات ، بحيث أن هذا العالم قد أصبح – بالفعل – مثل

---

[١] Robert M. Hutchins : The Basis of Education, in (Readings in the socio – Cultural Founditions of Education. Op. Cit., P. 142.

[٢] أبو الفتوح رضوان وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٥ .

قرية صغيرة ، قرية يعرف أفرادهـــا كل ما يقع فى أى ركـــــن مـــن أركـــان المعمورة كلها [١] .

ولكن ينبغى علينا نحن فى مجتمعاتنا الإسلامية أن نكون واعين لأبعاد هذه " الدعوة العالمية " فى التربية أو الثقافة ، فهى إن صلحت - فى الوقت الحاضر الذى نحن فيه ضعاف متفرقون - لغيرنا من الدول القوية التـــى تعمـــل علـــى فرض ثقافاتها واتجاهاتها وأنماط تربياتها على كثير من شعوب العالم ، إلا أنها لا تصلح لنا بالقطع ، وذلك حتى لا نذوب فى ثقافات هذه المجتمعات ، وخاصة أبناؤنا وبناتنا الذين يتعرضون لهذا النوع من الغزو الثقافى والفكرى الذى يأتيهم عبر قنوات الاتصال المختلفة .. وهم على أرضنا وبيـــن ظـــهرانينا ، بينمـــا يتعرض لهذا الغزو - بشدة - أبناؤنا الذين يذهبون للدراسة فى الخـــــارج ، أو حتى الذين يذهبون لفترات قصيرة بقصد السياحة أو غيرها .

وعلى سبيل المثال فإن مجتمعات الغرب المتقدمة تعمل الآن على زيـــادة رفاهية مواطنيها وخلق فرص الاستمتاع بالحياة والترف الزائد ، كما تعمل على زيادة حصيلة أفرادها من استثمار أوقات الفراغ ، ومن كثرة الاستهلاك ، وخلق الرغبات الحادة فى ذلك [٢] .

بينما مجتمعاتنا التى تئن تحت وطأة مشكلات الحاجة إلى الأمن الثقـــافى والسياسى والعسكرى والغذائى .. وربما كل أنواع الأمن المعروفة (!!) هـــذه المجتمعات ينبغى أن تكون أهداف تربياتها موجهة توجيها صارما ناحية العمـــل وإتقانه ، وبذلك الجهد .. دون توقف ، حتى نستطيع أن نضـــع أقدامنـــا علـــى

---

[١] Rearde L. Garcia : Education For Cultural Pluralism, Globol Roots Stew, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1981, P. 7.

[٢] Thomes S. Curtis : Austhentic Education & the Ouality of Life, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Irdiana, 1981, P. 10 .

طريق تعويض المسافات الهائلة التى تفصل بين مجتمعاتنا النامية والمجتمعات المتقدمة ، والتى تزداد تقدما كل يوم .. بل كل ساعة .. !!

ولعلنا نتعظ من هذا المثل الطيب الذى يتمثله الأمريكيون فى قول واحد من حكمائهم ، هو " جون أدمز " ، والذى يقول : " ينبغى علىّ أن أدرس السياسة والحرب ، حتى يمكن لأبنائى الحرية فى دراسة الرياضيات والفلسفة والجغرافيا والتاريخ الطبيعى والعمارة البحرية والملاحة والتجارة والزراعة ، وذلك لكى يمتلك أبناؤهم الحق فى دراسة الرسم والشعر والموسيقى والهندسة المعمارية [1] .

ونرجو أن تكون الأولويات هنا واضحة فى أذهاننا .. كما رتبها ذلك الأمريكى الحصيف ، وكما وضحها لقومه ، فعلوم القوة والمنعة والعزة .. تأتى أولا ، ثم العلوم التى تتطلبها أمور المعيشة الجادة على ظهر الأرض ، ومن بعد ذلك تأتى علوم الترف والجمال والخيال .. واللهو والاستمتاع بأوقات الفراغ .. !!

هذا وحينما نتحدث عن التربية ينبغى أن يكون واضحا أننا لا نقصد بها ذلك المعنى الضيق المحدود الذى يفهمها البعض على أساسه ، باعتبار أن أمور التربية تتعلق فقط بالمدرسة أو الجامعة ، وبالمدارس والمدرس .. والمنهج والمقرر .. والفصل والسبورة والكتاب .. !!

وإنما نحن نتحدث عنها بمعناها الواسع ، ذلك المعنى الذى يجعل مؤسسات المجتمع كله – وبلا استثناء – مؤسسات تربوية تسهم ، أو ينبغى أن

---

[1] Ibid., P. 8 .

تسهم ، فى تربية المواطن ، وفى توسيع دائرة خبراته ومداركه ، كما تسهم فى شحذ عزيمته وإثارة وجدانه .

هذه المؤسسات فى مجتمعنا المسلم تشمل الأسرة والمسجد ، وتمر على النادى الأدبى وتصل إلى أجهزة الإعلام المختلفة ووسائله ، كما أن منها المؤسسات الصناعية والتجارية ، خاصة تلك التى تهتم بالخدمات التى تتعلق بالمواطنين . " إن التربية لا ينبغى أن تتوقف حدودها عند أسوار المدارس أو الجامعات ، لأنها إن فعلت ذلك تصبح قاصرة ومقصرة ، ويصبح عملها محدودا ، إنما هى ينبغى أن تمتد لتشمل قطاعات عريضة باتساع المجتمع كله، فهى فى المؤسسات الثقافية ، وفى دور النشر ، كما أنها ينبغى أن تكون فى مؤسسات المال والأعمال ، وكذا فى المؤسسات الصناعية ، كذلك لا يمكننا أن نغفل وجودها فى أعمال الجهات التى تهتم بالترويح عن النفس والتسلية .. وذلك قليل من كثير " [١] .

ويحدثنا كاتب تربوى آخر هو " كيندر Kinder " عن هذا التنوع والانتشار للمؤسسات التى تهتم بالتربية ، ولكنه يضيف بعدا هاما ، هو بعد التكامل بين عمل هذه المؤسسات كلها بحيث لا يتعارض عمل إحداها مع عمل الأخرى ، يقول : " إن المدرسة تؤدى دورا عظيما فى تربية النشء ، ولكنه ليس كل شئ . إن عمل هذه المدرسة ينبغى أن يكون جزءا يتكامل مع باقى أعمال المؤسسات الأخرى التى تخدم المجتمع دون تعارض أو تناقض " [٢] .

---

[١] Eugene W. Kelly, Jr : Beyond Schooling : Education in a Broader Context, Pli Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1982, P. 6 .

[٢] J. A. Kider : School Public Relations : Communicating to the Community, Pli Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, 1982, P. 8 .

وقبل أن نختتم هذا الجزء الخاص بالتربية لعلنا نشير إلى الفكرة الذكية الى نادى بها حديثا كيفن ريان Kevin Ryan " حين قال بأن كلمة " التربية " تتراوح فى معناها ما بين تكييف الظروف للأفراد كى يأتوا باستجابات جديدة للمثيرات التى تحيط بهم .. إلى تقديم الناس إلى أفضل ما تتجه الحضارة وتقدمه " (١) .

ولعل فكرة هذا الكاتب كانت ستكون أبدع لو أنه قال بأن التربية لا تكتفى فقط بأن تقدم للإنسان منتجاب الحضارة ونتائجها ، وإنما يكون من وظائفها الأساسية أن تعمل على إعداد وتربية وتدريب أفراد يكون همهم ودأبهم بناء الحضارة ذاتها Civilization Builders ، والأمثلة فى ذلك لدينا رائعة وواضحة ومعبرة من الأفراد الذين رباهم نبينا الكريم محمد بن عبد الله -ﷺ- فى أول مدرسة فى الإسلام ، ونعنى بها " دار الأرقم بن أبى الأرقم "- رضى الله عنه - حين رباهم على أساس تعاليم الدين الإسلامى الحنيف ، فخرجوا من عبادة الأصنام والأوثان ، إلى عبادة الواحد القهار - جل شأنه - ومن حروبهم ضد بعضهم البعض ، إلى بناء أعظم حضارة بشرية مؤيدة من السماء ، وقد سادت تلك الحضارة الإسلامية الفتية ربوع المعمورة فى أسرع فترة عرفها تاريخ الحضارات العالمية ، وذلك كما يعترف به علماء الغرب أنفسهم ومؤرخوه.

---

(1) **Kevin Ryan : Questins & Answers On Moral Education, Pli Delta Kappa Educational Foundation, Bloomingtion, Insiana, 1981, P. 7.**

الفصل الرابع

التربيــة .. و المجتمـع

الفصل الرابع

التربية .. والمجتمع

إذا سلمنا بأن التربية لا تعمل فى فراغ ، كما أنها لا توجد فيه ، وإذا سلمنا أيضا بأن المجتمع لا يوجد ولا يستمر دون أن تكون لديه تربية مناسبة تؤهل أجياله الصاعدة وتعدها للحياة فى ضوء معتقدات هذا المجتمع وقيمه وأهدافه .. إذا سلمنا بذلك ، فإننا نسلم بالضرورة بأن هناك علاقة تبادلية قوية وديناميكية بين أى مجتمع من المجتمعات .. وبين التربية التى توجد فيه .

وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن لباحث من الباحثين فى مجال التربية ، أن يدرس تربية مجتمع من المجتمعات ، بعيدا عن حركة ذلك المجتمع ، وعن القوى الفاعلة والمؤثرة فيه ، سواء كانت تلك القوى دينية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية .. إلخ .

بل إن طبيعة ذلك المجتمع الجغرافية التى تكوّن موقعه .. على بحر أو محيط ، أو فى داخل إحدى القارات وكذا تضاريسه التى تشكل سطح الأرض به، سواء كانت جبلية وعرة ، أم سهلية مسطحة، ونوع المناخ السائد فيه ، سواء كان معتدلا لطيفا ممطراً ، أم كان حاراً جافا قاسيا ، ونوع الأعمال والحرف التى يقوم بها السكان كسباً لعيشهم ، سواءً كانت الزراعة البسيطة البدائية ، أو المتقدمة المصنّعة ، أو التجارة الواسعة بين القارات ، أو الصناعة الراقية ، أو تلك الحديثة المتقدمة والمعقدة .. كل ذلك ، بلا أدنى شك ، يؤثر فى طبيعة التربية التى توجد لدى هذا المجتمع ، وكذا فى أساليب تلك التربية .

والحديث عن جغرافية المجتمع يجرنا - بالمنطق - إلى تاريخ ذلك المجتمع الذى يشكل ماضيه بأحداثه وعلاقاته مع جيرانه ، وطبيعة تلك

العلاقات، وهل هى علاقات ود وتعاون وتنافس خير ، أم هى علاقات تطاحن وتناحر وحروب .. ؟ وبالتالى هل يعمل هذا المجتمع - أيا كان - على إعداد أجياله الصاعدة للتعاون مع أولئك الجيران والتفاهم فيما بينهم ، أم أنه يدربهم ويحثهم على التوسع فى أراضى الغير ، واغتصاب حقوق الجماعات التى حولهم .

ولدينا فى منطقتنا العربية مثال خطير .. حى وواقعى على هذا النوع العدوانى الأخير ، ونعنى به مجتمع العدو الإسرائيلى الذى زرع فى قلب المنطقة بهدف اغتصاب أراضيها وإذلال شعوبها ، والحيلولة دون تقدمها ، بحيث تصرف جزءا كبيرا من وقتها وجهدها وأموالها فى اتقاء شروره ، بدل أن تصرفها فى محاولات التقدم والبناء وتعويض ما فات .

يقول أحد الباحثين عن اهتمام العدو الاسرائيلى بالجانب التربوى : " حين وضع الصهاينة خطتهم لاغتصاب فلسطين ، منذ أواخر القرن الماضى ، لم يغفلوا الجانب التربوى فى إعداد " الصهيونى الملتزم " الذى تعتمد عليه إسرائيل قبل إعلانها وبعده ، فقد شكلت الحركة الصهيونية لجانا ومنظمات وهيئات هدفها بث دعوة " هرتزل " وأمثاله بين اليهود فى أوروبا ، كانت تأخذ شكل دروس فى العبرية ، وفى التلمود ، وفى الفكر السياسى الصهيونى ، كانت بوتقة التعليم بالنسبة لدعوتهم العمود الفقرى لنجاحهم فى استقطاب الآلاف من اليهود الذين كانوا يعيشون فى الغيتو روحا وجسدا [1] .

وليس هناك دلالة أكثر من دور المنهج فى إسرائل فى بث الدعاية الصهيونية ضد العرب ، مهما كان الموضوع المراد تدريسه للطلاب مما ورد

---

[1] سمير هونة : نظام التعليم العام فى الكيان الإسرائيلى ، التطور الكمى والنوعى فى التعليم العام حتى بداية الثمانينات ، المستقبل العربى ، العدد (٨٦) ، إبريل ١٩٨٦ ، ص ٦٣ .

فى كتاب علم الاجتماع القانونى حيث يقول سمير نعميم أحمد : " وأذكر أن رئيس وفد مصر فى الأمم المتحدة قد رد على رئيس الوفد الإسرائيلى عندما ذكر أن العرب يعدون أطفالهم للقضاء على إسرائيل (وكان ذلك بعد حرب ١٩٦٧م) بأن العرب يلقنون أطفالهم قيما تدعو إلى الحرية والسلام فى الوقت الذى يعلم الإسرائيليون أطفالهم الحساب عن طريق مسائل مثل : كان هناك ١٠٠ (مائة) عربى قتلنا منهم ٣٨ (ثمانية وثلاثين) فكم يكون الباقى الذى يلزمنا قتله ، أو كم يكون الباقى حتى ننتهى منهم جميعا [١] ؟؟!!

وعوداً إلى حديثنا عن المجتمع .. أى مجتمع .. لنقول بأنه تاريخ ذلك المجتمع مع الطبيعة ، وصراعه مع عواملها ، حتى هذا .. يشكل مصدراً أساسيا هاما من مصادر التربية فيه ، فلا شك أن المجتمعات التى كان حظها مع الطبيعة حظا عاثرا ، بسبب وجودها فى مناطق جبلية وعرة غير مستقرة الباطن ، لا شك أن هذه المجتمعات أدخلت فى تربيتها لأطفالها وشبابها كيفية اتقاء الثورانات البركانية ، والهزات الأرضية العنيفة أو الزلازل ، وكيفية التعامل معها حين تقع للخروج منها بأقل الخسائر . إن كل هذا يوضح - إلى حد بعيد - أن التربية لا يمكن ولا يجب أن تنفصل عنه ، أى عن مجتمعها ، ولا أن تنعزل عن الأحداث التى تقع فيه أو له ، كما يقول "مولنار Molnar" [٢] .

ولكى نتفهم العلاقة التى بين التربية ومجتمعها ، ينبغى علينا أن نتفهم طبيعة الأفراد الذين تنتجهم هذه التربية ، وكذا طبيعة الروابط التى تربطهم بمجتمعهم ، فالمجتمعات الواعية الناضجة التى أفلحت فى إخراج أنواع من

---

[١] سمير نعيم أحمد : علم الاجتماع القانونى ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢١ ، ١٩٨٢، ص ٧٠ .

[٢] **Thomas Molnar : The Future of Education, Fleet Publishing Corporation, N. Y., 1961. P. 45.**

التربيات جعلت أفرادها متماسكين متعاونين إيجابيين ، يقدم كل منهم لمجتمعه أقصى ما يستطيع ، ويؤدى ما عليه من واجبات ، قبل أن يسأل عما له من حقوق وامتيازات ، فهو مشارك إيجابى فى داخل كل نشاط ، وذلك كما يقول ديوى بعبارته : " يشعر أن كل نجاح لمجتمعه .. نجاح شخصى له هو ، كما أن كل فشل يصيب ذلك المجتمع يصيبه هو شخصيا .. أيضا " (١) .

والتربية .. بهذا المعنى الأخير تربط بين الأفراد ومجتمعهم برباط وثيق لا ينفصل بحيث يشعر كل منهم أنه جزء لا يتجزأ من هذا المجتمع الذى يحيا على أرضه وبين ناسه ، كما أنها تطبع هؤلاء الأفراد بطابع مجتمعهم ، وتعدهم للقيام بأدوارهم المحددة فى مؤسسات المجتمع المختلفة ، بحيث لا تتداخل تلك الأدوار مع أدوار غيرهم من الأفراد فى ذلك المجتمع ، وذلك كما يقول أولاندر Olander وزملاؤه (٢) .

والتربية التى تعد الأفراد للحياة داخل المجتمع بحيث يعرف كل منهم حدود أدواره التى عليه أن يعيها ، والذى يعرف فى نفس الوقت حدود أدوار الآخرين ، هى تربية محددة المعالم واضحة الحدود ، وهى فى نفس الوقت تربية واقعية لا تحلق فى الفضاء بحثا عن الأمل ، بينما أفراد مجتمعها يعيشون بعيدا عنها وعما تقدمه . إن التربية عندما تنفصل عن واقع النجتمع الذى تعمل له تحكم على نفسها بعدم الصلاحية ، بل تحكم على نفسها بأكثر من ذلك .. إنها تحكم على نفسها وعلى رسالتها بالموت (٣) .

---

(١) John Dewey, Op. Cit, P. 17 .

(٢) Joseph D. Olander & Others : School & Society Throuph Science Fiction, Rand Menally College Publishing Company, Chicago, 1974, P. 238 .

(٣) Taques Maritax : Education at the Grossroads, New Haven, Yale University Press, London, 1983, P. 14 .

وحول هذا المعنى السابق يقول " تشايلدز Childs " : إن التربية عندما تتعامل مع أفراد المجتمع على أنهم أفراد حقيقيون.. لهم مشكلاتهم، ولهم طموحاتهم، ولهم شخصياتهم المستقلة، ولا تتعامل معهم على أساس تصوري خيالي، فإنها -عند ذاك- تعمل في إطار من الواقع المحسوس أو الملموس الذي يحقق لهؤلاءالأفراد ما يبغونه، وهي بذلك تحقق للمجتمع التكامل الذي ينشده(١).

إن العلاقة الوثيقة بين المجتمع – أي مجتمع – وبين التربية الموجودة فيه علاقة تبادلية ، كما سبق القول ، حيث أن المجتمع يمد المؤسسات التربوية بكل ما تحتاج إليه من إمكانات مادية وبشرية ، كما أنه لا يبخل في الإنفاق عليها . هكذا المجتمعات الواعية – وهو في نفس الوقت الذي يفعل فيه ذلك ينتظر من هذه التربية أن تقوم برسالة معينة ، وأن تتحمل مسؤولياتها المحددة في إعداد أفراده وتوعيتهم وتدريبهم ، ويصبح – بعد ذلك – دعم المجتمع للمؤسسات التربوية فيه مرهونا بأدائها لوظائفها على الوجه الأكمل (٢) .

ومن جهة أخرى فإن العلاقة المتبادلة بين المجتمع والتربية هي علاقة السبب والنتيجة Cause & Effect ، إذ أن ملامح المجتمع تحدد وتبين ملامح مجتمعها من خلال المخرجات التربوية التي تنتجها .

إن التفاعل المتنامي Growing Interaction بين المجتمع والتربية القائمة فيه يمكن أن يصبح مصدرا خصبا لا ينضب للطاقة الخلاقة ، فالتربية تعطي المجتمع .. وهي في الوقت ذاته تأخذ منه ، والمجتمع يعطي التربية .. وهو أيضا يأخذ منها ، وكل هذه التفاعلات من الأخذ والعطاء بينهما تصبح فرصا كبيرة للتفاهم ولتعميق ذلك التفاهم بين الجانبين .

---

(١) **John L, Childs, Op. Cit., 163 .**

(٢) **James E. Fraiser : An Introduction to the Study of Education, Harber & Row Publishers, N. Y., Third Ed, 1965, P. 17 .**

ومن جانب آخر فإن التربية تلعب دورا حيويا خطيرا بالنسبة لنشر قيم المجتمع وعاداته وتقاليده ، خاصة فى المجتمعات التى تركز على جانب القيم وتعتبرها أساسا من أسس وجودها ، مثل مجتمعاتنا الإسلامية ، فى منطقتنا العربية وغيرها باتساع العالم الإسلامى .

كذلك فإن التربية تعتبر قوة ديناميكية مؤثرة تدفع المجتمع دوما إلى الأمام وتعمل على تغييره وتشكيل المؤسسات العاملة فيه ، كما أنها -فى الوقت ذاته- تعكس حركة القوى الاجتماعية الأخرى المؤثرة والعاملة فى المجتمع، وكل هذا يوضح - باختصار - أن التربية تؤثر فى المجتمع ، كما أنها تتأثر به بطبيعة الحال [١] .

وإذا كانت هذه هى العلاقة بين التربية وبين المجتمع الذى تعمل فيه ومن أجله فإنه ينبغى أن تكون هناك صلات قوية بين ذلك المجتمع ، بمؤسساته المختلفة ، وبين التربية ، بمؤسساتها المختلفة أيضا ، وكما تتمثل فى الأسرة والمسجد والمدرسة والجامعة ووسائل الاتصال الحديثة ، وأجهزة ووسائل الإعلام المختلفة ، والأندية الثقافية والرياضية ، والمكتبات العامة .. إلخ ، لأن هذه الصلات تقوى وتدعم دور التربية فى المجتمع ، كما أنها تنقل حاجات المجتمع المتجددة ، نتيجة للتغيرات فيه ، بحيث تقف عليها التربية وعلى عواملها ، وبحيث تعرف كيف تواجهها وتحللها ، وتعد الأجيال الصاعدة للتعامل معها ، وكل هذا يجعل الطريق ممهدا أمام التربية ، كما يجعلها فعالة قدر المستطاع ، وكى تحقق الهدف الذى من أجله أوجدها المجتمع وأنفق عليها [٢] .

---

[١] Joseph D. Olander & Others, Op. Cit., P. 186 .

[٢] Marle P. Sumption : School Commanity Relations. Anew Approach, Mcgrow Hill Book Company, N. Y., 1966, P. 105 .

الفصل الخامس

الأصل الدينى للتربيــة

الفصل الخامس

الأصل الدينى للتربية

ونبدأ به أولا لأنه - يقينا - أهم الأصول التى ينبغى أن نهتم بها حين نبنى أسس تربيتنا ، ويرجع ذلك - بطبيعة الحال - لكوننا مسلمين نستهدف تنشئة الأجيال الجديدة من أبنائنا وبناتنا على قيم الدين الإسلامى الحنيف .

وهناك خلاف أساسى - لا شك - بيننا وبين غيرنا من المجتمعات التى لا تدين بدين (مجتمعات الملحدين كما فى روسيا الشيوعية والتى كانت تنشئ أبناءها على محاربة الدين ، وعلى اعتبار أن الدين أفيون الشعوب .. كما كانوا يزعمون ، وباعتباره ضد التقدم فى خيالهم المريض ،وليس هذا فحسب وإنما هناك خلاف كذلك بيننا وبن بعض من يعيشون بيننا من المتحللين والعلمانيين والقوميين الذين يسوؤهم كثيرا أن نعطى هذه الأهمية للدين) .

وينبغى أن يكون واضحا ن ومنذ بداية الحديث عن الأصول التربوية ، أن هذه الأمة العربية لم يكن لها تاريخ يذكر إلا من يوم أن أنزلت الرسالة السماوية على خاتم الرسل والأنبياء محمد بن عبد الله - ﷺ - ويوم أن بدأ أول مدرسة فى الإسلام ، وهى " دار الأرقم بن أبى الأرقم " حيث أخذ يربى أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين - ويغيِّر من شخصياتهم ، بحيث هجروا كل ما كان يمت إلى الكفر والكفار والمشركين بصلة ، وبدأوا يتحلَّوْن بصفات الإسلام الرائعة ، فظهروا - منذ ذلك التاريخ - بشرا من نوع جديد كنتيجة منطقية .. بل وحتمية للتربية الجديدة التى جاء منهجها من عند الله - سبحانه وتعالى - والتى كان منفِّذها أسمى المعلمين وأعظمهم - ﷺ - .

ولقد كتب واحد من علماء المسلمين ، هو الشيخ " أبو الحسن الندوى " مؤلفا رائعا أعطاه عنوانا دالا هو " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " [١] . وقراءة هذا المؤلف تبين أن الكاتب العميق النظرة كان يرثى للعالم الحضارة الإسلامية التى أقامها رجال تخرجوا من مدرسة الإسلام التى أسسها محمد -ﷺ- هؤلاء الرجال هم الذين ضربوا للبشرية كلها نماذج تعز على الوصف، ويندر وجودها الآن بين البشر باتساع المعمورة .

ولنقرأ معا فى فصل من أهم فصول هذا الكتاب ، وقد عنونه " الندوى " بالعنوان التالى " كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية " ، وسببنا فى ذلك هو أن كلامه فى صميم التربية ، لأنه يتحدث عن التلاميذ الذين تحولوا – بالتربية الإسلامية – إلى علماء أفذاذ ، وقادة محنكين ، وساسة لا نظير لهم ، وإداريين وحكام من الدرجة الأولى ، وهذه هى مخرجات التربية الإسلامية التى لا تقدر عليها أية مدرسة ، ولا تصل إليها أية جامعة . يقول "الندوى " واصفا عمل المعلم الأسمى والأعظم -ﷺ- :

" لقدّ عمد الرسول -ﷺ- إلى الذخائر البشرية ، وهى أكداس من المواد الخام ، لا يعرف أحد غناءها ، ولا يعرف محلها ، وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض ، فأوجد فيها – بإذن الله – الإيمان والعقيدة ، وبعث فيها الروح الجديدة ، وأثار من دفائنها ، وأشعل مواهبها ، ثم وضع كل واحد منهم فى محله ، فكأنما خلق له ، وكأنما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظر ويتطلع إليه ، وكأنما كان جمادا فتحول جسما ناميا ، وإنسانا متصرفا ، وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملى على العالم إرادته ، وكأنما كان أعمى لا

---

[١] أبو الحسن على الحسنى الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار عمر بن الخطاب ، الاسكندرية ، الطبعة الرابعة ، (بدون تاريخ) .

يبصر ، فأصبح قائدا بصيرا يقود الأمم ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [١] .

وبعد أن يضرب المؤلف أمثلة لبعض النماذج الإسلامية الذين تحققت فيهم التربية الإسلامية ، من صحابة رسول الله - ﷺ - يصل إلى جماع الصورة كلها ، فيبين هؤلاء " الخريجين " من مدرسة الإسلام العظمى " ثم لم يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التى استهانت بقيمتها الأمم المعاصر ، وسخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث أن يرى منها كتلة بشرية لم يشاهد التاريخ البشرى أحسن منها اتزانا ، كأنها حلقة مفرغة ، لا يعرف طرفها ، أو كالمطر لا يدرى أوله خيرا أم آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحى الإنسانية ،كتلة هى فى غنى عن العالم ، وليس العالم فى غنى عنها ، وضعت مدنيتها ، وأسست حكومتها وليس لها عهد بها ، فلم تضطر أن نستعير رجلا من أمة ، أو تستعين فى إدارتها بحكومة ، أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين ، وملأت كل ثغو ، وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة.

تأسست الحكومة المتشعبة الأطراف فأنجدتها هذه الأمة الوليدة التى لم يمض عليها إلا بعض العقود - كلها جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح - برجل من الرجال الأكفاء فكان منها الأمير العادل ، والخازن الأمين ، والقاضى المقسط ، والقائد العابد ، والوالى المتورع ، والجندى التقى . وكانت بفضل التربية الدينية التى لا تزال مستمرة ، والدعوة الإسلامية التى لا تزال سائرة مادة لا تنقطع ، ومعينا لا ينضب ، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهداية على الجباية ، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية ، وهنا

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٠٨ .

ظهرت المدنية الإسلامية بمظهرها الصحيح ، وتجلت الحياة الدينية بخصائصها التى لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشرى .

لقد وضع محمد -ﷺ- مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب ، أصاب الجاهلية فى مقتلها وصميمها ، فأرغم العالم العنيد ، بعون الله ، على أن ينحو نحوا جديدا ، ويفتح عهدا سعيدا ، ذلك هو العهد الإسلامي الذى لا يزال غرة فى جبين التاريخ [١] .

ويضع العقاد – رحمه الله – يدنا على عظمة المعلم الأمثل حين يبين تفرده -ﷺ- فى معرفة أقدار أصحابه ، وفى وعيه بقدراتهم وإمكاناتهم ، وفى توظيفه لطاقاتهم ، بحيث فتح كل مغلق فى شخصياتهم ، فانهمرت منها مفاتيح الخير التى ما كان يعلمها إلا الله – سبحانه وتعالى – فكونوا من مسيلاتهم العديدة ، ذلك النهر الدافق الذى جرى فى هضاب وشعاب التاريخ صانعا حضارة إسلامية رائعة لم يعرف التاريخ لها مثيلا " [٢] .

وعن هؤلاء الصحابة الكرام – رضى الله عنهم أجمعينَ – خريجى مدرسة " التربية الإسلامية " بقيادة الرسول المعلم -ﷺ- يقول خالد محمدخالد " لقد جاءوا الحياة فى أوانهم المرتقب ، ويومهم الموعود .

فحين كانت الحياة تهيب بمن يجدد لقيمها الروحية شبابها وصوابها ، جاء هؤلاء مع رسولهم الكريم مبشرين ناسكين ..

وحين كانت تهيب بمن يضع عن البشرية الرازحة أغلالها ، ويحرر وجودها ومصيرها ، جاء هؤلاء وراء رسولهم العظيم ثوارا ومحررين ..

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١١٠ – ١١١ .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٦٩م .

وحين كانت تهيب بمن يستشرف للحضارة الإنسانية مطائع جديدة ورشيدة، جاء هؤلاء روادا ومستشرفين " [١] .

هذا هو إذن " الأصل الدينى " الإسلامى للتربية ، أى الدين وقواعده والقيم المبنية على أساسه وقد استمدت منه تربية الرسول محمد -ﷺ - كل موجهاتها فخرجت هذا الصنف من البشر ، صحابة رسول الله -ﷺ - الذين أقاموا الدولة الإسلامية الأولى ، ونشروا الحضارة الرائعة باتساع العالم الذى كان معروفا فى عصرهم ، وقد كانوا عناصر بشرية مؤمنة فاعلة فى كل مجال .

فى مجالات العلم والبحث والمعرفة ، فى الطب كما فى الهندسة ، فى الصيدلة كما فى الكيمياء ، فى الرياضيات كما فى الفلك ، فى العلم النظرى كما فى البحث والتجريب [٢] ، كما أنتجوا فى مجالات الحياة جميعها إنتاجا عمليا سد حاجة مجتمعهم ، بل حاجاته المتنامية والمتطورة ، بحيث صاروا صناعا مهرة متقنين ، كما أمرهم الإسلام " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"، فظهرت إبداعاتهم فى صناعات السلاح والحدادة والنجارة ، بل وفى التعدين والزراعة والتجارة [٣]حتى إن كثيرا من الشعوب التى حولهم استفادت من علومهم ومهاراتهم بعد أن طوروا أنفسهم وأنشأوا مدارسهم وجامعاتهم فى البلاد التى فتحوها أو البلاد التى دخلت فى الإسلام مثل بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وشمال إفريقيا والأندلس .

---

[١] خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ٨ .

[٢] محمد عبد العليم مرسى : ميسرات البحث العلمى عند المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ، ١٤٠٨ هـ .

[٣] عبد العزيز محمد العمرى : الحرف والصناعات فى الحجاز فى عصر الرسول -ﷺ - ١٤٠٥ هـ (بدون ناشر أو مكان للنشر) .

والآن ونحن نتحدث عن " الأصل الدينى " للتربية ماذا نريد من التربويين ان يفعلوا .. ؟ نريد منهم ببساطة شديدة – فى مجتمعنا العربى المسلم – أن يقيموا عمد التربية فى مدارسنا وجامعاتنا .. بل وكل مؤسساتنا التربوية على هذا الأساس الدينى المتين ، فالبداية تكون من هنا اعتبارا من اشتقاق أهدافنا التربوية ، لأن هذه الأهداف هى سوف التى تقود وتوجه العمليات التربوية والتعليمية كلها ، خاصة إذا آمنا بأن للأهداف التربوية وظائف فى غاية الأهمية يتخذها التربويون بوصلة حية توجه عملهم التربوى ، وتقود سفينة التربية والتعليم فى مجتمعهم ، ومن أخطر وظائفها أنها تحتوى على مجموعات القيم المتكاملة ، ذات العائد الاجتماعى المثمر. كما أنها توجه اهتمامات المتعلمين نحو النضج الاجتماعى والفردى ، كما تحيط العمل التربوى بكافة الضمانات التى تساعد على نجاحه ، كما يقول على خليل [١] .

بينما يؤكد " يالجن " على أن أهمية الأهداف فى التربية الإسلامية تعود إلى أنها إذا تحققت فإنها تنتج خير فرد أو هى تساعد على بناء خير فرد ، وخير مجتمع ن وخير حضارة إنسانية إذ العلاقة وثيقة الصلة بين هذه الجوانب فبناء خير فرد وسيلة لبناء خير مجتمع ، وبناء خير مجتمع أو أمة وسيلة لبناء خير حضارة إنسانية [٢] .

وبعد اشتقاق الأهداف التربوية من النبع الدينى الصافى نمر على التخطيط التربوى الذى يأخذ فى حسابه الإمكانات المتاحة أمام العمليات التربوية والتعليمية فيضع كلا منها فى مكانه الصحيح ، متبعا الأساليب العلمية السليمة

---

[١] على خليل مصطفى أبو العنين : أهداف التربية الإسلامية .. مصادرا اشتقاقها ومعايير صياغتها للمجتمع الإسلامى المعاصر ، مكتبة إبراهيم الحلبى ، المدينة المنورة ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م ، ص ١٤ .

[٢] مقداد يالجن : جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، مؤسسة دار الريحان للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م ، ص ٣٠ .

التى توصل إليها العلماء فى المجتمع الإسلامى ، بل وفى غيره من المجتمعات، حيث الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها .

ثم إن إعداد المعلم ، وبناء المناهج ، واختيار الوسائل ، ووضع الخطط الدراسية ، وتنظيم أوجه النشاط .. كل أولئك ينبغى أن يفكر فيها وعين المتخصصين على " الأصل الدينى للتربية" ، بحيث لا يتعارض أى شئ منها مع ذلك الأصل ، ولا يتصادم مع تراثنا الإسلامى الصحيح .

مميزات وخصائص الدين الإسلامى

وعند تقديم الإسلام للناشئة باعتباره الأساس الأول ، أو الأصل الأول للتربية ينبغى أن يكون واضحا فى ذهن من يخططون لذلك فى جميع مؤسساته التربوية – أن يقدموا لهم ، أى للناشئة وللشباب ، مميزات وخصائص ذلك الدين العظيم ، والتى يمكن أن نشير لبعضها فى الصفحات التالية :

أولا : الإسلام رسالة شاملة لكل الناس :

إن هذا الدين الإسلامى ، الذى هو خاتم الديانات ، وآخر الرسالات ، جاء لخير البشر أجمعين ، وذلك تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ ، وأنه – على هذا الأساس – لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، وإنما الكل سواسية كأسنان المشط ، فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، كما جاء فى الأثر ، وضرب الأمثلة فى هذا المجال من حياة رسول الله –ﷺ– واجبة ومفيدة ، سواء كان ذلك فى المقررات والكتب المدرسية ، على جميع المستويات ، أو فى الأمثلة التى يلقيها المعلمون والأساتذة فى المدارس ، أو كان فى التمثيليات ، والأفلام التى تذاع فى وسائل

الإعلام المختلفة ، أو التى يتطرق إليها الآباء والأمهات فى قصصهم لأطفالهم ، أو كانت – أخيرا – فى خطب ومواعظ علماء الدين والأئمة والخطباء فى المساجد .

ويكفى فى هذا المجال أن نذكر الصحابى الجليل " سلمان الفارسى " – رضى الله عنه – ذاك الذى قربه رسول الله -ﷺ- منه حتى قال فيه " سلمان منا آل البيت " ، وذلك بعد أن تنازعه الصحابة الكرام ، من الأنصار والمهاجرين " يوم الخندق " ، ذلك اليوم الذى اشتد فيه الكرب بالمسلمين ، وجاءت فكرة سلمان – رضى الله عنه – بحفر الخندق حول المدينة ، لتنقذ الموقف ، فوقف الأنصار والمهاجرون وكل منهم يريد شرف أن ينتسب سلمان إليهم ، فإذا بالمصطفى -ﷺ- يرفعُ قدره ويعلى منزلته بعبارته الرائعة التى ليس بعدها شرف " سلمان منا آل البيت " .

ولقد انتقل " أثر التربية " من المعلم الأسمى -ﷺ- إلى الصحابة الكرام، فصاروا يعطون سلمان ، ومن هم مثله ، حقهم ، ويحلونهم مكانتهم الرفيعة التى أحلهم الرسول -ﷺ- إياها ، فنجد عليا بن أبى طالب – كرم الله وجهه – يقول " عن سلمان إنه لقمان الحكيم ، وقد سئل عنه بعد موته فقال :

" ذاك امرؤ منا وإلينا أهل البيت .. من لكم يمثل لقمان الحكيم .. ؟ أوتى العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر ، وكان بحرا لا ينزف " [١] .

لقد قلنا إن " سلمان " – رضى الله عنه – مثال واحد فقط من أمثلة رائعة لهؤلاء النفر من الصحابة الكرام الذين أحاطوا بالرسول -ﷺ- ولم يكونوا

---

[١] خالد محمد خالد ، مرجع سابق ، ص ص ٥٢ – ٥٣ .

عربا ، ولكن الإسلام وسعهم ، والنبى العظيم -ﷺ- رباهم ، حتى صاروا دعاة هداة مهتدين ، دافعوا عن الإسلام ما استطاعوا ، وبذلوا فى سبيله كل ما امتلكوا حتى أرواحهم ، كما عملوا على نشره بين الناس فى كل مكان استطاعوا الوصول إليه ، ويكفى أن نتذكر قصص " صهيب الرومى " ، و" بلال بن رباح" ، و" سعد بن عبادة " [١] وغيرهم لنعرف عظمة الإسلام وروعته حين يزيل الحواجز بين الناس ، وحين يذيب النفوس والأرواح فى بوتقته الرائعة ، ويمزجهم فيها ، ويخرج منهم أشخاصا جددا لا يعرفون التعالى ولا الكبر فيما بينهم ، كما أنهم لا يعرفون الذلة أو الخنوع ، ثم إنهم قد محيت منهم عناصر الغل والحسد والتباغض ، وخرج منهم بشر رائعون ، فهم بنص القرآن العظيم ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ،ولم يكن عجبا بعد ذلك أن تحمل راية الإسلام وتتقدم بها شعوب أخرى ، بالإضافة إلى عرب شبه الجزيرة، وذلك كما حدث فى تركيا ، وفى وسط آسيا ، وكذا فى شمال إفريقيا .

وأكثر من ذلك أن نعلم ، وأن نعلم الأجيال الناشئة من أبنائنا أن خير الإسلام ، وعظمته وتسامحه قد انسحبت حتى على غير المسلمين الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى ، إنه : يقيم العلاقة بين أبنائه المسلمين ، وبين مواطنيهم من غير المسلمين على أسس وطيدة من التسامح ، والعدالة ، والبر ، والرحمة ، وهى أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام ، وقد عاشت قرونا بعد الإسلام ، وهى تقاسى الويل من فقدانها ، ولا تزال إلى اليوم تتطلع إلى تحقيقها فى المجتمعات الحديثة ، فلا تكاد تصل إليها فى مجتمع ما ، فى وقت ما ، إلا غلب عليها الهوى والعصبية ، وضيق الأفق والأنانية ، وجرتها إلى صراع دام مع المخالفين فى الدين أو المذهب أو الجنس أو اللون .

---

[١] يمكن لمن أراد التبحر فى هذا المجال أن يقرأ السلسلة التى كتبها عبد الرحمن عميرة ، بعنوان : " رجال أنزل الله فيهم قرآنا " ، وهى من سبعة أجزاء ، وقد أصدرها دار اللواء بالرياض .

وأساس هذه العلاقة مع غير المسلمين قوله تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ (الممتحنة ٨ – ٩) .

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعا ، ولو كانوا كفارا بدينه ، ما لم يقفوا فى وجهه ويحاربوا دعاته ، ويضطهدوا أهله ولأهل الكتاب من بين غير المسلمين منزلة خاصة فى المعاملة والتشريع ، والمراد بأهل الكتاب : من قام دينهم فى الأصل على كتاب سماوى ، وإن حرف وبدل بعد ، كاليهود والنصارى الذين قام دينهم على التوراة والإنجيل [١] .

هذا بالنسبة للتعامل مع غير المسلمين خارج حدود المجتمع الإسلامى ، أما الذين يعيشون منهم فى ديار الإسلام ، وفى حماية المسلمين فهم الذين يطلق عليهم " أهل الذمة " ، و " الذمة " كلمة معناها العهد والضمان والأمان ، وإنما سموا بذلك لأن لهم عهد الله وعهد رسوله ، وعهد جماعة المسلمين : أن يعيشوا فى حماية الإسلام ، وفى كنف المجتمع الإسلامى آمنين مطمئنين ، فهم فى أمان المسلمين وضمانهم ، بناء على " عقد الذمة " ، فهذه الذمة تعطى أهلها من " غير المسلمين " ما يشبه فى عصرنا " الجنسية " السياسية ، التى تعطيها الدولة لرعاياها ، فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين ، ويلتزمون بواجباتهم " [٢] .

---

[١] يوسف القرضاوى : غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م ، ص ص ٥ – ٦ .

[٢] المرجع السابق ، ص ٧ .

إن هذا الجانب الرائع من جوانب الإسلام يبين لنا الفرق بين التعصب الذى تتعامل شعوب غير إسلامية على أساسه مع المسلمين خارج بلادهم ، أى بلاد هذه الشعوب ، وكذا تعاملهم مع المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، حتى إن ادعو المدينة والتحضر ، ثم إن التركيز على هذا الجانب فى مؤسساتنا التربوية جميعها يخرج أجيالا من أبناء المسلمين يفهمون حدود تعاملهم مع غير المسلمين الذين يعيشون فى مجتمعاتهم ، أى مجتمعات المسلمين ، وكذا حدود تعاملهم مع غير المسلمين خارج بلاد المسلمين ، فلا يصطدمون بواقع غريب عليهم ، وإنما يصبحون مؤهلين لذلك التعامل على أساس من دستور دينهم ، أى القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانيا : الإسلام دين الاعتدال :

إنه دين الدنيا والآخرة ، حيث ربى الرسول -ﷺ- أصحابه على أن يعملوا لدنياهم ، كأنهم يعيشون أبدا ، وعلى أن يعملوا لآخرتهم كأنهم يموتون غدا ، وهذا جانب عظيم فى تربية الإنسان ، لأنه يجعل التوازن أساسا لحياة المسلم ، فلا هو يركن إلى الحياة الدنيا بكل أحاسيسه وجوارحه ، يغترف منها ومن خيراتها ومتاعها بلا حدود ، وكأنه ما خلق إلا للاستمتاع المادى ، لأنه إن فعل ذلك إنما يقترب من الحيوان فى بعض صفاته ، وصدق الله العظيم حيث يقول فى هذا الجانب ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (محمد / الآية ١٢) .

كما أنه – أى الإنسان المسلم – غير مطالب بأن ينسى الدنيا تماما ، وهو الذى استخلفه المولى – جل وعلا – فيها ، وأمره بإعمارها ، وبألا يعيش فى صومعة يتعبد فيها ويتبتل ، لا يفيد مجتمعا ، ولا يعمر أرضا ، ولا يسعى لخير بين الناس .

لقد خلق الله – سبحانه وتعالى – الأرض بما عليها ، وبما فيها ، وأنعم على الإنسان فيها بنعم لا تعد ولا تحصى ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ثم أمر الله – جل وعلا – الإنسان أن يستمتع بما وهبه إياه ، ولكن دون إسراف أو إفراط ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ (الأعراف : ٣١ – ٣٢) .

وقد نصت آيات أخرى صراحة على عدم تحريم الطيبات ، فقال الله – عز وجل – : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (المائدة / ٧٨) ، وقد قال رسول الله – ﷺ – " لا رهبانية في الإسلام " . إن المسلم الحق مطالب بأن يعيش الحياة فى اعتدال وتوسط ، بحيث لا تطغى أمور تلك الحياة على واجباته الدينية ، وبحيث لا تطغى تلك الأخيرة على طبيعة حياته البشرية ، قال تعالى : ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا وابتغي فيما أتاك الله الدار الآخرة وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ .

هو إذن دين الاعتدال ، فلا سرف ولا إسراف ، وهو بذلك يبنى الإنسان ويربيه على أن يكون إنسانا نافعا لنفسه ولذويه ، بل ولغيره فى المجتمع ، وفى الإنسانية ، ينفع الناس بعلمه وعمله ، بفكره ، بكده وتعبه وإنتاجه ، فيضيف للبشرية قدر جهده وقدر طاقته ، مستمتعا بإنتاج غيره ، كما يفيد ذلك الغير من إنتاجه .

وتاريخ الإسلام والمسلمين يقول بأن الرعيل الأول من السلف الصالح لما نفذوا ذلك بنوا أعظم حضارة عرفها الإنسان فى تاريخ البشرية كلها ، ففى أقل

من مائة عام من إقامة الحكومة الإسلامية فى المدينة المنورة شهدت بلدان كثيرة مولد تلك الحضارة الإسلامية ، بل شهدت بزوغ فجرها الرائع الذى مثله المسلمون بعلمهم وعملهم ، بكدهم وإنتاجهم ، بتوسطهم واعتدالهم ، وبدعوتهم الرائعة إلى الإسلام ، وبإقبالهم على الحياة ينتجون فيها ويضيفون إلى رصيدها، فى الوقت الذى لم يبخلوا بحياتهم ذاتها كلما دعا داعى الجهاد فى سبيل الله .

ونختتم هذا الجانب بعبارات طيبة لواحد من علماء الإسلام المعاصرين الغيورين على أمتهم الإسلامية حين يتحدث عن ديننا العظيم ، وقرآن ربنا الشامل الذى قال الله فيه ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ، ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ . إن العمل الصالح واسع الدائرة إلى حد يشمل كل شئ فى الحياة تباشره باسم الله ، فالمفكر بعلمه ،والطبيب بسماعته ، والمدير أمام ملفاته ، والمهندس أمام أجهزته ، والزارع المنحنى على أرضه يستثمرها ، والصانع العاكف على آلاته يحركها ، أولئك جميعا فى صلاة مادامت قلوبهم مع الله ، وجهدهم لأمة ترقب إنتاجهم وتنجح بنجاحهم " [١] .

ثالثا : الإسلام دين التفكير :

فكل من قرأ الأديان السابقة على الإسلام لا يجد أن هذا الجانب يحتل مساحة تذكر فى كتبها، بينما هو فى الإسلام يحتل مساحة ، بل مساحات هائلة فى كثير من آيات القرآن الكريم، كما أنه تردد كثيرا فى أحاديث الرسول-ﷺ- ولقد دعا هذا الوضع واحداً من مفكرينا الإسلاميين، هوعباس محمود العقاد لأن يخرج كتابا كاملا أعطاه عنوانا دالا هو " التفكير فريضة إسلامية " [٢] ، ولا

---

[١] محمد الغزالى: سر تأخر العرب والمسلمين، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ص ١٢٣.

[٢] عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ،،بدون تاريخ.

يرقى أمر من الأمور فى حياة المسلمين لأن يكون فى منزلة " الفريضة " إلا أن يكون أمرا خطيرا وذا بال فى حياة الأمة الإسلامية ، و" التفكير" هكذا بالفعل .

وقد ركز العقاد – رحمه الله – فى كتابه على الآيات القرآنية التى وردت فى كتاب الله المجيد ، والخاصة بطلب الله سبحانه وتعالى من المسلمين أن يفكروا ، وأن يعملوا عقولهم التى وهبهم إياها ، فى أنفسهم ، وفى البيئة المحيطة بهم ، بل وفى الكون كله بامتداد الأرض ، وبشمول السماء ، بكل ما حوته الأرض من إنسان وحيوان وطير وجماد ، بل وبكل ورقة شجر وقطرة ماء ونبته صغيرة ، بالأنهار والبحار وبالجبال والوديان ، وبالنجوم فى السماء ، وبدوران تلك النجوم فى أفلاكها .. إلخ .

يقول العقاد " من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع فى تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التى قد تختلف فيها الآراء .. وتلك المزية هى التنويه بالعقل ، والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف .

ففى كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز ، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه ، لأنه مزلة العقائد ، وباب من أبواب الدعوى والإنكار " [١] .

ثم ينتقل الكاتب ليبين لنا الفارق بين الأديان السابقة وبين الإسلام فى قضية التفكير الهامة هذه ، وذلك من خلال كتاب الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل

---

[١] المرجع السابق ، ص ٣ .

من بين يديه ولا من خلفه ، يقول : " ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا متقضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة ، وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه " [١] .

ويفصل الكاتب المتعمق ، والباحث المدقق العقل في خصائصه التى أودعها الله فيه ، حيث نجد من خصائص ذلك العقل الذى ميز الله به الإنسان ما يلى :

- ملكة " الإدراك " التى يناط بها الفهم والتصور .

- " التأمل " فيما يدركه - العقل - ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه .

- " الرشد " وهو مقابل لتمام التكوين فى العاقل الرشيد ، ووظيفة المرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم [٢] .

ثم يجمل العقاد حديثه عن التفكير فى دنينا الإسلامى ، فيقول " وفريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنسانى بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها ، فهو يخاطب العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ، والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا ، بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان " [٣] .

---

[١] المرجع السابق .

[٢] المرجع السابق ، ص ٤ .

[٣] المرجع السابق ، ص ٥ .

هذا وإن إيراد بعض الآيات القرآنية التى تتحدث عن ضـــرورة التفكــير واستخدام العقل لمما يفيد ، يقول الله — تبارك وتعالى — :

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (البقرة / ١٦٤) .

ويقول الله — تعالى — :

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ (سورة البقرة / ٢١٩) .

ويقول — جل شأنه — :

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ (آل عمران / ١٩١) .

ويقول — سبحانه — :

﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ (النحل / ١١) .

ويقول — جلت قدرته — :

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ (السجدة / ٢٧) .

ويبين لنا – سبحانه – :

﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ (الحشر / ٢) .

ونقرأ فى الكتاب الكريم :

﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (البقـــرة / ١٥١) .

ونقرأ :

﴿ هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ (سورة الأنعام / ٩٧) .

ونقرأ لنتعلم :

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (يونس / ٥) .

كما نقرأ :

﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ،والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (آل عمران / ٧) .

هذه هى إذن بعض آيات القرآن الكريم والتى تخاطب العقل الإنسانى كـى يتفكر أصحابه ، وكى يفقهوا ، وكى يعقلوا ، وكى يبصروا ، وكى يتدبـــروا ، وكى يسمعوا ، وكى يعوا .. إلخ ،وهى حينما تطلب من المسلمين أن يفعلوا ذلك إنما تطلب منهم أن يكونوا على المستوى اللائق والمطلوب مـــن مجتمـــع أمـــة

صاحبة رسالة ، هى خاتم الرسالات ، حتى يكونوا جديرين بحمل هذه الرسالة ونشرها بين الناس ، ولا تستطيع أمة أن تفعل ذلك وهى جاهلة لا تفكر ، أو قصيرة النظر لا تبصر ، أو قليلة الإدراك لا تعى .

وواجب التربية – بكل مؤسساتها – فى الأمة أن تنشر هذا الفكر ، وأن تشحذه فى قطاعات المجتمع المختلفة ، وخاصة قطاعات الأطفال والشباب حتى يشبوا وهم قادرون على السير على طريق أسلافهم العظام الذين بنوا الحضارة الإسلامية التى عمت أرجاء العالم المعروف وقت ظهورها وانتشارها .

إننا نحن التربيين نشكو مر الشكوى من الأساليب المتبعة فى مدارسنا ، أساليب التدريس التى لا تدعو ولا تدرب إلا على الحفظ والاستظهار ، والتى نادراً ما تدرب الناشئة على التفكير أو على طرق حل المشكلات التى تعترضهم، ولو طبقنا بعض هذه الآيات لتمكنا من تخريج أجيال من الشباب تختلف تماما عن الأجيال التى نخرجها حاليا ، والتى لا تهتم إلا بالحفظ والاستظهار ، ووضع المعلومات فى أوراق الإجابات فى الامتحانات ، ثم يزول أثرها – للأسف الشديد – بانقضاء تلك الامتحانات .

ونفس هذا الكلام يقال على كل مؤسساتنا التربوية التى نادرا ما تشحذ عقل الإنسان المشاهد أو القارئ ، ونادراً ما تستثير فكره ، بحيث يشارك فيما يجرى فى مجتمعه بالرأى ، ومن هنا وصف كثيرون فى مجتمعاتنا بالسلبية وعدم الإيجابية وقلة الفاعلية .

ويؤكد على هذا الكلام واحد من علماء التربية ، أى غياب " التفكير المنهجى النقدى العقلانى " ، والذى يقول بالنص " ومن الملاحظ فى نظمنا

التعليمية غياب مثل هذا الهدف والذى بدونه تصبح العملية التعليمية اجتراراً للماضى ، وتصبح مخرجات مثل هذا النظام التعليمى قليلة بقيود الماضى ، وليس لديها القدرة على التكيف مع مستجدات الحياة المعاصرة والمستقبل " [١] .

رابعا : الإسلام دين العلم :

يقارن أحد علماء المسلمين المعاصرين بين " العلم " فى الدين الإسلامى ، وفى غيره من الأديان السابقة عليه فيقول " لم تعرف البشرية دينا مثل الإسلام عنى بالعلم أبلغ العناية وأتمها : دعوة إليه ، وترغيبا فيه ، وتعظيما لقدره ، وتنويها بأهله ، وحثا على طلبه وتعلمه وتعليمه ، بيانا لآدابه ، وتوضيحا لآثاره، وترهيبا من القعود عنه ، أو الإزدراء عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله .

ومن درس الأديان السابقة على الإسلام ، أو قرأ كتبها المقدسة ، ازداد إيمانا بعظمة الإسلام فى هذا الجانب . إنك تقرأ (الأسفار المقدسة) فى العهد القديم أو الجديد ، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات (العقل) أو (الفكر) أو (النظر) أو (البرهان) أو (العلم) أو ما اشتق منها ، أو تفرع عنها ، أو كان له قرابة بها .

فإذا قرأت القرآن وجدت فيه — كما يذكر (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) ما يلى : كلمة (علم) نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) مرة ، أما مشتقاتها : علم ويعلم ويعلمون وعلم وعليه وعلام .. إلخ فقد ذكرت مئات ومئات من المرات .

---

[١] ستيفن د. بروكفيلد : تنمية التفكير النقدى ، ترجمة سمر عبد اللطيف هوانة ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة .

كلمة (عقل) لم ترد اسماً أو مصدراً فى القرآن وورد بديلا عنها كلمة (الألباب) وتكررت (١٦) ست عشرة مرة ، وكلمة (النهى) بمعنى العقول أيضا مرتين .

أما مشتقات (عقل) فقد تكررت فى القرآن (٤٩) تسعا وأربعين مرة ، ومشتقات (فكر) (١٨) ثمانى عشرة مرة ، ومشتقات (ففه) تكررت (٢١) إحدى وعشرين مرة ، وكلمة (حكمة) ذكرت (٢٠) عشرين مرة ، وكلمة (برهان) مضافة وغير مضافة ذكرت (٧) سبع مرات .

هذا عدا كلمات أخر لها صلة بالحلم والفكر مثل (انظروا) و (ينظرون) ونحوها ، وإذا طالعت كتب الحديث النبوى ، وجدت فى جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب – أو بتعبير ذلك العصر – كتابا حافلا موضوعه العلم .

ففى الجامع الصحيح (للإمام محمد بن إسماعيل البخارى) نجد – بعد أحاديث بدء الوحى ، وكتاب الإيمان – كتاب العلم ، وقد اشتمل كما يقول الحافظ بن حجر فى (الفتح) من الأحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين، منها ستة عشر حديثا مكررا ، وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم أثنان وعشرون أثرا .

وفى صحيح مسلم وباقى الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذى ، وأبى داود والنسائى وابن ماجة) كتب أو أبواب للعلم ، تقصر أو تطول ، وحسبنا أن نذكر عنها أن كتابا مثل (الفتح الربانى) فى ترتيب مسند الإمام أحمد قد ضم فى كتاب العلم (٨١) واحدا وثمانين حديثا ، وأن كتاب (العلم) فى (مجمع الزوائد) للحافظ نور الدين الهيثمى قد بلغ (٨٤) صفحة ، فى كل صفحة عدد من

الأحاديث ، وفى (المستدرك) للحاكم النيسابورى بلغت أحاديث العلم (٤٤) صفحة ، وأن كتاب (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذرى جمع فى كتاب العلم (١٤٠) حديثا ، وأن كتاب العلم من (جمع الفوائد من جمع الأصول ومجمع الزوائد) للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم (١٥٤) حديثا .

ولا يخفى أن قدرا كبيرا من الأحاديث فى كل كتاب من هذه مكرر مع أحاديث الكتب الأخرى -، ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث فى هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بالعلم ، ولكنها وضعت فى مظان أخرى من أبواب الكتاب ، حيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة ، ويستفاد منه فى أكثر من حكم " [1] .

إن الإسلام جاء منذ آياته الأولى ليعلن ميلاد عصر (العلم) والإيمان عن طريق (العلم) ، كما تدل الآيات الكريمة : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (القلم / ١ - ٣) .

ونقلا عن عماد الدين خليل فى كتابه (تهافت العلمانية) نقرأ : لقد حشد القرآن ما يقرب من خمسين آية فى تحريك العقل البشرى وانتشاله من وهدة التقاليد والتبلد ، كما حشد عشرات الآيات فى إيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس ، وعشرات أخرى فى إيقاظ التفكير والتفقه ، فضلا عن آيات طلب البرهان والحجة والجدال بالتى هى أحسن . بل إن القرآن أضاف حقيقة فى غاية الأهمية هى أنه أطلق كلمة العلم على الدين ، كأنما يمزج بينهما فى مرحلة العصر القرآنى مزجا لا فكاك منه ، ومن ثم يغدو العلم والدين سواء فى لغة

---

[1] يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،

القرآن ، يقول القرآن الكريم مخاطبا النبى -ﷺ- ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك لمن الظالمين ﴾ ويقصد بالعلم الدين ، ويقول : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ﴾ .. ويقول الله – جل وعلا – عن القرآن نفسه : ﴿ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة ﴾ [١] .

ويؤكد العقاد على أن نهضة المسلمين ، من عرب وغيرهم ، إنما هى راجعة إلى الدين الإسلامى إذ يقول " فالفرس ليسوا من السلالة السامية أو العربية ، ولكنهم لم ينجبوا الفلاسفة والعلماء وكبار الشعراء قبل امتزاجهم بالدعوة الروحية – الإسلام – تلك التى انبثقت من قلب الجزيرة العربية " [٢] .

أما السايح فيقول إن الإسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمى والعقلى فحسب ، بل إنه جعل متابعة البحوث وطلبها واجبا دينيا يؤجر عليه الإنسان المسلم . وكلمة العلم فى القاموس الإسلامى كلمة مطلقة لم تخصص بمادة معينة من مواد العلم ، ويرشد هذا فى مضمونه إلى أن العلم – فى نظر الإسلام – ليس خاصا بعلوم الفقه والأصول والأحكام ، وإنما يشمل كل إدراك يفيد الإنسان فى القيام بمهمته فى الحياة ، فإدراك الصناعة وآلاتها ، وما يصلح به النبات ، وما يستنبت به الأرض ، وإدراك ما يصلح الحيوان ويزيد فى الثروة الحيوانية ، ومعرفة المواد الزراعية والحيوانية والصناعية ، واكتشاف الثروات المعدنية ، والتوصل للأمراض وعللها ، وكيفية الوقاية منها وعلاجها ن وإدراك وسائل

---

[١] عبد الحليم عويس : لا نزاع بين الدين والعلم فى المنهج والموضوع ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، ص ص ١٦ - ١٨ .

[٢] عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٦م ، ص ٣ .

القوة والدفاع .. كل ذلك علم ، ولقد جاء الإيمان بهذا كله واضحا في القرآن الكريم " [١] .

ويتحدث فتحى عثمان عن القرآن الكريم باعتبار أنه كتاب يحمل الإنسان مسؤولياته العقلية في التفكير وطلب المعرفة ، واستيعاب ثمراتها ، وكل ذلك بطبيعة الحال يؤدى للعمل ، وتراكم المعرفة ، كما أن الإسلام يطلب من المسلمين الاحتكام – دوما – إلى الحجة والبرهان ، كما يأمرهم بالجوار المنهجي مع الآخرين ، ومما لا شك فيه أن الحجة والبرهان والمنهج كلها من مقومات العلم بأجلى معانيه [٢] .

هذا وإن سنة الرسول -ﷺ- قد اهتمت بالعلم والعلماء أيما اهتمام ، ويكفينا في هذا المجال أن نقرأ حديث الرسول -ﷺ- (طلب العلم فريضة على كل مسلم) وهو يشمل الذكور والإناث ، وقد جعل صلوات الله عليه وسلامه ، فداء الأسير من المشركين يوم بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، وهما – كما نعلم جميعا – الأساس الذى لا غنى عنه لتحصيل العلم وطلبه بعد ذلك.

وفى تفسير القرضاوى لحديث الرسول -ﷺ- (طلب العلم فريضة على كل مسلم) يقول بأن الأقوال قد تباينت وتناقضت في هذا العلم المفروض على نحو عشرين قولا ، ثم من بعد أن يعدد آراء العلماء والفقهاء فى هذا المجال ،

---

[١] أحمد عبد الرحيم السايح : أضواء على الحضارة ، دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م ، ص ص ٣٠ – ٣١ .

[٢] محمد فتحي عثمان : القيم الحضارية فى رسالة الإسلام ، ضمن بحوث اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامى (الاسلام والحضارة ودور الشباب المسلم) ، الرياض ، ربيع الثانى ١٣٩٩هـ ، ص ص ١١٠– ١١١ .

ينتهى إلى أن الذى يراه واجبا .. طلبا .. وتعلما .. هو ما لابد منه فى دينه أو دنياه ، أما فى دينه فلابد من أن يتعلم من علوم الشرع :

١ – ما يعرف به عقيدته معرفة يقينية ، سالمة من الشركيات والخرافات .

٢ – ما يصحح به عبادته لربه ظاهرا ، بأن تكون على الصورة المشروعة ، وباطنا بأن تتوافر فيها النية الخالصة لله تعالى .

٣ – ما يزكى به نفسه ، ويطهر به قلبه ، بأن يعرف الفضائل (المنجيات) ليتحراها ، ويتخلق بها ، ويعرف الرذائل (المهلكات) ليتجنبها ويتوقاها .

٤ – ما يضبط به سلوكه فى علاقته مع نفسه ، أو مع أسرته ، أو مع الناس ، حكاما ومحكومين ، مسلمين وغير مسلمين ، فيعرف فى ذلك الحلال والحرام ، والواجب من غير الواجب ، واللائق من غير اللائق .

وهذا القدر ، كما يقول القرضاوى ، وهو يهمنا جدا فى دراستنا لأصول التربية ، يجب أن يكون إلزاميا ، يتعلمه كل مسلم ومسلمة بالقراءة فى المدارس والمعاهد ، وبالسماع فى المساجد ، وفى وسائل الإعلام المختلفة . وعلى كل دولة تنتسب إل الإسلام أن توفر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة ، وأن تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها بما يجب عليهم ، ويجب على الآباء والأولياء أن يعلموه أبناءهم ، ومن يلون عليهم ، أو أن يبعثوا بهم إلى المدارس والمساجد وغيرها يتلقون فيها العلم الواجب ، ولا يجوز لولى أن يدع موليه فى ظلام الجهل بدينه ، دون أن يعلمه ، أو يهيئ له من يعلمه ، فضلا عن أن يمنعه من التعلم إذا أراد .

وهناك من العلوم ما يعد طلبه فرض كفاية على الجماعة ، بحيث إذا قام به واحد ، أو عدد كاف ، سقط الحرج عن باقى الجماعة ، وإلا أثمت الجماعة

عامة، وأولو الأمر فيها خاصة .. ويخلص الشيخ القرضاوى إلـــى أن فــرض الكفاية هو كل ما تحتاج إليه الجماعة المسلمة فى دينها ودنياها ، من التبحر فـى علوم الشرع ، أو التخصص فى علوم الكون : من طب ، وهندسة ، ورياضـــة، وفلك ، وكيمياء ، وطبيعة ، وأحياء ، وجيولوجيا .. أو غيرها من كل ما تتطلبه حياة الناس فى هذا العصر .. مدنيا أو عسكريا .

وليس هذا فحسب ، وإنما كل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم ، ليحقـق لهم التفوق على غيرهم ، ولتكون لهم القوة على عدوهم ، فهو فرض عليهم على الكفاية ، والتفريط فيه يصيب الأمة كلها بالحرج والإثم ، وقـد يتعيـن فـرض الكفاية فى حق الناس إذا دعاه إليه من له الأمر [١] . ولا عذر عنده ، أو كـــان عنده من الأهلية ما ليس عند غيره ، وعلم ذلك من نفسه ولم يحل دونه حائل .

والأصل في كل ذلك : أن كل ما يؤدي إلي ضعف الأمة يجب دفعه قبـــل وقوعه ، ورفعه إن وقع ، وأن كل ما يؤدى إلـى قـوة الأمـــة واسـتقرارها ، وحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية ، يجب تحصيله عليها بالتضـــامن ، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب [٢] .

ولشدة فهم المسلمين الأولين لتعاليم دينهم ، ولتعمقهم فـــى ســيرة النبــى الكريم -ﷺ- وعوا تماما رسالتهم على هذه الأرض التى استخلفوا فيها ، ومن هنا عرفوا قيمة " العلم " فى حياة الفرد والأمة ، حتى قال الصحابى الجليل معاذ بن جبل – رضى الله عنه – تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبـــادة ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقـــه ، وبذلـــه لأهله قربه ، وهو الأنيس فى الوحدة ،والصاحب في الخلـوة ، والدليـل علـــى

---

[١] يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مرجع سابق ، صص ٨٧ – ٨٨ .

[٢] المرجع السابق ، ص ص ٩١ – ٩٢ .

الدين، والنصير على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيله الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتفى آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خلقهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس يستغفر لهم ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها .. إلى أن قال : به يطاع الله ، وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعة ، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء " [1] .

ولهذا الفهم العميق من السلف الصالح لقضية العلم فى حياة الأمة اندفعوا فى مجالاته المختلفة ، ينهلون من مظانها ، ويطلبون مصادره ، ويعكفون عليها، دراسة وبحثا ، وكتابة وتأليفا ، حتى أبدعوا فى كل مجال عرفته البشرية فى عصرهم ، وحتى شهد لهم أعداؤهم أنفسهم ، وقد بلغ حماسهم للعلم وطلبه والتبحر فيه أن شارك فيه ملوكهم وأمراؤهم والنابغون من العلماء من أبناء الأمة الإسلامية ، وقد يسروا لطلاب العلم كل سبيل ، حتى نبغوا فيه كما لم يحدث من قبل ، وحتى تفوقوا فيه على من عداهم من الأمم والشعوب .

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١٠ – ١١ .

الفصل السادس

القيم فى الإسلام

الفصل السادس

القيم فى الإســـلام [*]

إن القيم لمن أهم الأمور فى حياة الأمم والشعوب ، ذلك أن مجموعـــات القيم التى يؤمن بها مجتمع ما هى ما يحاول أن يربى ناشئته وصغـــاره علـــى أساس منها ، كما أنه يحاول أن يجعلهم يتشربونها ويتمثلونها ، وذلـــك حتـــى تصبح ضمن نسيج شخصياتهم منذ نعومة أظفارهم ، ومن هنا فإنه يضمن أنـهم سوف يعملون بها على أساس من هديها حين يشـــبون عـــن الطـــوق ، وهـــم بدورهم، وبعد أن تختلط تلك القيم ، وتمتزج بشخصياتهم ، يحرصـــون علـــى توريثها للأجيال الجديدة الصاعدة ، تلك التى تأتى من بعدهم .

والقيم تعتبر " صورة المجتمع لأنها الضابط والمعيار الأساسى للســـلوك الفردى والجماعى ، وهى تنتظم فيما يسمى بالبناء القيمى الذى يعكس أهـــداف المجتمع من التربية ، إذ لا سبيل إلى تحديد الأهداف التربوية لتكون معبرة عن طبيعة الإنسان ،وطبيعة المجتمع إلا عن طريق القيم ، أو على الأقـــل تمثـــل المساحة الأعظم فى مجال تحديد الأهداف [١] .

هذا ويبين رائد من رواد علم النفس ، فى عالمنا العربى ، معنى القيمـــة ووظائفها فى حياة الأفراد ، فهى عنده : معايير اجتماعية ذات صبغة انفعاليـــة قوية وعامة وهى تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التى تقدمها الجماعـــة ، والفرد يمتصها من بيئته الاجتماعية الخارجية ، ويقيم لنفسه منها موازين يـبرر

---

[*] وهذا الجانب فى صميم الأصل الدينى للتربية ، ولكن طوله جعلنا نفرد له فصلا خاصا به ولذا لزم التنويه.

[١] على خليل مصطفى أبو العنين : القيم الإسلامية والتربية ، دراسة لطبيعة القيم ومصادرها ودور التربيـــة الإسلامية فى تكوينها وتنميتها ، مكتبة إبراهيم حلبى ، المدينة المنورة ، ١٤٠٨هـ، ص ص ٧ – ٨ .

بها أفعاله ، ثم إنه يتخذها هاديا له ومرشدا . وهذه القيم تنتشر فى حياة الأفراد بحيث تحدد لكل منهم خلانه وأصحابه ، وكذا أعداءه [1] .

هذا وللقيم وظائف هامة تنعكس على سلوك الفرد والجماعة ، قولا وعملا، ويمكننا تناول وظائف القيم عل المستوى الفردى ، والمستوى الاجتماى، ولعل شيئا من التفصيل يكون مفيدا فى الجانبين ، فعلى مستوى الأفراد تتمثل وظائف القيم فيما يلى :

١ - أنها تهيئ للأفراد خيارات معينة تحدد السلوك الصادر منهم ، وبمعنى آخر أنها تحدد شكل الاستجابات ، وبالتالى تلعب دورا هاما فى تشكيل الشخصية الفردية ، وفى تحديد أهدافها ضمن إطار معيارى صحيح .

٢ - أنها تعطى الفرد إمكانية أداء ما هو مطلوب منه ، كما أنها تمنحه القدرة عل التكيف والتوافق الإيجابيين ، وتحقيق الرضا عن نفسه ،وذلك لتجاوبه مع الجماعة فى مبادئها وعقائدها الصحيحة .

٣ - أنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان ، فهو يستعين بها على مواجهة ضعف نفسه ، وعلى مواجهة التحديات التى تواجهه فى حياته .

٤ - أنها تعطى الفرد فرصة للتعبير عن نفسه ، مؤكدا ذاته ، عن فهم عميق لها، وكذا الإمكانيات التى يمتلكها ويتحكم فيها ، ويستطيع استخدامها .

٥ - أنها تدفع الفرد لتحسين إدراكه ومعتقداته ، لتتضح الرؤيا أمامه ، وبالتالى تساعده على فهم العالم من حوله ، ومن ثم تعمل على توسيع إطاره المرجعى فى فهم حياته وعلاقاته .

---

[1] فؤاد البهي السيد : علم النفس التربوى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ١١ .

٦ - أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسيا وخلقيا ، وتوجهه ناحية الخير والإحسان وأداء الواجب .

٧ - أنها تعمل على ضبط الفرد لشهواته ومطامعه ، كى لا تتغلب على عقله ووجدانه ، لأنها تربط سلوكه وتصرفاته بمعايير وأحكام واضحة .

أما على مستوى الجماعة فتتمثل وظائف القيم فيما يلى :

١ - أنها تحفظ للجماعة روحها وتماسكها داخل أهدافها التى ارتضتها لنفسها ، كما أنها تساعد المجتمع ، بأفراده وجماعاته المختلفة على التمسك بمبادئه الثابتة والمستقرة التى تحفظ له هذا التماسك والثبات اللازمين لممارسة حياة اجتماعية سليمة ثابتة ومستقرة .

٢ - أنها تساعد المجتمع على مواجهة التغيرات التى تحدث فيه بتحديدها الاختيارات الصحيحة التى تسهل على الناس حياتهم ، والتى تحفظ للمجتمع استقراره ، وتصون له كيانه فى إطار موحد .

٣ - أنها تربط أجزاء ثقافة المجتمع ببعضها حتى تبدو متماسكة متناسقة ، كما أنها تعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساساً عقليا يصبح عقيدة فى ذهن أعضاء المجتمع المنتمين إلى هذه الثقافة .

٤ - أنها تقى المجتمع من الأنانية المفرطة ، ومن النزعات والشهوات الطائشة، حيث أنها تحمل الأفراد على التفكير فى أعمالهم على أنها محاولات للوصول إلى أهداف هى غايات فى حد ذاتها ، بدلا من النظر إليها على أنها مجرد أعمال لإشباع الرغبات والشهوات ، ولذلك فإن القيم والمثل العليا فى أى جماعة هى الهدف الذى يسعى جميع أعضائها للوصول إليه .

٥ - أنها تزود المجتمع بالصيغة التى يتعامل بها مع العالم ، وتحدد له أهداف ومبررات وجوده ، وبالتالى يسلك فى ضوئها .

هذا وتتكامل الوظائف الفردية للقيم مع الوظائف الاجتماعية لها ، بحيث تعطى - فى النهاية - نمطا من الشخصيات الإنسانية القادرة على التكيف الإيجابى مع ظروف الحياة ، لأداء دورها الحضارى المنشود والمطلوب منها ، كما تعطى المجتمع شكله المميز ، ومن أجل هذا يحرص المجتمع على تنشئة أفراده وهم متشبعون ومتشربون لثقافته وقيمه ، فالمجتمع - بإطاره الثقافى - هو الذى يزود الأفراد بنظراتهم للأشياء وللأمور ، وكذا بطريقة التعامل معها ، ثم بالحكم عليها [١] .

هذا وإن الدين الإسلامى ليحتوى على عشرات وعشرات كثيرة جدا من القيم الرائعة التى ربى الرسول الكريم محمد -ﷺ- صحابته على أساسها ، بحيث صاروا يسلكون ، فى حياتهم العامة والخاصة ، على أساسها وبحيث صارت تحكم أعمالهم وسلوكياتهم فيما بينهم كأفراد يتعاملون سويا داخل مجتمعهم ، مجتمع المسلمين الجديد ، بل وفى تعاملهم مع غيرهم خارج مجتمعهم ، لدرجة أن شعوبا كثيرة دخلت الإسلام حين مسَّتهم هذه القيم ، وحين شعر أفراد مجتمعاتها أنهم يتعاملون مع بشر من نوع خاص — أى المسلمين — تحكم تصرفاتهم هذه القيم التى ما عرفتها البشرية من قبل .

وللإنسان أن يفكر بعمق فى قضية دخول شعوب كثيرة فى الإسلام ، فى بلاد الشام ، وبلاد فارس ، ومصر ، وبلاد الشمال الإفريقى ، وكذا جنوب شرق آسيا ، وذلك فى بداية الفتح الإسلامى العظيم لهذه البلاد ، وهل دخلت هذه الشعوب فى الإسلام بقوة السلاح فعلا .. ؟ أم لأسباب أخرى تعود فى معظمها

---

[١] على خليل مصطفى أبو العنين ، مرجع سابق ، ص ص ٣١ - ٣٢ .

إلى سلوكيات وكذا أخلاقيات وتصرفات الذين حملوا الإسلام إيمانا حقا في قلوبهم ، فانعكس على تربيتهم سلوكا رائعا ، وتعاملا محببا ، وخلقا نبيلا ، يجذب الناس إليهم ، ويقربهم من معتقدهم الجديد .

لقد كانت هجمات المسلمين وحروبهم قاصرة عل المحتلين الرومان في بلاد الشام ومصر ، أو ضد الطغمة الفاسدة من حكام بلاد فارس التى كانت تقف ضد وصول دعوة الإسلام ورسالته إلى الشعوب من خلفهم ، فلما هزم جنود الامبراطوريتين الرومانية والفارسية فى المعارك التى دارت بينهم وبين المسلمين ، بعيدا عن الشعوب ، وانزاح هؤلاء الجنود من أمام قوات الإسلام المنتصرة انفتح الطريق أمام هؤلاء ليتعاملوا مع تلك الشعوب تعاملا مباشرا فلم يجدوا منهم إلا الأخلاق الإسلامية الحميدة ، ولم يجدوا إلا الصدق فى القول ، وإلا الوفاء بالوعد ، وإلا تأدية الأمانات لأهلها ، وإلا مخالقة الناس بخلق حسن ، ولعمرى إن كل ذلك لمن نتائج ومخرجات تربية الرسول الأسمى -ﷺ- لأصحابة .

وللعلم فلقد كان ذلك هو الحافز الأول لأفراد هذه البلاد التى فتحها المسلمون للدخول فى الدين الجديد ، الدين الإسلامى ، وليس أدل على ذلك من أن شعوبا كثيرة من شعوب البلاد المفتوحة قد هجر أفرادها لغاتهم التى كانوا يتحدثونها ، واستبدلوا بها لغة القرآن الكريم .. العربية الخالدة ، وفى يقينى أنه ليس هناك فتح أعظم ولا أروع من هذا الفتح ، فتح القلوب والنفوس والعقول ، قبل فتح الديار والقلاع والحصون .

ولو أن جيوش المسلمين أنفقت أموال الدنيا لتحويل الناس فى تلك البلاد هذا التحول العظيم ما استطاعت ، ولكن الله – جلت قدرته – ومن خلال منهجه السماوى التنزيل ، والذى ربى الرسول -ﷺ- أصحابه على أساسه هو الذى

حولهم ، وآلف بين قلوبهم ، وقلوب الفاتحين المجاهدين ، وصارت هذه الشعوب التى دخلت الإسلام من حماته وناشريه والمدافعين عنه ، بفضل الله جلت قدرته.

هذا ويمكن أن نشير – فقط نشير – من بعيد إلى بعض هذه القيم ، لأن حصرها كلها ليس بالأمر الهين ولا هو بالسهل ، ولكن قبل ذلك علينا أن نؤكد أنها تنقسم إلى عدة أنواع ، فمنها القيم الروحية (العقدية) ، ومنها القيم الخلقية، وكذا القيم العلمية والمعرفية ، كما أن هناك القيم التى تشتمل الجوانب الاجتماعية ، وكذا القيم الوجدانية ، ثم إن هناك قيما تتعلق بالمعاملات والنواحى الاقتصادية أو المادية ، وأخيرا هناك القيم الجمالية (*) .

هذا وسوف نقوم هنا بتحليل قيمتين اثنتين فقط ، بإذن الله ، وذلك كنموذجين لتلك القيم الإسلامية الرائعة ، تلك القيم التى ينبغى علينا نحن التربويين أن نلتفت إليها بشدة عند تنشئة أجيالنا الصاعدة ، وأن تجعلها جميع مؤسساتنا التربوية التى سبق وأشرنا إليها أكثر من مرة فى هذه الدراسة ، تجعلها هدفا لها لا يغيب .

أولا : قيمة الوقت :

إن الدين الإسلامى العظيم يعطى أهمية كبرى لعنصر الوقت فى حياة الإنسان المسلم ، فكل دقيقة فى حياته ، بل كل لحظة ، هو محاسب عليها أمام الله يوم القيامة ، فعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال : "لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به " .

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة فى هذا الموضوع مراجعة كتاب د. على خليل السابق الذكر عن القيم .

وهكذا . وكما يقول القرضاوى ، يسأل الإنسان عن عمره عامة ، وعن شبابه خاصة ، والشباب جزء من العمر ، ولكن له قيمة متميزة باعتباره سن الحيوية الدافقة ، والعزيمة الماضية ، ومرحلة القوة بين ضعفين ، ضعف الطفولة ، وضعف الشيخوخة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللهُ الذي خلقكم من ضعفٍ، ثم جعل من بعد ضعفٍ قوة، ثم جعل من بعد قوةٍ ضعفاً وشيبة ﴾ [١] وصدق الله العظيم .

ومن هنا .. من هذا النبع الصافى يتأكد لنا أن المسلم مسؤول عن كل شيئ فى حياته ، وأن هناك تأكيدا فى المسؤولية على عنصر الوقت .. بالتحديد، لأنه سوف يسأل عنه مرتين ، فسؤال عن العمر عامة ، وسؤال ثانية عن فترة الشباب خاصة ، لأنها فترة القدرة على العطاء والعمل ، وبذل الجهد والعرق والتضحية . ثم إن الإنسان المسلم ينبغى أن يتيقن من أن اللحظة التى تذهب من عمره لا تعود ، بل إن الحقيقة المؤكدة هى أن عمر الإنسان يبدأ فى التناقص منذ مولده ، ومن هنا فإن عليه أن يستفيد منها قدر استطاعته ، تصديقا لما نقل عن أبى الحسن البصرى فى عبارته الواعية البليغة : " ما من يوم ينشق فجره ، إلا وينادى : يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوّد منى فإنى إذا قضيت لا أعود إلى يوم القيامة " .

ومن أخص خصائص الوقت التى لا يشاركه فيها شيئ آخر فى الوجود أنه إذا ذهب لا يعود ، وهو – للعلم – دائما يذهب ، لأنه ، وببساطة شديدة ، لا يتوقف ، وبالتالى فهو لا يعوّض " إن الوقت أنفس وأثمن ما يملك الإنسان ، وترجع نفاسته إلى أنه رداء لكل عمل ، وكل إنتاج ، فهو فى الواقع رأس المال الحقيقى للإنسان ، فردا ومجتمعا .

---

[١] يوسف القرضاوى : الوقت فى حياة المسلم ، دار الصحوة ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، ص ٨ .

إن الوقت ليس من ذهب فقط ، كما يقول المثل الشائع ، وإنما هو أغلى بكثير – في حقيقة الأمر ، من الذهب واللؤلؤ والماس ، بل ومن كل جوهر نفيس ، أو حجر كريم ، إنه كما قال الشهيد حسن البنا – رحمه الله – هو الحياة ، فما حياة الإنسان إلا الوقت الذي يقضيه من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة " [١] .

إن السلف الصالح كانوا أحرص ما يكونون على أوقاتهم ، لأنهم كانوا أعرف الناس بقيمتها ، وكانوا يقولون : من علامات المقت .. إضاعة الوقت ، كما كانوا يقولون : الوقت كالسيف .. إن لم تقطعه .. قطعك .

وكانوا يحاولون دائما الترقي من حالٍ إلى حالٍ أحسن منها ، بحيث يكون يوم أحدهم أفضل من أمسه ، وغده أفضل من يومه ، وكانوا يحرصون كل الحرص على ألا يمر يوم ، أو بعض يوم ، أو حتى برهة من الزمان ، وإن قصرت ، دون أن يتزودوا منها بعلم نافع ن أو عمل صالح ، أو مجاهدة للنفس، أو إسداء نفع للغير ، وذلك حتى لا تتسرب الأعمار سدى ، وحتى لا تضيع هباء، وتذهب جفاء .. وهم لا يشعرون .

وكانوا يعتبرون من كفران النعمة ، ومن العقوق للزمن ، أن يمضي يوم لا يستفيدون منه لأنفسهم ، ولا للحياة من حولهم ، نموا في المعرفة ، ونموا في الإيمان ، ونموا في عمل الصالحات [٢] .

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود – رضي اله عنه – ما ندمت على شيئ ندمي على يوم غربت شمسه ، نقص فيه أجلي ، ولم يزد فيه عملي .

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ١٢ – ١٣ .

[٢] المرجع السابق ، ص ١٥ .

وقال الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز – رضى الله عنه – " إن الليل والنهار يعملان فيك .. فاعمل فيهما " ، وقال الحسن البصرى – رضى الله عنه – : يا ابن آدم إنما أنت أيام ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، وكذلك قال أيضًا : أدركت أقواما كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصا على دراهمكم ودنانيركم [١] .

أما مفكرنا الإسلامي الراحل " مالك بن نبى " – رحمه الله – فيقول : إن الزمن نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل ، فهو يمر خلال المدن ، يغذى نشاطها بطاقته الأبدية ، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التى تذهب هباء ، وهو يتدفق على السواء فى أرض كل شعب ، ومجال كل فرد ، يفيض من الساعات اليومية التى لا تغيض ، ولكنه فى مجال ما يصير " ثروة " وفى مجال آخر يتحول " عدما " فهو يمرق خلال الحياة ، ويصب فى التاريخ تلك القيم التى منحها له ما أنجز فيه من أعمال ، لكنه نهر صامت (وليتنا نتفكر فى هذه العبارة البليغة) ، حتى إننا ننساه أحيانا أو فى معظم الأوقات ، وتنسى الحضارات ، فى ساعات الغفلة ، أو نشوة الحظ ، فننسى قيمته التى لا تعوض .

ومع ذلك ففى ساعات الخطر فى التاريخ ، تمتزج قيمة الزمن بغريزة المحافظة على البقاء ، إذا استيقظت ، ففى هذه الساعات التى تحدث فيها انتفاضات الشعوب ، لا يقوّم الوقت بالمال ، كما ينتفى عنه معنى العدم ، إنه يصبح جوهر الحياة الذى لا يقدّر .

وحينما لا يكون الوقت من أجل الإثراء ، أو تحصيل النعم الفانية ، أعنى حينما يكون لازما للمحافظة على البقاء ، أو لتحقيق الخلود والانتصار على

---

[١] عبد الفتاح أبو غدة : قيمة الزمن عند العلماء ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م ، ص ص ١٩ – ٢٠ .

الأخطار ، يسمع الناس – فجأة – صوت الساعات الهاربة ويدركون قيمتها التى لا تعوض ، ففى هذه الساعات لا تهم الناس الثروة، أو السعادة ، أو الألم ، وإنما الساعات نفسها ، فيتحدثون حينئذ عن " ساعات العمل " ، أعنى العملة الوحيدة المطلقة التى لا تبطل ، والتى لا تسترد إذا ضاعت، إن العملة الذهبية يمكن أن تضيع .. وأن يجدها المرء بعد ضياعها ، ولكن لا تستطيع أى قوة فى العالم أن تحطم دقيقة واحدة ، ولا أن تستعيدها إذا مضت .

ويعرج كاتبنا الإسلامى الواعى ، مالك بن نبى – عليه رحمة الله – إلى مشكلة عالمنا العربى والإسلامى مع الوقت ، فيقول : وحظ الشعب العربى والإسلامى من الساعات كحظ أى شعب متحضر ، ولكن .. عندما يدق الناقوس مناديا الرجال ، والنساء ، والأطفال إلى مجالات العمل ، فى البلاد المتحضرة.. أين يذهب الشعب الإسلامى .. ؟؟ !!

تلكم هى المسألة المؤلمة .. فنحن فى العالم الإسلامى نعرف شيئا بسمى " الوقت " .. !! ولكنه الوقت الذى ينتهى إلى عدم ، لأننا لا ندرك معناه ، ولا تجزئته الفنية ، لأننا لا ندرك قيمة أجزائه من ساعة .. ودقيقة .. وثانية ، ولسنا نعرف إلى الآن فكرة " الزمن " الذى يتصل اتصالا وثيقا بالتاريخ ، مع أن فلكيا عربيا مسلما ، هو " أبو الحسن المراكشى " يعتبر أول من أدرك هذه الفكرة الوثيقة الصلة بنهضة العلم المادى فى عصرنا ..

وبتحديد فكرة الزمن ، يتحدد معنى التأثير والإنتاج ، وهو معنى الحياة الحاضرة الذى ينقصنا ، هذا المعنى الذى لم نكسبه بعد ، هو مفهوم الزمن الداخل فى تكوين الفكرة والنشاط ، فى تكوين المعانى والأشياء ، فالحياة والتاريخ الخاضعان للتوقيت كان وما يزال يفوتنا قطارهم ، فنحن فى حاجة ملحة إلى توقيت دقيق ، وخطوات واسعة كى نعوض عن تأخرنا ، وإنما يكون

ذلك بتحديد المنطقة التى ترويها ساعات معينة من الساعات الأربع والعشرين التى تمر على أرضنا يوميا .

إن وقتنا الزاحف صوب التاريخ ، لا يجب أن يضيع هباء ، كما يهرب الماء من ساقية خربة ، ولا شك أن " التربية " هى الوسيلة الضرورية التى تعلّم الشعب العربى الإسلامى تماما قيمة هذا الأمر .. [١] .

ويضع مالك بن نبى بين أيدينا اقترحا مبسطا ، ولكنه هام ، يحاول فيه أن يربط أفراد المجتمع المسلم بقضية الوقت فى عالمهم الإسلامى فيقول : إننا ينبغى أن نعلمّ المسلم " علم الزمن " ، فتعلم الطفل والمرأة والرجل تخصيص " نصف ساعة " يوميا لأداء واجب معين ، فإذا خصص كل فرد هذا الجزء من يومه فى تنفيذ واجب معين ، أو مهمة منتظمة وفعالة فسوف يكون لديه فى نهاية العام حصيلة هائلة من ساعات العمل ، لمصلحة حياة الأمة الإسلامية ، فى جميع أشكالها العقلية والخلقية والفنية والاقتصادية والمنزلية .. إلخ .

وسوف يثبّت هذا (النصف ساعة) عمليا فكرة الزمن فى العقل الإسلامى، أى فى أسلوب الحياة فى المجتمع ، وفى سلوك أفراده ، فإذا استغل الوقت هكذا فلم يضع سدًى، ولم يمر كسولاً فى حقلنا ، فسوف ترتفع كمية حصادنا العقلى واليدوى والروحى ، وهذه هى الحضارة التى كانت لنا قبل ذلك، وليست أضغاث الأحلام التى نعيشها حاليا ، والتى من بين عباراتها الكوارث: " هيا نضيّع الوقت " ، بل " هيا " نقتل الوقت " .. وكأنه – ويا للكارثة – عدو لنا من المحتم ، أو من الواجب علينا أن نقتله .. !! ونحن لا ندرى بذلك أننا نقتل أنفسنا ، ونحطم مستقبل أبنائنا ، وليست هذه هى مرتكزات الحضارة الإسلامية التى بهرت العالم ، وجعلته يعترف بها ، بل ويقر لها بالريادة والتفوق .

---

[١] مالك بن نبى ، مرجع سابق .

والمربون باتساع الأمة الإسلامية مطالبون بأن يضعوا " قيمة الوقت "، وكل قيمة طيبة جاء بها الإسلام ، أمام أعينهم وهم يرسمون أهداف التعليم فى مجتمعاتهم ، وكذا وهم يخططون للعمل المدرسى ، للمعلمين وللطلاب ، على السواء ، للبرامج المدرسية العادية ، ولأوجه النشاط غير المدرسى المصاحبة لها .. لا فرق ، كما أن عليهم أن يضمنوا تلك البرامج وأوجه النشاط كيف يستفيد الشباب ، بل وحتى الأطفال ، من كل ثانية فى حياتهم ، وأن يخططوا لتدريبهم على ذلك ، فى المدارس .. وخارج المدارس ، حيث أن المنهج فى مفهومه الحديث ، لا يقتصر على المدرسة ، أو اليوم المدرسى فقط ، وإنما هو يمتد ليشمل حياة التلميذ كلها ، داخل المدرسة وخارجها ، طالما أنه تحت إشراف المدرسة وبتوجيه من رجالها [١] .

ثم إن علينا أن نفكر ، نحن أبناء الأمة الإسلامية ، فى الفروق الهائلة التى تفصل بيننا وبين مجتمعات المتقدمين – حاليا – وأن نحاول اللحاق بهم ، ولن يكون ذلك إلا ببذل الجهد والعرق ، كما أنه لن يتم إلا باستثمار كل دقيقة ، بل كل ثانية فى حياتنا ، وينبغى علينا أن نقلدهم فى ساعات العمل الطويلة والمنضبطة التى يدرسون فيها ، وتلك التى فيها يعملون ، بل .. وأن نزيد عليها، إذا أردنا أن نقلص المسافات التى تفصل بيننا وبينهم ، وأما ما تسير عليه بعض مجتمعاتنا من تقليدهم فى الأجازات والعطلات فليس مؤديا إلا إلى المزيد من التخلف والتقهقر .. والتبعية .

---

[١] محمد عبد العليم مرسى : المعلم .. والمناهج وطرق التدريس ، دار الإبداع الثقافى ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .

وينسحبُ هذا الكلام – بطبيعة الحال – على باقى المؤسسات التربوية ، باتساع الأمة الإسلامية ، حيث ينبغى أن تكون " القيم الإسلامية " الرائعة ، "وقيمة الوقت " منها فى الصميم ، ماثلة فى أذهان أرباب الأسر وربات‍ها ، وهم ينشّئون أبناءهم وبناتهم ، بحيث يعكسون تلك القيم الطيبة سلوكا واضحا وصريحا أمام أعينهم ، وبالتالى يقلدهم هؤلاء الأبناء فى كل مسالك حياتهم ، داخل الأسرة وخارجها .

كما أن أجهزة الإعلام ووسائله مطالبة بالتعامل مع " قضية الوقت " هذه بكل أمانة وجدية، سواء فيما يكتبه رجال الفكر والعلم والثقافة ، مما يقدمونه على شكل مقالات أو تعقيبات تنشر فى الصحف ، أو برامج تعرض على شاشات التليفزيون ، أو غير ذلك مما يبث فى الراديو على موجات الأثير .

ومن المحتم أن يضع الجميع نصب أعينهم أنهم مؤتمنون على أجيال بأكملها ، وأن مستقبل هذه الأجيال يتشكل ويتلوّن من خلال أعمالهم هم . والمسؤولية هنا ليست سهلة ولا هينة ، لأنها ، وبالدرجة الأولى ، أمام الله –عز وجل – وسوف يسألون – يقينا – عما قدموا ويقدمون لأبناء أمتهم فى هذا المجال الحساس .

ولا يمكن أن نختم هذا الجانب المتعلق بقيمة من القيم الإسلامية العظيمة ، دون أن نشير إلى دور المسجد ، حيث أن الأئمة والوعاظ – هنا – عليهم واجبات ومسؤوليات خطيرة فى توعية الأمة بكل طوائفها من الرجال والنساء ، والشباب والأطفال ، وفى تذكيرها بماضيها التليد الذى كانت تلك القيم الرائعة فيه حاكمة لتصرفات الجميع ، كما كانت معياراً لا يختل فى قياس سلوك البشر .

وليس هذا فحسب ، وإنما ينبغي على هؤلاء الأئمة والوعاظ والخطباء أن يكونوا مصابيح هداية لمجتمعاتهم ، كما كان أسلافهم العظام ، ولن يحدث ذلك إلا أن يكونوا نماذج تربوية عملية تمشى على الأرض ، تطبق ما تقول ، وتنفذ ما تعتقد أنه حق ، ومن هنا يكون الاقتداء بهم أمرا واردا .. ممكنا ومعقولا .

ثانيا : قيمة العمـــل :

يعتبر " العمل " من أهم القيم فى ديننا الإسلامى العظيم ، وليـــس العمـــل فحسب ، وإنما " إتقان العمل " ، وذلك بناء على حديث رســول الله -ﷺ- " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ".

ولقد ربى الإسلام المؤمنين على أن يكونوا مجتمعا عاملا مـــن الدرجـــة الأولى ، وذلك منذ اللحظة التى وضعوا فيها أقدامهم فى المدينة المنورة ، حيـــث أقاموا دولة الإسلام لأول مرة ، فقد سارعوا ، بناء على توجيهات النبى الأميـــن -ﷺ- ، بإقامة أول مسجد فى الإسلام ، فعملوا فيه بأيديهم ، وبحماس شـــديد ، وبهمة ونشاط عظيمين ، وقد كان الرسول -ﷺ- هو القـــدوة لـــهم ، والمثـــل الأعلى الذى يحتذى فى ذلك العمل ، كما كان فى كل عمل [١] .

يذكر التاريخ ، تاريخ الدعوة الإسلامية ، أن مجتمع المسلمين الأوائـــل ، كان مجتمعا مجتهدا .. عاملا .. نشيطا .. متقنا ، فى كل مجال مـــن مجـــالات الحياة المختلفة ، من الصناعة إلى الزراعة ، ومن التعدين إلى التجارة ، ومـــن الحدادة إلى النجارة والبناء .. إلخ ، وذلك كما جاء فى رســـالة علميـــة موثقـــة ومنشورة [٢] .

ويقول الشيخ سيد سابق إن " من طبيعة الإسلام الحركة والنشـــاط ، لأن الحركة حياة وقوة ، والسكون ضعف وموت ، والإسلام يحب لأهله أن يحيـــوا كأقوى ما تكون الحياة ، وأن يناضلوا كأشد ما يكون النضال ، وأن يكون لـــهم فى كل ميدان جهاد ، وفى كل مجال عمل ، حتى تحقق لهم السيادة والقيـــادة ،

---

(١) محمد عبد العليم مرسى : التربية .. وكارثة غزو الكويـــت ، هجـــر للطباعـــة والنشـــر ، القـــاهرة ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) عبد العزيز بن محمد العمرى ، مرجع سابق .

عن جدارة واستحقاق ، وأسلوب الإسلام فى الدعوة إلى العلم أسلوب متميز لا يكاد يضاهيه أو يقاربه أى أسلوب آخر ، فغاية الحياة فى نظر الإسلام هى إحسان العمل وإتقانه ، وإبراز المواهب ، وإبراز القوى الكامنة فى النفس الإنسانية [١].

ويتساءل الشيخ عن " طبيعة العمل " فى الإسلام قائلا " ولئن ما هو العمل الذى يحبب فيه الإسلام ، والذى يدعو إليه .. ؟؟ ويجيب " إنه العمل الصالح الذى تزكو به النفوس ، وتقوم به الأخلاق ، وتتسع به دائرة البر ، وتقوى به العلاقات الإنسانية ، وتصان به الأديان والأبدان والأعراض والأموال والقلوب والعقول . العمل الذى ينمى الإنتاج ، ويزيد الثروة ، ويحفظ كرامات الأفراد ، ويصل بالأمة إلى غايتها من السيادة والمجد [٢] .

هذا وإن كافة أبواب الكسب والعمل مفتوحة أمام المسلم ، مادامت لا تؤدى إلى معصية أو انحراف ، سواء كان ذلك زراعة أم صناعة أم تجارة ، كما كتب على خليل الذى أورد عددا من الأحاديث النبوية الشريفة ، وكلها تدل على أهمية العمل ، وعلى فضله ، ولعل من أولها ما رواه الصحابى الجليل أنس ابن مالك – رضى الله عنه – وبنصه " إن قامت الساعة فى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها " ، وكذلك عن عائشة – رضى الله عنها – عن النبى – ﷺ – " إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم " [٣] .

---

[١] السيد سابق : عناصر القوة فى الإسلام ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م ، ص ١١٢ .

[٢] المرجع السابق .

[٣] على خليل مصطفى خليل أبو العينين ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .

ويؤكد محمود سفر على أهمية " العمل " بالنسبة للأمة الإسلامية ، مبينـا موقف الإسلام من ذلك ، داحضا ومفندا بعض الأفكار الخاطئة التى راجت عند البعض حول قضية " عمل المسلم " ، يقول :

يعتقد البعض بأن الله جعل الكفار فى خدمتنا ، لذلك فهم يتولون الصناعة لاستهلاكنا !! أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية ، وكأن معرفة الحرفة والصنعة والإنتاج ليست من العلوم الإسلامية ، ولا من التكاليف الشرعية ..!! [1] .

وما من الأنبياء نبى إلا كانت له حرفة ، وهم فى موضع الأسوة والقدوة ، ولا ندرى كيف يفهمون قوله تعالى فى بيان نعمه على سيدنا داود — عليه السلام — : ﴿ وألنا له الحديد ﴾ ، ﴿ وأن اعمل سابغات وقدر فى السرد ﴾ ، ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم ﴾ .

وكيف يقرأون قصة ذى القرنين الذى مكّن الله له فى الأرض باتباعه الأسباب ﴿ آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله ناراً قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً ، قال آتونى أفرغ عليه قطرا ﴾ .

ولعلنا نتذكر نبى الله نوحاً — عليه السلام — وعمله فى النجارة ، وداود — عليه السلام — والحديد صنعته ، ونبى الله موسى — عليه السلام — ورعايته للغنم ، ومن بعده خاتم الأنبياء — ﷺ — وقد عمل فى تلك الحرفة .

ويؤكد القرضاوى : أن " العمل " فى حياة الأمة الإسلامية ينبغى أن يكون هو الأساس ، وأن اللهو ، أو الترويح ينبغى أن يكون هو العارض ، حيث أن

---

[1] محمود محمد سفر : الحضارة تحد ، كتاب الأمة ، رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر ، العدد ٢٢١ ، ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م .

الإسلام يريد حياة جادة يتخللها اللهو ، ولا يريد حياة لاهية عابثة يتخللها بعض العمل [١] .

والشيخ القرضاوى يؤكد على المعانى السابقة نفسها التى ركز عليها محمود سفر من أن الإسلام يريد من المسلمين أن يعملوا فى كل مجالات الحياة، تلك المجالات التى تجعل مجتمع المسلمين مكتفيا بعلمائه وأبنائه ، فى الصناعة ، والصناعة العسكرية ، وكذا الصناعة المدنية .. لا فرق بينهما ، وفى الطب ، كما فى الهندسة ، ومن الزراعة إلى البناء والتشييد ، ومن التعدين إلى الحدادة.. والتجارة .. إلى ما لانهاية ، من كل ما تتطلبه حياة المجتمع الإسلامي فى العصر الذى يعيشه المسلمون ، والذى يحتكون بحضارته ، والتى لا ينبغى أن يكونوا فيها عالة على غيرهم ، أو مجرد مستهلكين غير منتجين .

ويؤكد الشيخ الغزالى – رحمه الله – على معنى مهم فى كتابه " هموم داعية " ، ألا وهو انصراف عدد كبير من الناس عن العمل الجاد فى الأراضى الزراعية ، وكان ذلك ينبغى أن يكون شغلهم الشاغل ، وهمهم الذى لا يترك لهم فرصة للراحة أو الدعة . وكأنى بالشيخ يريد أن يفزعهم فيفهموا قضية " انعدام الأمن الغذائى : فى عالمنا العربى الإسلامى " بينما هم يستطيعون اتقاء ذلك بشئ واحد فقط هو .. "العمل " .

إن الكثيرين من أبناء الأمة الإسلامية – للأسف الشديد . لا يعون خطورة أن تمد حكوماتنا أيديها مستوردة للغذاء من الخارج ، كى تسد به حاجة مواطنيها للاستهلاك المتزايد ، خاصة وأن الذين ينتجون ذلك الغذاء لا يدينون بديننا ، ولا يكنون لنا أية مشاعر للود أو الصفاء .

---

[١] يوسف القرضاوى : بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والتغريبيين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٨م ، ص ١٥١ .

إن استيراد المواد الغذائية ،وخاصة القمح الذى لا يمكن الاستغناء عنــه ، يضعنا تحت رحمة تلك الدول ، خاصة فى أوقات الأزمات ، أزمات الإنتــاج ، أو أزمات السياسة ، ويكفى أن يكون مجتمع إحدى الدول الإسلامية ، فى حاجـة ماسة للقمح ، صباح مساء ، حتى تضطر دولته إلى الاقتراض كى تسدد قيمة ما يستهلك ..!!

ونتصور أن دولة هذا وضعها لا يمكنها أن يكون لها رأى مسـموع .. أو محترم فى شؤون العالم الذى فيه تعيش ، لأنه – ودون أدنـى شـك – يمكـن الضغط عليها وعلى صناع القرار فيها ، بصورة أو بأخرى ، خاصة وأن الدول المنتجة لتلك الغلة (القمح) قليلة العدد ، وذات توجـهات وسياسـات معينـة، ويمكنها – عند اللزوم – أن تمارس احتكارها لذلك الإنتاج ، وأن تضغط علـى المحتاجين فلا تصدره إليهم إلا بعد تنازلات معينة ، حتى وإن امتلك المحتاجون المال الذى يشترون به ، ومثال الاتحاد السوفيتي الذى يلهث وراء الغرب لسـد حاجات مجتمعه الغذائية ماثل أمام الجميع ، ولا يحتاج لدليل أو برهان [١] .

الشيئ المؤلم حقا فى هذا الجانب هو أن الأمة الإسلامية لديـها إمكانـات هائلة فى هذا المجال ، وسبحان الله العظيم الذى جعل هذه الأمة وسطا فى كـل شئ ، فهى فى المجال الذى نكتب فيه الآن : وسط فى الموقع ، لا هى متطرفـة نحو الشمال المتجمد ، ولا نحو الجنوب البعيد الغارق تحـت أصقـاع القطـب الجنوبى ، وتوسطها هذا جعل مناخها – بفضل الله – معتدلا ، وارضها خصبـة معطاءة ، وسهولها فسيحة ممتدة ن كما أن بها مصادر للمياه هائلة ، والأيـدى العاملة بها هى فوق ما تحتاج .

---

(١) محمد الغزالى : هموم داعية ، دار ثابت للنشر والتوزيع ، القـاهرة ، ١٤٠٤ هـ ، ص ص ١٥١ – ١٥٢ .

ثم إن الله – جلت قدرته – فتح على ركن منها ، هو الخليج العربى ، بثروة البترول ، وكان من المحتم على أمة هذا حالها ووضعها ، أن تكون فى عداد المنتجين الأوائل للغذاء فى العالم ، بل والمصدرين له ، خاصة محاصيل القمح والذرة .. وغيرهما (*) ، وخاصة كذلك والأرض القابلة للزراعة فى بلد واحد هو السودان يقدر أنها بمئات الملايين من الأفدنة .. دون أدنى مبالغة .

ثم إن العالم الإسلامى كله يقع على شواطئ بحار ومحيطات غنية بثرواتها البحرية الهائلة ، دون مبالغة ، لأنها بحار دافئة ، ورغم أن ذلك فإن بلاد العالم الإسلامى فى مجملها ، مستوردة للأسماك واللحوم ، رغم صيد السمك لا يحتاج لمهارات تكنولوجية رفيعة المستوى . ويكفى أن نمد بصرنا نحو كتب الإحصاءات التى تصدر عن أنواع الإنتاج المختلفة لنرى أنه ما من دولة كبرى من دول العالم الغنية (**)إلا وكان صيد البحر ضمن مدخولاتها الأساسية ، بل ويمثل نسبة كبيرة لا يستهان بها من تلك المدخولات ، وذلك لوعى تلك البلاد بأهمية الثروة السمكية التى لا تحتاج إلا إلى الوعى .. والجدية.. والعمل ، حيث أننا لا نزرع ذلك السمك ، ولا نطعمه ، كما أننا لا نبنى له حظائر نضعه فيها .. ولا نحرسه ، وإنما فقط نصيده كى نأكله ، ونستمتع به لحما طريا ، كما قال ربنا – عز وجل – فكيف يغيب عنا هذا ، وعن تربيتنا لأبنائنا .. ؟؟ !!

(*) قدرت بعض الإحصاءات الحديثة قيمة ماتستوره المنطقة العربية وحدها ، والتى هى قلب العالم الإسلامى ، بعشرات المليارات من الدولارات .. سنويا ، وسوف يأتى الحديث عن ذلك تفصيلا – إن شاء الله – فى " الأصل الاقتصادى " للتربية .

(**) الدول السبع الأغنى فى العالم هى : الولايات المتحدة الأمريكية – كندا – انجلترا – فرنسا – ألمانيا – ايطاليا – اليابان .

كيف لا نربيهم عل العمل ، والعمل المنتج بالتحديد ، ذلك العمل الذى يرفع من قيمة الإنسان ،ويعلى من قدر المجتمع ، ويعز الأمة الإسلامية .. ؟ كيف لا نساعدهم على أن يفتحوا عيونهم على مقدرات أمتهم ، تلك المقدرات التى لم نستفد منها كما ينبغى حتى الآن .. ؟؟ وكيف لازلنا ندرس لهم أن هنالك ملايين من الأفدنة فى العالم العربى ، قلب العالم الإسلامى ، " قابلة للإنتاج الزراعى " .. ؟؟!! ولماذا لم نستثمر هذا الذى هو " قابل للإنتاج " .. ؟؟!! كيف تكون أرضنا قابلة للإنتاج .. بينما تربيتنا للشباب غير قابلة لأن تدرب الشباب عن طرق وأساليب ووسائل ذلك الإنتاج .. ؟؟

بل وكيف غاب عنا النموذج العظيم الذى ضربه لنا المعلم الأسمى -ﷺ- حين وجّه ذلك المسلم الذى جاءه سائر أن يعطيه شيئا يقتات به ، فكان أن وجهه " للعمل " وساعده عليه ، بفأس أو ما شابهها ، وطلب منه أن يعود للقائه بعد عدد قليل من الأيام فذهب الرجل واحتطب ، وباع ، وأكل وشرب من ناتج عمله ، وأطعم أهله وأسرته ، واكتسى وكساهم ، وتغيرت حالته ، وجاء إلى النبى الكريم -ﷺ- وقد آتى الدرس النبوى أكله ، وهذه هى التربية الحقة الفاعلة ،وهل نحتاج بعد ذلك لأن نستورد من الخارج كلمات أو شعارات تحدثنا عن ربط التربية بالعمل .. ؟؟ ألا يكفينا حديث نبينا -ﷺ- والقائل ، فى معناه، بأن اليد العليا خير من اليد السفلى .. ؟؟

هذا ويؤكد الشيخ محمد قطب على شمولية الإسلام ، أو على منهج الإسلام الشامل فى التربية ، حيث هو لا يهتم بجانب على حساب جانب ، وبالتالى فإن كل الجوانب مهمة . يقول الشيخ " إن الإسلام يبعث النشاط والحيوية ، فى اتجاهات شتى ، تشمل كل كيان الإنسان ، بحيث لا تتدفق الطاقة الحيوية كلها فى جانب واحد ، جانب الجنس ، أو المال ، أو الطعام .. إلخ ، فتخرج به عن الحد المأمون .

إن الإسلام يبعث النشاط فى مجالات العلم والعمل والتجارة والصناعة والزراعة ، والفتح والغزو ، وعمارة الأرض ، وإقامة الدولة ، وتنظيمها ، وسياستها ، ومراقبة الأمور فى المجتمع ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وهذه كلها أمور تستغرق النشاط الإنسانى وتوسعه ، وتوزع مساحته ، فلا يكتمل فى بقعة واحدة ، ويترك بقية الجوانب خواء [١] .

ويحتاج الحديث عن " قيمة العمل " فى الإسلام أن نؤكد على أن تربيتنا لشبابنا ، باتساع الأمة الإسلامية ، يحتاج من المسؤولين عنها ، على جميع المستويات، لإعادة النظر فى كل ما يتعلق بها ، بحيث تخرج مؤسساتنا التربوية شبابا يسدون الثغرات الموجودة فى جدار الأمة فى هذا المجال ، حيث لا يعقل أن يزيد عدد المسلمين على المليار نسمة ، ثم تجد منطقة من مناطقه ، أو دولة من دوله ، تجد نفسها فى حاجة لاستيراد الأيدى العاملة والمدربة ، من دول أخرى لا تدين بدين الإسلام .. !!

وحين يأتى هؤلاء العمال غير المسلمين ، ويمارسون فى مجتمعاتنا أمورا تصادر وتعارض ديننا وقيمنا وعاداتنا ومعاييرنا الأخلاقية ثم نعود فنتحدث عن سلبيات العمالة الأجنبية فى بعض أوطاننا [٢] ، وكان الأجدر بمؤسساتنا التربوية – جميعا – أن تدفع بشباب المسلمين نحو " العمل " ، بل ونحو " إتقان " ذلك العمل ، حتى يكفوا أمتهم الإسلامية ما تحتاجه ، كل فى مجاله الذى تخصص

---

[١] محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠١هـ ، الجزء الأول ، ص ١١٢ .

[٢] محمد عبد العليم مرسى : التربية ومشكلات المجتمع فى دول الخليج العربية ، مشكلة العمالة الأجنبية (معالجة إسلامية) ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩م ، أو فى طبعته الجديدة عن دار الإبداع الثقافى ، الرياض ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م ، وقد أضيفت له " مشكلة الطاقة " تلك التى واجهها الغرب بعد حرب أكتوبر / رمضان ١٩٧٣م ، وقد ضمت قضية الطاقة كمثال على كيفية مواجهة المجتمع الأمريكى الواعى لمشكلاته من خلال .. التربية .

فيه ، وذلك حتى يرفعوا عنها الحرج الذى ينبغى علينا جميعا أن نستشعره ، والذى لا يجب – وبمنتهى الصراحة – أن نهرب من مواجهته ، أو نتهرب .

ويحدثنا واحد من كتابنا الإسلاميين الذين يحملون هموم أمتهم عن العلاقة بين " الحضارة " ، " والانتاج " .. أى " العمل " ، ويتعرض فى واحد من مؤلفاته للنظريات التى حاولت أن تفسر قيام الحضارات واضمحلالها أو انهيارها ، مبينا الآراء التى أرجعت ذلك إلىأن " التجارة كانت فى فترة من الفترات هى السبب وراء انتشار البضائع ، ومعها الأفكار .. بطبيعة الحال ، والآراء التى حاولت أن ترجع ظهور تلك الحضارات إلى " نوع السلالات البشرية " ، وما تميز به بعضها على غيره .

بل إن هناك من يحاول إرجاع نشوء الحضارات وارتقائها ، ثم هبوطها واضمحلالها إلى عوامل مناخية معينة . ويخلص الكاتب الإسلامى " محمود سفر " إلى رأى يتبناه ، ونعتقد نحن معه فى وجاهته لأنه مس " قضية التربية " وقضية العمل " مسا مباشرا ، يقول : " ويظل البحث عن أسباب نشوء الحضارات وارتقائها ثم اضمحلالها وزوالها متصلا ، يعنى به المختصون . على أن اختلاف معدل الإنتاجية ، من مجتمع لآخر ، يخضع فى اعتقادنا – أساسا – للنشاط الإنسانى ، وتفاعله مع بيئته وموارده ، وإمكاناته وتدريبه ، فى تشكيل ذلك النشاط ، وانبثاق حضرة من خلاله [١] .

وإذا كنا قد اتفقنا – تماما – مع كاتبنا الإسلامى فى أن قضية " النشاط الإنسانى " هى قضية التنمية الأولى ، وهى قضية تربوية من الطراز الأول ، إلاننا قد تختلف معه فى أن " العقيدة الموحية " هى فقط مجرد .. عامل مساعد ، وإنما هى فى رأيناه العامل الأساسى والحاسم فى دفع المجتمع ناحية الإسهام فى

---

(١) محمود محمد سفر : إنتاجية مجتمع ، تمامة للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م .

البناء الحضارى ، ودليلنا ينبع من تراثنا الإسلامى العظيم ، فلقد كان العرب هناك فى جزيرتهم .. لآلاف السنين ، قبل الإسلام ، ولكن التاريخ لم يخبرنا بأنهم أسهموا فى حضارة العالم بشئ يذكر ، حتى إذا جاءت رسالة الإسلام العظمى ، ومستهم شرارتها المباركة ، بعد أن رباهم خير معلم أرسل للبشر -ﷺ- ، وتخرجوا من مدرسة الإسلام التى لا تضاهيها مدرسة ، إذا بهم يندفعون كالسيل الجارف ، فى عملية " البناء الحضارى " الرائعة ، والتى لم يمض عليها إلا نحو قرن واحد من الزمان ، وإذا بها صرح شامخ يسطع نوره فى كل مجال، وقد شهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء [١] .

وفى قضية اعتبارنا أن " العقيدة الموحية " هى الأساس فى البناء الحضارى ن وفى دفع الناس نحو " العمل " ، وإتقان العمل " ، بل وممارسته بهمة ونشاط عظيمين ، وكذلك بحماس غير عادى نقرأ لمفكرنا الإسلامى " مالك بن نبى " — رحمه الله — وهو يقارن بين عمال الشيوعية ممثلين فى العامل "اسطخانوف " الذى اتخذوا من كثرة إنجازه فى عمله معيارا يقيسون عليه إنتاج الآخرين .

يقول " مالك بن نبى " وهو يقارن عمل لذلك العامل الشيوعى ببعض الصحابة الكرام من حملة ومبدعى الحضارة الإسلامية فى سنيها الباكرة ، يقول:
فنحن لا يمكننا أن نفكر فى المثل الذى ضربه " اسطخانوف " للطبقة العاملة فى روسيا إبان تنفيذ المشروع الأول للسنوات الخمس ، حين رفع مستوى الإنتاج اليومى إلى الضعف فى مناجم الفحم ، دون أن نفكر فى المثل الذى ضربه " سلمان الفارسى " الذى كان يقوم بأضعاف العمل الذى يؤديه الصحابى

---

[١] أنظر للمؤلف : التربية والتنمية فى لإسلام ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤١٠هـ.

الواحد فى حفر الخندق ، حول المدينة المنورة فى غزوة الأحزاب ، أو الذى ضربه " عمار بن ياسر " حين كان يحمل حجرين على كاهله فى بناء مسجد المدينة ، حيث كان الفرد يحمل حجرا واحدا ، ففى كلتا الحالتين نجد أن الإيمان هو الذى مهد الطريق للحضارة [١] .

ولكن .. شتان ما بين إيمان وإيمان ، ورأينا هنا لا يحتاج لدليل سوى أن نقارن بين الإيمان فى الإسلام وبه ، وبين الإيمان بالشيوعية، إن صح أن يطلق عليه إيمان ، فالتاريخ يقول لنا إن حضارة الإسلام التى أسست على الإيمان استقرت لسنين ، بل لقرون طويلة ، وهى قابلة للإنبعاث والانتشار من جديد ، إذا عاد المسلمون للنبع الصافى من جديد ينهلون منه ، بينما تجربة الشيوعية سقطت سقوطا فاحشا مدويا على رأس أصحابها ، وعلى مرأى ومسمع من جميع الناس فى العالم ، وانتهت بمجتمع مفكك يتصارع فيما بينه ، ويمد يده للخارج طلبا لكل أنواع المعونات ، حتى لقمة العيش ، وعوامل الإنحلال تفعل فعلها الآن فى كل قطاعاته ، وقد أصبحت الجريمة فيه حديث الجميع ، حتى إن الكثير من قيادات الأمن فيه متهمون بتكوين عصابات للسرقة بالإكراه ، وكذا بتهريب الأموال ، وبالإتجار فى المخدرات ، والجنس المحرم ، وتمر على جنود القوات المسلحة فيه شهور وشهور دون أن يحصلوا على رواتبهم .. !!

وعن " الغنام " – رحمه الله رحمة واسعة – فى بحث طيب له ، ينقل سعيد إسماعيل عبارات واعية تؤكد على أهمية دور المدرسة ، وهى إحدى مؤسسات المجتمع التربوية ، فى قضية العمل ، والعمل المنتج بالتحديد ، يقول "

---

[١] مالك بن نبى : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، طرابلس ، لبنان ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩ م ، ص ص ٥٤ – ٥٥ .

إن المطلوب من المدرسة الإسلامية أن تصبح " مدرسة منتجة " ، وهذا يعنى أن تذهب إلى ما وراء جدرانها ، وبعيدا عن حدود التعليم ، كى تبصر " مخرجاتها" والمتمثلة فى " المتعلم " من قبل ، وتنفذ إلى ما حققه هذا التعليم بالفعل من هدف ، وما حققه المجتمع بالفعل من هدفه فى التعليم ، وتوازن بين عوائد هذا التعليم وما أنفق عليه من وقت وجهد ومال .

وبعبارة أخرى تهتم المدرسة الإسلامية المنتجة بمصداقيتها ، أو بمصداقية " وجدوى " تعليمها فى الحياة ، ومعرفة اهتمامها بالجهود والنتائج التنظيمية المتعلقة بالمدخلات والوسائل والمنتجات ، والناتج النهائى داخل جدرانها [1] .

وكدليل على أهمية " قيمة العمل " فى الإسلام العظيم يقول سعيد إسماعيل، وقد خصص كتابا طيبا عن " النبات والفلاحة عند العرب : والإسلام إذ يدعو إلى الزراعة ويحث عليها ، فلأن الزرع والغرس فيهما مادة الغناء للأحياء ، ولذلك قال رسول الله -ﷺ- " من زرع زرعا أو غرساً فأكل منه إنسان أو دابة ، كتبت له صدقة " .

وكذلك قال -ﷺ- : ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة . وفى رواية أخرى : " ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقه ، وما سرق منه له صدقة ، ولا يرْزؤه أحد إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة ".

هذا وقد حث الرسول -ﷺ- على تعمير الأرض فيما اصطلح عليه فى العصر الحالى بـ " استصلاح الأراضى" ، أما التعبير الذى كان مستخدما فهو "

---

[1] سعيد إسماعيل على : رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ ، ص ٢٣٦ .

إحياء الأرض الموات ، أى جعل الأرض غير الصالحة للزراعة مهيأة لذلك ، فقد روت السيدة عائشة – رضى الله عنها – عن النبى – ﷺ – : " من أعمر أرضا ليست لأحد فهو بها أحق "

وقد قال عروة إن عمر بن الخطاب قد قضى بذلك أثناء خلافته ، وعبر عن ذلك – أى عمر – بقوله : من أحيا أرضا ميتة فهى له ، كذلك فعل مثل هذا علىّ بن أبى طالب – رضى الله عنه – فى أرض الخراب .. بالكوفة " [١].

هو – إذن – العمل ،والعمل الدءوب الذى يصر أصحابه على تحويل الأرض الموات فى بلاد المسلمين ، إلى أرض خصبة منتجة معطاءة ، بحيث ينال من خيراتها أولئك العاملون فيها والباذلون جهدهم وعرقهم ووقتهم ، كما أنهم يفيدون منها غيرهم ممن يعولون ، أو غيرهم ، وليس هذا فحسب – وليتنا نتفكر ونتذكر عظمة الإسلام ، وإنما كل من يأكل منها ، حتى ولو أخذ منها دون وجه حق ، بل إن الطير أو الحيوان إذا أكل منها .. عاد الثواب والجزاء الأوفى على من عمل فيها وجد واجتهد ، فأى دين عظيم هذا الذى يحث أتباعه على العمل المثمر فى الدنيا ، والذى يمنيهم بهذا الجزاء الواعد فى الآخرة .. ؟؟ !!

وهل لو وعت التربية فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية هذا البعد العظيم فى " التربية على العمل " ، وخاصة فى مجال فلاحة الأرض ، هل كانت تبقى فى بلادنا قطعة أرض واحدة ، مهما صغرت مساحتها ، وهى دون زراعة أو دون إعمار .. ؟؟

---

(١) سعيد إسماعيل على : النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ص ١٣١ – ١٣٢ .

إن " اليابان " التى نتحدث عنها كثيرا فى مجال الإنتاج الصناعى المتقدم وفى مجال التكنولوجيا المبهر ، هذه الدولة المبدعة لم تغفل جانب " الإنتاج الزراعى" الهام والخطير ، وذلك رغم أن أراضيها الزراعية لا يمكن مقارنتها بالأراضى الزراعية الخصبة فى بلد واحدٍ من بلاد عالمنا العربى .. هو السودان ، كما أنها لا تمتلك من الأنهار الجارية ما يمتلكه السودان .

ثم إن المناخ فى اليابان غير مواتٍ للزراعة ، كما هو الحال فى السودان، ورغم كل ما سبق فإن اليابان – بفضل التربية على العمل ، وبفضل التكنولوجيا المتقدمة فى معالجة التربية الزراعية ، وفى استنبات البذور الجيدة ، واستعمال المخصبات العديدة أفلحت فى سد حاجة حوالى ٨٠% من سكانها الذين يزيد عددهم عن ١٢٠ مليون نسمة [١] .

ولا يقل " العمل " فى البحر عن " العمل " فى الأرض ، خاصة وأن بحار العالمين العربى والإسلامى بحار دافئة بكميات كبيرة ، بل هائلة من الأسماك من كل شكل ، وكل لون . ويكفى هنا أن نذكر – فقط نذكر – بالصراع الذى يجرى فوق مياه البحار والمحيطات بين الدول الواعية ، تلك التى تعرف قيمة ما تحت الماء من ثروات ، حتى إن دولتين غربيتين هما : كندا وأسبانيا كادتا أن تشتبكا فى حرب مسلحة عام ١٩٩٥م ، بسبب الصراع على مناطق معينة للصيد فى المحيط الأطلسى .

كما أننا جميعا نعرف محاولات كثير من دول غرب أوروبا للصيد فى مناطق معينة من شواطئ بلد عربى مسلم ، هو المغرب ، وكيف جرت

---

[١] إدوارد ر. بوشامب : التربية فى اليابان المعاصرة ، ترجمة محمد عبد العليم مرس ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م .

مفاوضات مضنية بين الجانبيـــن لتنظيم ذلك الصيد ، ولوضع اتفاقيـــات تحـــدد شروطه، فأين أســـاطيل صيدنا نحــن العرب والمسلمين حتى نطعـــم ملاييــن الأفـــواه الجائعة في بلادنا ، وحتى نفي دولنا مؤونة أن تكـــون " أيديـــها هــي السفلي " .. طلبا للقروض ، أو استجداء للمعونة " .. ؟؟ أليس من الغريـــب ، أو المستغرب أن تأتي ســـفن اليابان من أقصى الشرق ، أو من الشرق الأقصــــى كي تصيد الأسماك قبـــال الشواطئ المغربية بناء على اتفاقية مضحكــــة بيــن الجانبين (*) ؟؟

لماذا تخلفت تربيتنا عن " الفعل " هنا ، أو عن " العمل " .. ؟ لماذا لـــم تغرس " قيمة العمل " ، " وشرف العمل " ، بل .. " وثـــواب العمـــل " .. فـــي شخصيات طلابنا ، بحيث يندفعون صوبه فـــور تخرجـــهم ، حيـــث مجالاتـــه مفتوحـــة ، بينما المدارس وكذا الجامعـــات في بعض بلادنـــا أعدتـــهم فقـــط " للوظيفة الحكومية"، " ولجلسات المكاتب " ، تلك الوظيفة التي ضـــاقت ذرعـــا بشـــاغليها لدرجة أنها أصبحت تستقبل الآلاف منهم بينما هي في غير حاجـــة إليهم ، وضاقت أكثر وأكثر ، ومن ثم بقيت أعداد منـــهم .. آلاف مؤلفـــة ، لا يمكن تصور أعدادهم .. بلا عمـــل ..!! بل وبلا أمـــل ، حيث مات ذلك الأمل - يقينا - في نفوسهم ..!!

(*) كان ذلك من عدة أعوام ، ونشر ذلك في أحد أعداد جريدة " الشرق الأوسط " وكان الاتفـــاق ينـــص على أن تدفع اليابان ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) دولار - فقط - عن صيد كل سفينة على مـــدار العـــام .. وليتنا نفكر ، أو نتفكر ، يعني أقل من ١٠ (عشرة دولارات) في اليوم .. عشـــرة دولارات تحصلـــها المغرب من سفينة يابانية تعمل بالرادار الذي يرصد تجمعات الأسماك وأنواعها ، والتي تنظف ، وتطهو تلك الأسماك ، وتعلبها وتبيعها لدول العالم النامي التي نحن منها ، ومعنا المغرب ، وتلك هـــي " الســـفن الأم " Mother Ships اليابانية التي تصيد ١٠٠٠ (ألف) طن في الرحلة الواحدة ، سفن أعالي البحار .. !!

ونعود لنقول .. إن لدينا الأرض .. ولدينـــا البحـــر .. ولدينـــا المنـــاخ المواتى.. وكذا لدينا القوى البشرية المطلوبة ، فكيـــف إذن تدخـــل دولنـــا ، أو بالأصح معظم دولنا فى عداد الدول المستدينة إلا أن يكون هناك خطأ ما ، بـــل خطأ فادح فى تربيتنا ، وذلك الخطأ يتركز أساسا فى عدم توجيه وتدريب وحـث طلابنا على " العمل " ، ذلك " العمل " الذى يعز الفرد ، ويحفظ لـــه كرامتـــه ، والذى يرفع من قيمة الدولة ، ويسد ثغرة فى حبار الأمة .

وليتنا نفكر فى مثلين جليين واضحين .. من هنا .. ومن هنـــاك ، مـــن عالمنا نحن ومن عوالم الآخرين ، من مصر .. ومن اليابان .. بالتحديد .

فمنذ بضع سنوات خرجت إحصاءات " البنك الدولى The World Bank"" لتقول لنا إن " مصر " تستورد نحو ٧٠% من القمح الذى تحتـــاجه لإطعـــام أبنائهـــا ، بينما " اليابـــان " تكفى حاجة مثـــل هذه النسبة من ســـكانها ، مـــن تلك المادة الغذائية الأســـاسية . ومعروف أن عدد سكان اليابـــان يكـــاد يكـــون ضعف سكان مصر بالفعـــل (أحدث الإحصاءات ، للعام ٢٠٠٠م ، تقـــول بأن سكان مصر قد بلغوا ٦٧,٢٧٣,٩٠٦ نســـمة ، بينمـــا ســـكان اليابـــان هـــم ١٢٦,١٨٢,٠٧٧ نسمة)[1] .

ومعنى ذلك ، وببساطة شديدة أن الأمر معكوس بينما ، وذلـــك رغـــم أن تاريخ مصر الزراعى يعود لآلاف السنين ، وقد كانت ذات يوم " ســـلة الغـــذاء Basket of Food " التى كانت تمد الأمبراطورية الرومانية بحاجتها من الغذاء ، بل والتى كانت تدين بريطانيا " العظمى " بمبلغ كبـــير جـــدا مـــن الجنيـــهات

---

[1] The World Almanac & Book of Facts 2000, World Almanac Books, New Jersey, U. S. A. 2000 .

الاسترلينية عام ١٩٥٢م ، يوم قامت فيها ثورة الجيش ، ولم يكن ذلك إلا بسبب عمل الفلاح المصرى وجهده " .. !!

ثم .. لماذا تتصدر اليابـان دول العالم فى صيد الأسـماك . وكذا لمـاذا تقفز أمام دول العـالم فى تصدير ذلك السـمك ، بينما لازالت مصر مسـتوردة له .. ؟ كيف يكون عندنـا أعظم بحيرة صناعية فى العالم (بحيرة نـاصر أو السـد أعالى جنوب أسوان) تلك البحـيرة التى تمتد لنحو ٤٠٠ كيلو مترا على الحدود بيننـا وبين السـودان ، وعرضها يصل إلى ٢٠ كيـلو مـترا فـى المتوسط ، والتى تغص بالأسماك التى توحّشت وتضخمت أحجامها ، كما نشرت جريدة " الأهرام " المصرية عام ١٩٧٤م ، والتى نصت على أن متوسـط وزن السمكة من نوع البلطى فى البحـيرة قد وصل إلى ١٠٠ (مائة كيلو جـرام) بينما صيدنا منها قاصر بكل المعـايير ، وذلك فى الوقـت الذى خرجت فيـه سفن الصيد اليابانيـة إلى آعالى البحـار ، فى كل اتجاه ، تغترف من خـيرات الله ، تطعم شـعبها ، وتصدر لدول العالم ، ولتعود بـالآف المـلايين مـن الدولارات لخزائن وطنها المعتز بجهد وعمل وكفاح أبنائـه الذيـن خرّجتـهم التربية اليابانيـة (*) .

ليتنا نفكر .. ونقتنع بأن " التربية " ، والتربية على " العمل المنتج " هـى بالتحديد العامل أو العنصر الفارق فى الحالتين ، وليتنا نفكر .. ونقتنع بأن هـذا "العمل " هو الخطوة الأولى فى طريق بناء الحضارة ، ولعلنا نختم هـذا البعـد الذى يربط " العمل " " بالحضارة " باقتباس من فكر " سفر " ، يقول فى كتابـه " الحضارة .. تحد .. " :

(*) راجع - إن شئت - كتاب " التربية فى اليابان المعاصرة ، لإدوارد ر. بوشامب ، ومن ترجمة المؤلـف ، وخاصة المقدمة التى كتبها المترجم ، وهو من منشورات مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الريـاض ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد بضرورة برامج التوعية والبصير ، فهذه من طبيعة مجتمعنا المسلم ، بما له من خصائص ، وما يتمتع به الفرد فيه من دوافع وحوافز للعمل المثمر ، والعطاء المنتج ، وفى العقيدة الإسلامية من القيم والمبادئ ما يعزز هذه المفاهيم ، فالرسول -ﷺ- يقول : " الدنيا مزرعة الآخرة " .

ولن تجد عملا يؤديه المسلم فى دنياه إلا وهو مرتبط بأخراه ، حتى العبادات لا تخلو من هذا المفهوم ، ولعل إعجاز الآية الكريمة يوضح ذلك : ﴿اعملوا . . آل داوود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور﴾ وصدق الله العظيم ، إن هذا المعنى يحدد بعدا " للعمل " — يقول سفر — أجده جديدا فى معناه ، لأن الآية الكريمة ربطت شكر المولى — جلت قدرته — بالعمل ، والمسلم دائم الشكر لله ، ولذا فهو دائب العمل ، وبقى أن نثير فيه الرغبة فى العطاء ، بأسلوب متقن، وطريقة مثمرة ، حتى يكون التلاحم ، وتنشأ الحضارة ، ورحم الله مالك بن نبى إذ يقول :

" إن مشكلة كل شعب هى فى جوهرها مشكلة حضارته ، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكره إلى الأحداث الإنسانية ، وما لم يتعمق فى فهم العوامل التى تبنى الحضارات أو تهدمها ، وما الحضارات المعاصرة والحضارات الضاربة فى ظلام الماضى ، وكذا الحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون الأولى .. إلى نهاية الزمن ، فهى حلقات لسلسلة واحدة تؤلف الملحمة البشرية ، منذ أن هبط آدم — عليه السلام — على الأرض ، إلى آخر وريث له فيها ، ويا لها من سلسلة من نور ، تتصل فيها جهود الأجيال المتعاقبة فى خطواتها المتصلة فى سبيل الرقى والتقدم .

هكذا تلعب الشعوب دورها ، وكل واحد منها يبعث ليكـــون حلقتـــه فـــى سلسلة الحضارات ، حينما تدق ساعة البعث معلنة قيام حضارة جديدة ، ومؤذنة بزوال أخرى ، وما أجل هذه الساعة ، حينما تؤذن بفجر جديد من المدنية ، وما أهولها من ساعة حينما تعلن غروب أخرى [١] .

وختامـــا :

﴿ وقل اعملوا . . فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

صدق الله العظيم

---

[١] محمود محمد سفر : الحضارة .. تحد ، الكتاب العربى السعودى (٢٤) ، تهامة للنشر والتوزيع ، جـــدة ، ١٤٠٠هـــ .

الفصل السابع

الأصل الجغرافى والأصل التاريخى للتربية

الفصل السابع

الأصل الجغرافى والأصل التاريخى للتربية

الأصل الجغرافى للتربية :

يمثل الأصل الجغرافى للتربية واحدا من الأصول الرواسخ لها ، وإن لم ينتبه التربويون لذلك ، لأسف الشديد ، ففى جميع الكتب والمراجع التى تناولت " أصول التربية " لم نجد - فى حدود قراءاتنا واطلاعاتنا - كتابا واحدا تناول هذا الأصل التربوى الهام ، علما بأن الجغرافيا - فى تأثيرها على الإنسان فيه ، وتأثره بها ، إنما هى فى حقيقة الأمر ، نسبق التأريخ والاجتماع والفلسفة والسياسة والاقتصاد والإدارة والإعلام ، كما تسبق أى أصل آخر يمكن أن نفكر فيه .

إننا حين نتحدث عن أى إقليم ، باتساع العالم ، من حيث موقعه (الموقع هو أول ما يدرس للطلاب فى كتب الجغرافيا الإقليمية ومقرراتها) إنما نتحدث عن أمور شتى تؤثر فى سكان ذلك الإقليم ، وفى تربيتهم لأطفالهم ، ولعلنا نبين ذلك فى النقاط التالية :

أولا :

كون الدولة توجد فى موقع وسط بالنسبة للقارة التى توجد فيها يمثل وضعا معينا لذويها ، وأهمية خاصة ، لأن هؤلاء السكان إما أن يكتسبوا ميزة أو ميزات من هذا الموقع ؟ أو أن يفقدوا هذه الميزة .. أو الميزات .

إنهم إن كانوا فى منطقة متوسطة ، مثل كثير من دول حوض البحر المتوسط ، خاصة فى قسمه الجنوبى ، الذى يمثل الشاطئ الشمالى للقارة الإفريقية ، وبالتحديد موقع مصر التى وهبها الله - سبحانه وتعالى - نهر

النيل ، أطول أنهار العالم ، وأسبقها فى تجميع البشر حول واديه والدلتا ، مع توفر عنصر المناخ العام الذى يكاد يكون معتدلاً على مدار العام ، مع استثناءات محتملة صيفا وشتاء ، نقول إن السكان الذين وهبهم الله - جلت قدرته - قد استفادوا من ذلك الموقع فى تربيتهم لأبنائهم على استئناس النهر وترويض فروعه ، خاصة فى الدلتا فى مجرى النيل الأدنى ، ولعلنا نقرأ - مستفيدين - لأشهر وأجل علماء الجغرافيا ، وأعظمهم فى بعد النظر ، ودقة التحليل ، فى العالم العربى ، د. جمال حمدان - رحمه الله - يقول عن موقع مصر ، فى مؤلفه الموسوعى " دراسة فى عبقرية المكان .. شخصية مصر " والذى بلغ حوالى ألفى صفحة (٢٠٠٠) يقول العالم الجليل ، فى فصل كامل بعنوان " موقع مصر الجغرافى .. عبقرية الموقع إن " مصر تنفرد بأنها تتوسط كلا من خط الاستواء الاستراتيجى أو الجغرافى خط الاستواء البشرى أو التاريخى فى العالم القديم . وطبيعى بعد هذا أن يكون موقع مصر الجغرافى العام موقعا فريدا بارزا إلى أقصى حد . بل إن من المحتمل أنه لا يوجد على خريطة العالم الطبيعية أو البشرية ، السياسية أو الاستراتيجية ، موقع يعادله فى الأهمية والقيمة ، حتى فى الفترات العارضة التى تقلصت فيها هذه القيمة فعلا ، ظلت قيمته الكامنة كما هى .. فى الصدارة ، ومن هنا فلقد عدت مصر ، ولا عجب ، أخطر موقع استراتيجى فى الدنيا ، وأكبر دولة برزخ ودولة طريق وترانزيت ، أو دولة ممر وعبور فى العالم . إنها.. لا نقول " عاصمة العالم " ولكن بسهولة " أهم بلد فى العالم " ، كما وصفت بالفعل [1] .

---

[1] جمال حمدان : دراسة فى عبقرية المكان .. شخصية مصر ، المجلد الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٨١م ، ص ٧٨٧ .

كذلك فإن الموقع على ساحل البحر أو المحيط يختلف عن الموقع الداخلى لقطر من الأقطار ، فمما لا شك فيه أن الموقع البحرى يعطى أصحابه ميزة الانفتاح على الآخرين من خلال سفنهم المارة ، وتجاراتهم وسلعهم العابرة ، وبالتالى الإطلاع على ما عندهم من حضارة مادية وثقافية.. إلخ . بينما العزلة القارية فى الداخل لا تعطى أصحابها هذه الفرصة ، وإن كانت تمنحهم فرصة نادرة للحماية بحيث لا يستطيع الآخرون الاعتداء عليهم بسهولة ما بين حين وآخر . والمثل هنا من بلاد الأفغان التى ظلت ، فى العصور السابقة ، بعيدة عن أطماع المستعمرين الإنجليز الذين استعمروا شبه القارة الهندية (الهند وباكستان) لسنوات طويلة ، فلما فكروا ذات يوم فى مد شرورهم واستعمارهم ناحية الشمال ، حيث أفغانستان ، وأرسلوا حملة عسكرية إلى حدودها بعشرات الآلوف من جنودهم قضى عليها الأفغان قضاء مبرما ، حيث أبيدت تلك الحملة عن بكرة أبيها داخل حدود أفغانستان ، الدولة الجبلية الداخلية ، ولم تستطيع بريطانيا العظمى ، كما كانت تسمى آنذاك ، وصاحبة السمعة الهائلة فى القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، بل والتى كان يطلق عليها " الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، هذه الامبراطورية لم تستطع أن تنفذ أحداً من بينها ممن شاركوا فى هذه الحملة الاستعمارية التعيسة ، وذلك باستثناء جندى واحد تركه لهم الأفغان حيًّا ، عن قصد ، حتى يعود إلى قواعدهم فى الهند ليخبر قيادته بالهول والرعب اللذين واجهتهما الحملة فى بلاد الأفغان .. !!

ثانيا :

وحين نتحدث عن سطح هذه الدولة أو تلك ن ونتوسع فى شرح مميزات ذلك السطح من أنه أرض سهلية تنشر فيه الأنهار وفروعها ، أو تتناثر فى أرضه البحيرات العذبة (فى ولاية واحدة من الولايات المتحدة

الأمريكية توجد عشرة آلاف بحيرة طبيعية عذبة .. هى ولاية فينيسوتا) ، ولا شك أن المجتمعات البشرية التى توجد فى مثل هذه البيئات الجغرافية تعلّم أبناءها وتربيهم على التعامل مع تلك المعطيات ، فمصر منذ قديم الزمان علمت أبناءها التعامل مع نهر النيل ، خاصة فى دلتاه ، شمال الوادى الوادى ، بحيث استطاع المصرى القديم أن يمهد البيئة المجاورة للنهر ولفروعه (دمياط ورشيد) وغيرهما مما كان موجودا من قديم الزمان ، بل وعلمتهم كيف يتقون غضب النهر حين يفيض ، وحين يغرق الأرض ويغمرها بمائه وطميه ، وكذلك حين يغيض النهر ويقل ماؤه أو يشح .

وفى العصر الحديث رأينا كيف استطاع محمد على باشا أن يقيم القناطر الخيرية التى نظمت خروج الماء جنوب الدلتا ، خاصة بعد أن أنشأ الحاكم الواعى والنابه ثلاثة فروع جديدة للنهر غطت الأرض المصرية شمالا حتى البحر الأبيض المتوسط ، هى فروع أو رياحات " التوفيقى " ، " البحيرى " ، " والمنوفى " ، كما حفرت " ترعة الاسماعيلية " ، شمال القاهرة لتتجه شرقا كى تمد مدن قناة السويس الثلاث الإسماعيلية وبورسعيد والسويس بالماء العذب حتى يستفيد منه سكان المدن الثلاث فى الشرب والزراعة بعد أن تغيرت طبيعة هذا الإقليم بعد حفر " قناة السويس " التى وصلت البحرين الأبيض والأحمر فى الستينات من القرن التاسع عشر .

كذلك إذا كان سطح الإقليم هضبة مرتفعة تطل على ما جاورها ، أو كان أرضا جبلية وعرة مضرسة ، أو ذات جبال شامخة شاهقة الارتفاع ، فإننا يجب أن ندرس تربية السكان لأبنائهم فى هذه المناطق ، وفى ذهننا ما يقوم به السكان من تربية أبنائهم على أنواع معينة من النشاط الاقتصادى والسياسى ، وحتى الاجتماعى .. نتيجة هذا النوع من السطح أو ذالك .

ومن ناحية أخرى فإن سكان المناطق السهلية عادة ما يكونون هادئى الطباع ، لطيفى التعامل والمعشر ، كما أنهم ، من جانب آخر ، يكونون أسهل فى قيادتهم من سكان المناطق الجبلية الوعرة التى يصعب الوصول إليها ، ومن ثم السيطرة عليها . ومما لا شك فيه أن السكان يفعلون ذلك ، ويعلمونه بالتالى لأبنائهم ، كى يعيشوا من بعدهم ، ولنا مثلان من ذلك فى عالمنا الإسلامى .

المثل الأول من المجتمع الجزائرى المسلم ، حيث استطاع الاستعمار الفرنسى الغاشم أن يحتل الأرض الجزائرية - فى فترة المد الاستعمارية البغيضة فى القرن التاسع عشر ، وقد تم الاحتلال الفرنسى للجزائر عام ١٨٣٠م ، وقد قلنا إن فرنسا استطاعت أن تحتل " الأرض الجزائرية " لأنها لم تستطع أن تحتل الشعب الجزائرى ذاته ، وخاصة فى المناطق الجبلية ، ورغم استخدام فرنسا لكل الأسلحة التى كانت معروفة آنذاك ، وعلى مدار مائة وثلاثين عاما إلا أنها لم تستطع أن تخضع الشعب الجزائرى المجاهد عن دينه ، والمكافح المناضل عن أرضه وموارده ، حتى تم طرد الاستعمار الفرنسى عام ١٩٦٢م .

والمثل الثانى يأتينا من بلاد الأفغان تلك التى خطط الروس الشيوعيون لغزوها . والاستيلاء عليها بالكامل عام ١٩٧٩م ، ولم يكونوا - بطبيعة الحال- يتصورون أن الشعب الأفغانى ، القليل العدد ، والفقير الموارد ، يمكنه أن يقف فى وجه قواتهم المسلحة ، وقد كانوا فى ذلك الوقت " القوة العظمى الثانية " فى العالم ، وقد استخدموا فى قتالهم للأفغان كل ما أنتجته مصانعهم من أسلحة للدمار والتخريب حتى قتلوا من الشعب الأفغانى المسلم أكثر من مليون شهيد (مثلهم مثل الجزائريين) ، وقد اعتصم الأفغان بدينهم،

كما استفادوا من طبيعة بلادهم الجبلية ، وناضلوا لعشر سنوات تقريبا ، دون توقف ن حتى أرغموا المحتلين الشيوعيين على الانسحاب من أراضيهم يجرجرون أذيال الخزى والهزيمة والعار ، بل يقال الآن فى التحليلات السياسية أن حرب الأفغان ضد الروس كانت سببا رئيسيا من أسباب انهيار الاتحاد السوفيتى المخزية ، والتى كشفت حقيقة الأوضاع فيه ، وعرته أمام العالم كله كقوة من قوى الشر العالمية [1] ، وأنه ليس دولة مناصرة لشعوب العالم الثالث ، كما كانت دعاية السوفييت ومن يناصرونهم فى عالمنا تقول ، ولا زال هذا الوضع يتكرر من الشيوعيين السوفييت هذه الأيام (عام ٢٠٠٠) فى بلاد الشيشان .

ثالثا :

وأما عن قضية " المناخ " بعناصره المختلفة ، ومن حرارة أو برودة ، ومن جفاف أو رطوبة ، كل ذلك يشكل شخصية الإقليم أو المنطقة ، وفى ضوئها يعمل السكان ويتعاملون ، فالمناطق المعتدلة الأمطار المتوسطة تجتذب السكان للإقامة فيها والعيش ، وتربية الناشئة من أبنائهم على الاستفادة من تلك الميزة ، بينما المناطق الشديدة الحرارة النادرة الأمطار ، أو التى تنعدم فيها تلك الأمطار ، فإنها تكون مناطق " للطرد البشرى " ، بعكس المناطق السابقة التى تمثل مناطق للجذب البشرى .

ولقد شهد التاريخ هجرات ضخمة من مناطق الجفاف هذه ، على سبيل المثال ، من وسط آسيا ، حيث خرجت قبائل " الهكسوس " الرعوية من سهوب آسيا لتستمر فى اندفاعها ناحية الجنوب والجنوب الغربى حتى دخلت

---

(١) محمد عبد العليم مرسى : أفغانستان المجاهدة أمانة فى أعناق المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م .

صحراء سيناء التى تمثل " البوابة " الشمالية الشرقية لمصر ، فعبرتها متجهة إلى وادى النيل ودلتاه ، حيث الخصوبة والنماء نتيجة المناخ المعتدل ، وقاتلت المصريين القدماء ، وتغلبت عليهم ، بفضل " العجلة الحربية " التى تجرها الخيول ، وقد كانت سلاحا جديدا فوجئ به المصريون . ولقد استولى " الهكسوس " على " طيبة " عاصمة مصر ، بعد أن فر حكامها ملتجيئن ومحتمين بالصعيد ، أو " مصر العليا " ، إذا استخدمنا التعبير الجغرافى الشهير .

ومما لا شك فيه - فى هذا المثل - أن هؤلاء القوم ، الهكسوس قد ربوا أبناءهم على الغزو والاعتداء على الآخرين ، نتيجة لقحط وجدب بيئتهم الأصلية ن واشتداد الجفاف فيها ، ولكن من ناحية أخرى نجد أن الإنسان المصرى الذى كان يعمل فى حقوله مستقرا هادئا وآمنا ، والذى لا شك انه كان يربى أبناءه على احتراف الزراعة والعمل والإنتاج ، وعلى حسن الجوار ، واحترام ملكية الآخرين ، هذا الإنسان فوجئ - لا شك - بهذا العدوان من أفراد مجتمع آخر ، ومن هنا فقد غير وبدل من أهداف تربيته لأبنائه فأصبح من بينها " التدريب " على الآلة العسكرية الجديدة (العجلة والحصان) حتى أتقن فنونها ، وعرف كيف بكر بها وكيف يفر ، ثم صنع منها كميات كبيرة ، وهذه تربية على العمل المتقن ، والإنتاج الكثيف الذى يكفى جيشا بأكمله .

وبعد أن تم له كل ذلك هناك فى مأمنه ، فى مصر العليا ، اندفعت قواته هابطة ناحية الدلتا فى حملة عسكرية قوية كالبركان ، سريعة كالإعصار ، مندفعة تكتسح الغزاة الغاصبين الذين كانوا قد استقروا فى دلتا مصر مطمئنين ، ودارت معارك طاحنة بين أصحاب الأرض وبين المعتدين،

وقد انتصر فيها أصحاب الحق ، وهزم المعتدون الذين فروا إلــى بلادهـم عائدين بعار الهزيمة ، ومن ورائهم المصريــون يقــاتلون فيــهم ويقتلــون ويأسرون حتى أعادوهم إلى أوكارهم التى جاءوا منها فى وسط آســيا ، ولا زالت صور أسراهم واضحة للعيان ، إلى يومنا هذا ، على جدران المعــابد فى مصر .

رابعا :

وحين نصل إلى أعمال السكان فى الإقليم الجغرافى نجد أنه من أشــد الأمور التصاقا بالتربية حيث نعلم أن العمل لا يكون إلا من خــلال التعليـم والتدريب ، ومنذ المجتمعات البدائية فى عصور ما قبل التاريخ إلى أحــدث المجتمعات فى الوقت الحاضر ، وقضية " العمل " هذه ترتبط أشد الارتباط " بالتربية " والتدريب .

إن غنى الأقاليم الجغرافية بالثروات الطبيعية Natural Resources لا يعنى أنها قد تحولت إلى ثروات اقتصادية Eoanomic Fortunes . إن ذلك لا يحدث حتى يعى السكان أن عليهم أن يُعمِلوا العقول التى منحهم الله إياهــا فى استخراج كنوز الأرض ، وفى التعامل معها بحيث تتحول إلــى انتــاج اقتصادى يصلح للاستهلاك البشرى ، كما يصلح للتداول بينهم وبين غــيرهم من شعوب الأرض .

والمثل الشديد الوضوح هنا هو من قارة أمريكا الشمالية التى كانت فــى موقعها منذ آلاف السنين ، بما وهبها الله من سعة هائلة تمتد مــن المحيـط الأطلسى فى الشرق إلى المحيط الهادى فى الغرب ، ومــن حـدود القطـب المتجمد فى أقصى الشمال البارد إلى حدود المنطقة المدارية الحــارة علــى أطراف النصف الثانى من العالم الجديد ، ونعنى بها قارة أمريكا الجنوبية .

وداخل هذه القارة (أمريكا الشمالية) أودع الله - سبحانه وتعالى - خيرات بكر هائلة بلا حدود ، فجبال خضراء هائلة فى الشرق (جبال الأبلاش) ، وجبال عظيمة الارتفاع تنحدر منها مسيلات المياه فى الغروب (سلاسل جبال روكى) ، وسهول ساحلية خصبة فى أقصى الشرق ومثلها فى الغرب ، وفيما بين جبال الشرق وجبال الغرب توجد منطقة السهول العظمى The Great Plains التى تضم عددا كبيرا من الأنهار والبحيرات العظمى الداخلية The Great Lakes التى لا يوجد لها نظير فى العالم ، وحول كل هذا وذاك توجد أراضى زراعية وقابلة للإنتاج الزراعى بملايين الأفدنة التى تعز على الحساب .

وفوق كل هذا .. وتحته .. وحوله .. ثروات طبيعية لا تحصى ، من الأسماك فى البحار والمحيطات والأنهار والبحيرات ، إلى الحيوانات البرية المتوحشة والمستأنسة بلا عدد ، إلى معادن لا حصر لها فى باطن الأرض.. من البترول إلى المنجنيز ، ومن الحديد إلى الفوسفات ، ومن الفحم الحجوى إلى النحاس .. إلخ .

ورغم كل ذلك فلقد كان يعيش فوقها أناس لا يعرفون قيمة ما عندهم هم الهنود الحمر حتى داهمتهم العناصر الأوروبية الهاربة من أوطانها بفعل الجدب الاقتصادى ، أو بفعل الاضطهاد الدينى فى بلادهم ، وقامت بينهم حروب طاحنة كانت الغلبة فيها فى نهاية الأمر للعنصر المتقدم ، صاحب السلاح الأفعل والأفتك ، ووظف السكان ، أو المستعمرون الجدد علمهم وخبرتهم فى تربية أبنائهم على الاستفادة من كل ما أصبح تحت أيديهم ، وفى أقل من مائتى سنة (هى عمر الولايات المتحدة الأمريكية بعد إعلان الاستقلال) ظهرت تلك الدولة وهى عملاقة فى مجال الاستثمار الاقتصادى، وأصبحت بذلك من الدول التى تحتل المراكز الأولى ن بل هى الدولة

الأعظم، والقوة التى يعمل لها الجميع ألف حساب الآن فى السياسة الدولية وفى العلم والاقتصاد بفضل الجهد والعلم والعمل والتربية الجادة التى ربى مجتمعها أبناءها عليها .

والمثال الآخر عكس ذلك تماما ، ونقصد به اليابان ، تلك الدولة التى تقع فى أقصى الشرق من آسيا ، والتى لا تكاد تمتلك من مقومات العناصر الطبيعية الجيدة شيئا مما تمتلكه أمريكا ، ويكفى أن نذكر أن مساحة اليابان لا تتعدى ٤% فقط من مساحة الولايات المتحدة .. !! ورغم ذلك فإن هذه الدولة الصغيرة الحجم (جغرافيا) ، وبالتالى التى لا تمتلك من المصادر الطبيعية شيئا يذكر ، والتى تعاندها الطبيعة بشكل ملحوظ لدرجة أن هذه المساحة البسيطة التى تمتلكها جزء منها جبلى ، ومناخها قاسى ، خاصة فى الشتاء ، ثم إن الزلازل لا تتركها فى حالها حيث تضربها من حين لآخر ، أقول ورغم كل ذلك فقد اتخذ اليابانيون من هذا " الأصل الجغرافى " القاسى دافعا للتحدى العظيم فأدخلوه فى تربيتهم لأطفالهم حيث يعلمونهم كيف يواجهون تلك الطبيعة القاسية بالجهد والعمل والعناد والإصرار ، ويكفى أنهم يدرسون تلك الطبيعة لأبنائهم لساعات طويلة منذ المرحلة الابتدائية [١] ، كما أنهم نحوا بتربيتهم لهؤلاء الأبناء نحو العمل والإنتاج بحيث أنهم أخذوا يستوردون كميات هائلة من جميع المواد الخام من دول العالم الأخرى ، ثم يصنعونها ، وأصبحت حركة السفن المحملة بالبضائع اليابانية الخارجة من موانى اليابان لا تدانيها حركة فى العالم ، بل وصار إنتاجها الهائل ينافس أنواع الإنتاج الأخرى فى دول العالم الصناعية الكبرى ، فى غرب أوروبا كله ، والمشهود له بالقدم الراسخة فى الإنتاج الصناعى ، منذ عصر الثورة

---

[١] إدوارد د. بوشامب : التربية فى اليابان المعاصرة ، ترجمة محمد عبد العليم مرسى ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

الصناعية ، وفى الولايات المتحدة الأمريكيـــة صاحبـــة أعتـــى الشـــركات الصناعية والتجارية ، باتساع العالم ، ورغم ذلك فإن هناك صناعات حساسة وخطيرة الآن ، هى صناعة الاليكترونيات ، والحاسبات الآلية .. تلك التـــى تكاد اليابان أن تنفرد بها ، وتتفوق على أمريكا ، لدرجة أن لديـــها أنواعـــا خاصة منها يطلق عليها اسم " أشـــباه الموصـــلات Semi Conductors ، وهى قطع اليكترونية بالغة الدقة والحساسية ، تنفرد اليابان بصناعتها وتتفوق فيها ، وتحتكر الولايات المتحدة الأمريكية شراءها ، أو استيرادها من اليابان، من خلال وزارة الدفاع لديها والمعروفة باسم البنتاجون The Pentagon ، وهى تزود بها صواريخها ، بعيدة المدى والعابرة للقارات K وهذه القطـــع الحساسة هى التى تقوم بمهمة توجيه تلك الصواريخ إلى أهدافـــها البعيـــدة ، ونسبة الخطأ فى عملها لا تتعدى واحد فى المليون .. !!!

وكان هذا الوضع الصناعى الدقيق والمتميز .. والمنفرد كذلـــك ، وراء تهديد وزير المواصلات اليابانى العظيم " شينتارو إيشيهارا Ishihara " ، فى عهد حكومة " ناكاسونى " قبل مطلع التسعينات من القرن الذى انقضى مـــن شهور قليلة ، تهديده بأن اليابان يمكنها أن تقلب موازين التسلح فى العالم فيما لو فكرت فى بيع تلك الأليكترونيات البالغة الدقة والحساسية لدولة أخرى غير أمريكا ، وكان يعنى " الاتحاد السوفييتى " قبل أن يتفكك وينهار . ولقد كتـــب الرجل ذلك صراحة ، وأذاعه فى خطبه الانتخابية فى بلده .. اليابان ، بـــل ونشره فى كتاب أقام الدنيا وأقعدها .. بل ولم يقعدها .. فى أمريكا ، والـــذى يقرأ ذلك الكتاب بعناية يجد أن الرجل الحصيف يعود بالتقدم اليابـــانى إلـــى جذوره الحقيقية .. ونعنى به .. التربية اليابانية [١] .

---

[١] Shintaro Ishihara : The Japan That Can Say : No, Translated by Frank Baldwin, Simon & Sehusten, N. Y., 1991 .

الأصل التاريخى للتربية

من المعروف والمسلم به لدى دارسى العلوم الاجتماعية المتخصصين أن الجغرافيا تسبق التاريخ ، وتحكم حركته ، ومن هنا فإن أهميتها وأهمية عناصرها هى التى تتحكم فى صنع الحدث التاريخى ، حتى قبل جهود البشر أنفسم ، الجغرافيا بالشكل الذى وضحناه سابقا ، من موقع حاكم ، إلى مناخ متحكم ، ومن سطح أو تضاريس مؤثرة ، إلى مصادر للثروات الطبيعية فاعلة ، فيما لو عرف البشر كيف يستفيدون منها ، وكيف يوظفون عقولهم التى وهبهم الله إياها .

وعلى مدار عصور التاريخ البشرى ، وبين ثنايا حقبه المختلفة ، كان التاريخ الإنسانى هو النتاج الطبيعى لتفاعل عناصر الجغرافيا مع جهود البشر وصراعاتهم ، ولم تؤسس الحضارات البشرية فى أحواض الأنهار فى التاريخ القديم إلا نتيجة لتفاعل الإنسان فى تلك المناطق مع عناصر الجغرافيا المواتية فيها ، هكذا يقول لنا تاريخ حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط فى كل من مصر القديمة حول نهر النيل العظيم فى واديه والدلتا ، حيث أسس المصريون القدماء حضارة هى من أقدم حضارات البشر ، ومن أرفعها مكانا فى سلم تلك الحضارات الإنسانية بفعل ما أضافت من علم وتطبيقات علمية تبدت فى أعمال الزراعة المتقدمة ، وفى بناء المدن ، وبناء الأهرامات وغيرها ، وأكثر من ذلك تبدت فى اختراع الكتابة ، ومن ثم فى تسجيل أحداث التاريخ الذى عاشه أفراد الشعب المصرى وملوكه ، بل إنهم سجلوا وقائع ذلك التاريخ خارج حدود بلادهم ... كما سجلوا رحلاتهم فى نهر النيل، بل ورحلاتهم فى البحر الأحمر حين داروا حول شواطئ إفريقيا ،

وكذا رحلاتهم فى البحر المتوسط وتعاملهم مع البلاد الواقعة على سواحله الشرقية في بلاد بنط .

ونفس هذا الكلام يمكن أن نعممه على مناطق الأنهار الكبرى فى المنطقة وغيرها ، فحول نهرى دجلة والفرات (إقليم ميروبوتاميا) أسست حضارة بابل وآشور ، وحول أنهار الهند والسند والصين أقيمت حضارتان معروفتان فى ذلك الجانب من قارة آسيا ، وكان لكل حضارة من هذه الحضارات إسهاماتها المعروفة على سلم الرقى الإنسانى .

ومما لا شك فيه إن إنسان ذلك التاريخ القديم كان يعلّم أبناءه وأجياله الصاعدة عن خبراته التى يمر بها ، مع الطبيعة التى خلقها الله من حوله ، ومع أفراد المجتمع الذى يعيشون بينهم ، وعن النظم الاجتماعية والاقتصادية التى اقاموها لتسيّر حياتهم ، وكذا عن التحديات التى تواجههم على أرضهم، سواء من عناصر الطبيعة التى تقسو عليهم أحيانا ، أو من البشر الآخرين ، الذين يعيشون خارج مجتمعهم ، والذين طمعوا أحيانا فى بعض ما أفاء الله عليهم من خيرات ، ومن هنا جاءوا يقاسمونها إياها عنوة واغتصابا .

وعكس هذه الحضارات جميعا كانت " الحضارة الإسلامية " التى نشأت فى إقليم جغرافى لا زرع فيه ولا ماء . ونستند فى قولنا هذا إلى كلام الله – سبحانه وتعالى – الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد : حين يقول على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ﴿ ربنا إنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ . فهو إذن إقليم جدب لا زرع فيه ، لأنه لا ماء فيه يكفى لقيام زراعة يجتمع من حولها الناس ويبنون ويقيمون ، ورغم ذلك نبتت هناك بذور تلك الحضارة الإسلامية الرائعة التى عمت بنورها أركان العالم المعروف آنذاك فى

قارات آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وما كان ذلك إلا لأن الإنسان العربى تغـيّر "بالتربية الإسلامية " التى نزل منهجها من فوق سبع سموات ن من لدن حكيم خبير ، وقد تولى تعليم وتربية هذا الإنسان خير معلم وأسمى مربى -ﷺ -. وبتغيّر الإنسان بدأت الحياة من حوله تتغير ، فهو الأساس فى كل عمليـات التنمية والتحضير والتغيير ، وبدأ يتضح للعالم المعروف آنـذاك أن تـاريخ البشرية قد فتح صفحة جديدة ناصعة فى كتابه يسجل فيها أن تربية الإنسـان بالإسلام أهم وأفعل من كل المقومات الجغرافية التى يقـول العلمـاء أنـها أساسية لقيام الحضارة .

وشيئ قليل من المقارنة يبين مـا نقـول ، فرغـم اسـتمرار بعـض الحضارات السابقة على الإسلام لآلاف السنين إلا أن أثرها فى عالم اليوم لا يكاد يذكر بجوار حضارة الإسلام ، وبجوار استمرارية وثبات ما جـاء بـه محمد -ﷺ - فشتان بين أن نقرأ - مجرد قراءة عـن تـاريخ الحضـارة المصرية القديمة أو الحضارة الأشورية والبابلية ، وكذا الحضارة الصينية أو اليونانية والرومانية ، وبين أن نرى الإسلام يعيشه الناس وبمارسون ما جاء به من شعائر إلى يومنا هذا ، وباتساع المعمورة ، وسوف يستمرون هكـذا إلى أن تقوم الساعة بإذن الله ، لسبب واحد معـروف وبسـيط ، وهـو أن الإسلام جاء من عند الله ، وأنه سوف يحفظه إلى أن تقوم السـاعة ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

ونحن نتحدث عن " الأصل التاريـخى " للتربية ينبغى علينا أن نؤكـد على أن القـرآن الكريـم قد أعطى السـلف العظيم من صحابة رسـول الله -ﷺ - ، مفاتيح ذلك " الأصل التاريخى " من الأقوام الذين سبقوهم ، حتـى يتفكروا ، وحتى يعتبروا ، وحتى يستفيدوا مما مر بهم من أحداث ، ونقـرأ

بعض آيات الكتاب الكريم فى هذا المجال لنتبين منها المعنى الـــذى نريـــد ، يقول الحق - تبارك وتعالى - :

﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (آل عمـــران / ١٣٧) ، ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكنا لهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ (الأنعام / ٦).

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ﴾ (يوسف / ١١٩) .

﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (النمل / ٣٦) .

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (النمل / ١٤) .

﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيئ فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾ (فاطر / ٤٤) .

﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾ (غافر /٢١) .

﴿أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾ (الأنعام / ٦) .

﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون﴾ (الأنعام / ٤٢) .

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (هود/١٠٢)

﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ (الأعراف/٨٠) .

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط﴾ (هود/٨٤) .

﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ (هود / ٨٩) .

﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما

أصابك إن ذلك لمن عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ (لقمان / ١٦ – ١٩) .

وهكذا فى آيات بينات وراء آيات يقص الحق - تبارك وتعالى – قصص الأقوام السابقين على الرسول -ﷺ- كى يتلوها على المؤمنين ليعرفوا أخبار من سبقهم ، وليتدبروا من بعد علم ومن بعد معرفة ، وليعظوا ويعتبروا مما جرى لهؤلاء الناس ، وليدخل كل ذلك فى تربيتهم على يد المعلم الأسمى -ﷺ- ثم فى تربيتهم هم للأجيال الناشئة من أبنائهم .

إنها دروس تربوية رائعة من حقائق ما جرى للأقوام السابقين ، والله – سبحانه وتعالى – يطلب من عباده المؤمنين أن يسيروا فى الأرض ، وأن ينظروا حولهم فيها ليروا عاقبة الذين كذبوا ، فهذا درس فى توقع حدوث الكوارث لمن يكذب بالرسالة ، ولمن لا يطيع ، وهى – أى الآيات – تسوق لهم الدليل الحى الماثل أمام عيونهم لما جرى للمكذبين ، فمهما كانوا أقوياء متمكنين فى الأرض ، ومهما أمد الله لهم من سبل العيش الرغيد على وجه الأرض إلا أن ذلك لم يغن عنهم حين كذبوا الرسل ، وحين ارتكبوا المعاصى ، فاستحقوا العقاب الذى أنزله الله بهم .

والمولى – جل وعلا – يضرب لنا الأمثال ﴿وضربنا لكم الأمثال ﴾، ويوقظنا بعبارات واضحة ﴿ أفلا تعقلون﴾ ، ﴿ أفلا تبصرون ﴾ ، ﴿ أفلا تسمعون﴾، حتى ينبه الغافلين منا ، أولئك الذين لا يكادون يستفيدون من حواسهم التى منحهم الله إياها من العقل إلى السمع إلى البصر ، وهو – جلت قدرته – يطلب منا أن نربط بين هذه الحواس وبين توظيفها فى فهم تواريخ الأقدمين ،

وفى الإحساس العميق بقدرة الله على عقاب الذيـن ينحرفـون عـن جـادة الصواب ، وعن الطريق المستقيم ن وهو يسوق لنا أخبارهم وما جرى لـهم ليبين لنا أننا إذا لم نستفد من تلك القصص فإنه يمكن أن يحل بنا ما حل بهم، وأن يقع لنا ما وقع لهم ، فتلك سنة الله فى خلقـه ، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾، ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾، وليست هنـاك تربية أعظم من ذلك عند الحديـث عن التاريخ ، وعن " الأصول التاريخية " التى ينبغى أن نستمد منها تربيتنـا لأبنائنا .

وإذا كان هذا هو قصص القرآن الكريم – الذى أوردنا بعضنا منـه – وقد أنزل على قلب الرسول –ﷺ– كى يتلوه على أصحابه ، وكى يربيـهم على هداه ، وكى يتربى المسلمون أجيالا وراء أجيال على أساسه فإن هنـاك آيات أنزلت على الرسول –ﷺ– مباشرة ، وهى كلها تربية للمسلمين مـن واقع توجيهها لنبيهم – عليه أفضل الصلاة والسلام – وينبغى ان تكون فـى أعيننا ونحن نبحث فى " الأصول التاريخية " للتربية عندنا ، ولنقرأ بعـض تلك الآيات فى سورة واحدة فقط من سور القرآن العظيم ، وكلها فى صميـم التربية ، يقول الحق – تبارك وتعالى – : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا . إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جلعنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خيرا وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمشى فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها . ذلك مما اوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا ﴾ (الإسراء / ٢٣ — ٣٩) صدق الله العظيم .

الفصل الثامن

الأصل الاجتماعى للتربية

الفصل الثامن

الأصل الاجتماعي للتربية

مدخـــل :

من المعروف أن الجنس البشرى الذى خلقه الله - سبحانه وتعالى - انتشر على سطح الكرة الأرضية ، وتوزع على بقاعها المختلفة ، فى تجمعات سكانية تبلورت حول نفسها ، مكونة ما عرف بعد ذلك باسم الجماعات البشرية المختلفة ، تلك التى أصبحت لها ، فيما بينها ، مصالح مشتركة تمثلت فى الأرض التى تعيش عليها ، بما لها من مقومات تمثلت فى طبيعة تلك الأرض سواء كانت سهلية أو جبلية ، مستوية أو مضرسة ، ذات أنهار ومسيلات مائية ، أو ذات عيون تتفجر بالماء ، أو ينابيع وآبار .. إلخ.

ثم إن هذه الجماعات البشرية مرت بخبرات طويلة صنعت لها تاريخا مشتركا ، مع الأرض ، ومع الجيران ، سواء كان هذا التاريخ سهلا بلا مشكلات مثل مسيلات الماء الهادئة ، أو كان عنيفا مثل الشلالات الهادرة ، وهذه الجماعات فى تفاعلها مع بعضها على أرضها كونت فيما بينها أنماطا من العلاقات والتفاعلات ، وارتضت معايير معينة تحاكم سلوكيات أفرادها على أساس منها ، وقيما تحكم سلوك أفرادها فى ضوئها ، ثم إنها وضعت نظما للعلاقات بين أفرادها تنظم سلوكياتهم فى الفرح ، كما فى الحزن ، عند الميلاد ، وعند الممات .. إلخ .

وأصبح من المسلم به أن الكبار فى المجتمع يفيضون على من هم أصغر منهم بعلمهم وخبراتهم التى اكتسبوها ، ينشئونهم عليها ، ويربونهم على هدى منها ، تارة بالشرح المباشر ، وضرب الأمثلة ، وتارة بسلوكيات

هؤلاء الكبار التى ينشربها الصغار منهم فى مواقف الحياة المختلفة ، ولعل هذه البدايات المبسطة لنقل أنماط الحياة الاجتماعية للناشئة فى أى مجتمع هى المدخل السليم والمناسب لقضية " الأصل الاجتماعى للتربية " .

ومن أول ما يهتم به المجتمع ن وتركز عليه الجماعة فى تربيتها لأبنائها ، وفى تنشئتها لهم قضية " الأخلاق " : التى ارتضتها هذه الجماعة وتعارفت عليها ، بحيث أصبحت هى المعيار الذى يحاكمون سلوكياتهم على أساسه ، وفى هذا يقول الفقيه المسلم الشيخ القرضاوى ، مرجعا هذا الجانب الأخلاقى الهام إلى أصله الدينى ، يقول الرجل بأن هناك حاجة أخرى - بجانب حاجات كثيرة - إلى الدين ، حاجة اجتماعية ، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط ، بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير ، وأداء الواجب، وإن لم يوجد من البشر من يراقبهم ، أو يكافئهم .. وضوابط تحكم علاقاتهم، وتلزم كل واحد منهم ،أن يقف عند حد ، ولا يعتدى على حق غيره ، أو يفرط فى خير مجتمعه ، من أجل شهوات نفسه ، أو منفعته المادية العاجلة [١] .

ثم ننتقل بعد ذلك للركائز الاجتماعية الأساسية التى يتميز بها المجتمع العربى المسلم ، والمجتمع المصرى منهما فى الصميم ، والتى يحاول الكبار والحكماء فيه تنشئة الشباب والصغار فيه على أساسها ، وهذه الركائز الاجتماعية هى التى تميز مجتمعنا العربى المسلم هذا على غيره من المجتمعات ، وهى تعود فى جذورها إلى ديننا الإسلامى العظيم ، وللعلم فإننا

---

[١] يوسف القرضاوى : بينات الحل الإسلامى ، وشبهات العلمانيين والمتغربين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م ، ص ص ٥٠ - ٥١ .

سوف نشير إلى بعض هذه الركائز من بعيد ، لأنه لا يمكن حصرها .. لتعددها وكثرتها ، ثم سوف نحاول التركيز على ركيزة منها أو اثنتين .

بعض الركائز الاجتماعية فى المجتمع العربى المسلم :

١ - تعتبر " القيم الإسلامية " من أهم الركائز التى تدور حولها الحياة الاجتماعية عندنا ، فى مصر ، كما فى البلاد العربية ، وقد سبقت الإشارة إلى تلك " القيم " ، فى الفصل السادس من هذا الكتاب [١] .

وهذه القيم فى مجملها تمثل ضوء هاديا ، ومصباحا منيرا لمجتمعنا العربى المسلم ، فى كل المجالات ، فمن القيم الروحية المتعلقة بالدين الإسلامى الحنيف ، إلى القيم الخلقية ، المتعلقة بالتعامل السهين اللين مع الآخرين فى مجتمعنا المصرى خاصة ، والمجتمع العربى المسلم على وجه العموم ، والأسرة فى صميم هذا الوضع الاجتماعى ، وكذا التعامل مع الجار، ذلك الذى اهتم به الرسول -ﷺ- بناء على وصية جبريل - عليه السلام - له به ، وكذا البر بالوالدين والإحسان إليهما ، والإخاء فى الإسلام ، وإعانة المحتاج ، وإغاثة الملهوف ، والاهتمام باليتيم والأرملة ، والدعوة للخير ، والمداومة على فعله ، والإصلاح بين الناس ، وعيادة المريض والسؤال عنه ، والكلام فى الخير ، وإنزال الناس منازلهم ، والوليمة وإطعام الطعام ، والنصح والإخلاص والإمانة .. إلخ [٢].

وهذه القيم كلها ، وهناك كثير غيرها ، مصدرها جميعا ديننا الإسلامى الحنيف ، ولكن هذه المجموعة السابقة أقربها إلى " الأصل الاجتماعى " الذى نحن مهتمون به فى هذا الفصل .

---

[١] المرجع السابق .

(١) على خليل مصطفى أبو العنين ، مرجع سابق ، ص ص ٢٥١ - ٢٩٥ .

وسوف نتحدث – إن شاء الله – عن بعضها بالتفصيل ، ولكن هناك ملحوظة ينبغى التوقف عندها ، والتنبيه إليها ، وهى أننا حين نتحدث عن بعض هذه القيم ، فى مجتمعنا المصرى خاصة ، والعربى عامة ، قد لا نجد هذه القيم فى أزهى صورها حاليا ، أو على الأقل كما ينبغى لها أن تكون ، ولكن ذلك لا يمنع أنها هناك فى التربة المصرية .. كامنة ، ربما تكون قد توارت بفعل بعض الظروف التى مر بها المجتمع المصرى ، أو مرت به ، وبالتالى فهى هناك .. تعيش فى ضمير الناس ، ويهمهم جدا أن تظهر فى حياتهم ، ويعجبون بالأشخاص الذين يتمثلون معانيها ، ويعملون بها ، ومن هنا يهمهم جدا أن تكون أصلا رئيسيا من " الأصول التربوية" التى يتربى أبناؤهم على أساسها ، وينبغى على المربين أن يضعوها فى حسابهم ، وأن تكون نصب أعينهم وهم يخططون للتربية ، وهم ينظِّرون لها ، وكذا وهم ينفذون ما يقولون .

المرأة : فى الأصل الاجتماعى للتربية :

بداية ينبغى القول بأن " الإسلام قد ربى المرأة على أنها مساوية للرجل فى كل شيئ ، فظهرت الأسرة المسلمة وهى لبنة متينة قوية ورائعة فى بناء المجتمع المسلم الجديد ، وخرج منها – أى من الأسرة – رجال علماء ، وشباب مجاهدون ، وأفراد يبنون ولا يهدمون ، ورباها على أن تكون نموذجا وقدوة لغيرها ، وأعطاها حريتها فعزت مكانتها ، وأصبحت وهى تمتلك رأيها وتعلنه صراحة ، كما مكنها الإسلام من مقدراتها فصارت تتحكم فى مصالحها ، ثم إنه علّمها فأصبحت فقيه وعالمة ومحدثة ، وفتح أمامها باب العلم والعمل والاجتهاد على مصراعيه ، فأخذت من كل ذلك بحظ

عظيم. ويقينا .. أصبحت المرأة بالإسلام صانعة حضارة ، ومربية أجيـال ، وصارت نموذجا يحتذى بين نساء العالمين .. [١] .

وينبغى ، ونحن فى هذا المجال ، أن نؤكد فى تربيتنا لشبابنا المسلم على أهمية الزواج فى الإسلام ، حتى لا ينصرفوا عنه فينحرفون . ولقد نزل التوجيه الإسلامى بهذا الخصوص ، تفصيلا من فوق سبع سموات ، يقول الله – عز وجل – ﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (النساء / ٣٤) . وعلى نفس الهدى جاءت تعاليم الرسول المصطفى – ﷺ – فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : " تنكح المرأة لأربع : لمالها، ولحسبها ، ولجمالها ، ولدينها، فاظفر بذات الدين ، تربت يداك " (رواه مسلم ، مختصر صحيح مسلم ، ص ٢٠٧ ، ح ٧٩٨) [٢] .

وبعد أن كانت المرأة متاعا يورّث فى الجاهلية ، قبل الإسلام ، وبعد أن كانت مهانة فى الحضارات السابقة على الإسلام ، فى شرق .. وفى غرب ، يقول الباحث الأشهر فى الحضارات القديمة " ول ديورانت " عن عصر " بوذا " وتعاليمه ، والذى سبق عصر عيسى – عليه السلام – أنهم كانوا حسب تعاليم " بوذا " يحثون الرجال على تجنب النساء ، وعلى إهمالهن إهمالا تاما [٣] .

---

[١] محمد عبد العليم مرسى : الإسلام .. ومكانة المرأة ، العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، ص ص ٦ – ٧ .

[٢] على خليل مصطفى أبو العينين ، مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

[٣] ول . ديورانت : قصة الحضارة .. نشأة الحضارة .. الشرق الأدنى – ترجمة زكى نجيب محمود ، جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية ، القاهرة ، ط ٣ (الجزأن ١ ، ٢) ، ص ٧٧ .

وبلغ وضع المرأة حدا مزريا فى **حضارة الهند** حيــث كــان النســاء يستخدمن فى معابد جنوب ذلك البلد لإشباع شهوات ورغبات " الكهنة " ، بل وغيرهم من الرجال شريطة أن يدفعن جزءا من كسبهن " لرجـــال الديــن " (؟؟!!) فى تلك المعابد ، ولنا أن نتصور مدى الانحطاط الأخلاقى والقيمـــى الذى وصل إليه حال من كانوا يدعون رجال الدين ، وكذا حال المرأة .

ونصل **لليابان** لنجد أنم المرأة فى فترات من حضارتها قد بلغ إذلالـــها حدا مهينا ، حين أصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعنت المرأة أو النســـاء لما عرف باسم " الطاعات الثلاث " ، للوالد والزوج والأبن ، وحين أوشـــك الرجال ألا يضيعوا جهدهم فى تعليم النساء اللائى طولبن بالأمانة الزوجيـــة يتهددهن فى ذلك عقوبة الإعدام فإذا وجد الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا كان من حقه أن يقتلها مع عشيقها فورا ، وذلك كما رصد وكتب الرجل الذى أرخ لحضارة العالم ، والذى استغرق فى كتابتها عشـــرات الأعــوام ، ولا عجب فقد اشتمل عمله الموسوعى هذا على ستة عشر مجلدا ضخما ، ضـــم أثنين وثلاثين جزءا ، زادت صفحاته علـــى ســتة آلاف صفحــة .. ول . ديورانت العظيم [١] .

وفى " **حضارة اليونان** " التى هى المرجع والأساس فـــى الحضــارة الغربية المعاصرة ، نجد أن الرجال والنساء معا كانوا يعترفون بأن العلاقات الجنسية كانت هى أساس الحب ، وكانت القيود المفروضـــة علـــى الرجـــال واهية ، وكانوا يطلقون العنان لغرائزهم الجنسية فى الأعياد الكبرى التى هى دينية (!!!) فى أصلها ، ويقولون أن ذلك ييسر لهم ، فيما بقى من العام ، أن

---

[١] المرجع السابق ، المجلد الخامس ، حياة اليابان ، ص ٦٣ .

يقتصر كل منهم على زوجته الوحيدة ، بل وكانت " أثينا " تعترف بالبغاء رسميا ، وتفرض ضريبة على ممارسيه [١] .

وتنحدر " **الحضارة اليونانية** " أكثر نحو مستنقع الرذيلة ، حين نقرأ : وأصبح العهر في " أثينا " ، كما أصبح في معظم مدن اليونان ، مهنة كثيرة السبل ، ميسرة أمام المرأة ذات الكفاية (!!!) لتترقى في هذه المهنة .. وكانت هناك مواخير ، وكان هناك تدريب (!!) على الفجور ، وكان هنالك بيع للشرف واستئجار له .. بالأسبوع .. أو بالشهر .. وحتى بالعام .. وكانت العاهرات طبقات .. ولكل طبقة ثمن .. !! وهذا هو " **العصر الذهبي** " لليونان .. !!! ؟؟؟

وكان في وسع الرجل أن يتخذ له ، فضلا عن زوجته ، خليلة يعاشرها معاشرة الأزواج ، وفي ذلك يقول " دستين " إننا نتخذ العاهرات للذة، والخليلات لصحة الأجسام ، والزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين ويعنين ببيوتنا عناية تنطوى على الأمانة والإخلاص . وفي هذه الجملة الواحدة العجيبة جمع " دستين " رأى اليونان في المرأة ، في عصرهم .. الذهبى..!! هكذا علق حكيم الحضارات .. " ول . ديورانت " [٢] .

حضارة الرومان : وبعد أن يعرض " ول . ديورانت " لنهضة روما وسيادتها وانتصاراتها يغوص في أعماق المجتمع الروماني ، فيحدثنا عن الأسرة ، وهو ما يهمنا هنا ، يقول : إن سلطة الأب كانت مطلقة .. فكان هو وحده صاحب الحقوق القانونية في عهد الجمهورية الأولى ، وكانت " بائنة زوجته " ملكا خاصا به هو ، وإذا ما اتهمت زوجته بجريمة أحيلت إليه هو

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

[٢] المرجع السابق .

ليحاكمها (!!) ، بل وليعاقبها بنفسه ، وكان فى مقـــدوره أن يحكـم عليــها بالإعدام إذا خانته ، أو حتى سرقت مفاتيح خزائن خمره .. !! وكان من حقه كذلك أن يحرمها من الميراث ، فالرجل كان لها كـــل شــيئ .. الــزوج .. والأب.. والأخ .. وحتى الإبن ، أو من يكون وصيا عليها ، بينمـــا هـــى لا تستطيع أن تتصرف فى مالها أو حتى تتزوج بغير رضاه [١] .

وقبل أن نترك الحضارة الرومانية لابد أن ندقق فى عبـــارات " ول . ديورانت " العميقة فى المعنى والتى تبين الفلسفة العميقة التـــى كـــانت وراء انهيار الامبراطورية الرومانية ، إذ أن العلاقة بين فساد الأخـــلاق وانـــهيار المجتمعات والحضارات علاقة وثيقة وقوية ، يقول الرجل العلامــــة " لقـــد حطمت الحرية الجديدة التى سادت المجتمع الرومانى ســـلطة الأب ، وبـــل وحطمت كيان الأسرة ذاته ، وأصبحت النساء يتمتعن بمثل حرية الرجـــال ، بل وصرن يطلقن أزواجهن .. تماما كما يفعل الرجال . والواقع أن كل هـــذه المقدمات ، أى الانحلال الأخلاقى ، والتفسخ الأسرى ، وغيـــاب الضوابـــط والمعايير ، كانت كلها مؤذنة بإنهيار تلك الحضارة ، وبتصدع بنائها [٢] .

جزيرة العرب :

ويحدثنا عنها " ول . ديورانت " فى المجلدين الثالث عشـــر والرابـــع عشر ، وقد أعطاهما عنوانا دالا هو .. " عصر الإيمان " .. ويبدأه بظـــهور الرسول -ﷺ- فى مكة ، وبعثته ، ثم هجرته إلى المدينة المنورة وانتصاره على أعدائه من الكفار والمشركين ، يقول الرجل عن سيد البشر أجمعيـــن ،

---

[١] المرجع السابق ، (قيصر والمسيح ، أو الحضارة الرومانية) ن المجلد التاسع ، ترجمة محمد بـــدران ، ط ٣ ، ١٩٧٢م ، ص ١١٩ .

[٢] المرجع السابق ، ص ٢٧٨ .

فيما يتعلق بموضوع " المرأة " : وكان تعدد الزوجات فى نظر النبى -ﷺ- أمرا عاديا مسلما به لا غبار عليه ، ولذلك كان يقبل عليه وهو مرتاح الضمير ، لا يبغى منه إشباع الشهوة الجنسية ، ولقد كانت بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتى توفى عنهن أتباعه أو أصدقاؤه، وكان بعضها زيجات دبلوماسية [١] .

ويبين فيلسوف الحضارات " ول . ديورانت " أن الإسلام قد رفع مكانة المرأة فى بلاد العرب ، وإن لم ير عيبا فى خضوعها للرجل ، وهو يحرم على النساء ولاية الحكم ، لكنه يسمح لها بحضور الصلاة فى المساجد ، وقضى القرآن على عادة وأد البنات (الإسراء /٣١) ، كما سوى بين الرجل والمرأة فى الإجراءات القضائية والاستقلال المالى ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف فى مالها كما تشاء (النساء / ٤ – ٣٢) ، وقضى على ما تعود العرب عليه فى الجاهلية من انتقال النساء من الآباء إلى الأبناء فيما ينتقل لهم من متاع [٢] .

كما أن الإسلام منع زواج النساء بغير إرادتهن ، وفى القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء ، وهى ﴿وقرن فى بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾ (الأحزاب / ٣٣) . ويؤكد صاحب قصة الحضارة الذكى والفاهم أن هذه الآية إنما أنزلت لتؤكد النهى عن التبرج ، وقد طلب النبى -ﷺ- من زوجاته – بناء على أوامر القرآن الكريم – ألا يكلمن الرجال إلا

---

(١) المرجع السابق ، عصر الإيمان ، المجلدان ١٣ – ١٤ ، ترجمة محمد بدران ، ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٠ .

من وراء حجاب ، وفيما عدا ذلك فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن [١] .

ونعود لنؤكد فى هذا الفصل الخاص " بالأصل الاجتماعى للتربية " على قضية الاهتمام بالمرأة لأنها هى الأساس المتين للأسرة فى المجتمع ، وصدق الشاعر الحصيف الذى ربط بين تربية الأم وبين تقدم المجتمع ، فقال: الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق . ولقد حرصنا فى الصفحات الماضية من هذا الفصل على أن نورد شيئا عن موقع المرأة ومكانتها فى الحضارات السابقة على الإسلام لنرى العلاقة بين تلك المكانة التى احتلتها المرأة فى تلك المجتمعات التى سادت قبل الإسلام ، وكيف كانت تلك المكانة المتدنية للمرأة من أهم أسباب انهيار تلك الحضارات ، فلا يمكن لأم ذليلة .. مهانة .. محتقرة .. مبتذلة .. منبوذة .. مهيضة الجناح .. خانعة .. ضائعة الحقوق .. إلا أن تخرج أبناءً وبناتٍ على شاكلتها ، بينما جاء الإسلام ليجعل من المرأة .. بالتربي .. مشاركة للرجل فى كل شئ .. "النساء شقائق الرجال " ، وصدق رسول الله - ﷺ - .

إن الإسلام العظيم جعل من حق المرأة أن تختار الزوج ، كما جعل من حقها أن ترد النكاح فى شؤون الاقتصاد والمال ، وقد أصبحت المرأة ، فى ظل الإسلام العظيم ، " وارثة " بعد أن كانت موروثة .. مورثة .

وإذا كانت " الحضارة " لا تبنى إى بالجهد والعلم والعمل فإن الإسلام – دين الحضارة – قد أعطى المرأة الحق فى " العمل " ، وحين قال النبى

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٦٠ – ٦١ .

محمد -ﷺ- طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " فإن المرأة المسلمة أخذت من بحر العلم الزاخر بحظ عظيم [١] - [٢] .

ولقد لمس واحد من علمائنا الاجتماعيين – بذكاء وبصيرة – العلاقة بين مكانة الأسرة ونظامها ، والمرأة منها فى الصميم ، وبين عقيدة هذه الأمة وتربيتها ، يقول " وافى " : إن نظام الأسرة ، فى أمة ما يرتبط ارتباطا وثيقا بمعتقدات هذه الأمة وتقاليدها وتاريخها ن وعرفها الخلقى ، وما تسير عليه من نظم فى شئون السياسة والاقتصاد والتربية والقضاء ، وما تمتاز به شخصيتها الجمعية [٣] .

الأسرة .. خلية المجتمع الأولى :

ومن مكانة " المرأة " العظيمة والرائعة التى ربَّاها الإسلام نصل إلى وضع " الأسرة " التى بزعت فى فجر الإسلام لتبين للحضارات السابقة واللاحقة عليه أن البناء الاجتماعى الرائع الذى بدا واضحا فى حياة المسلمين فى المدينة المنورة ، والذى انتشر منها إلى سائر الأمصار الإسلامية ، باتساع دولة الإسلام الفتية ، هذا البناء المتماسك العظيم جاءها من فوق سبع سماوات ، من لدن حكيم عليم ، ولم يأتها من اجتهادات البشر التى تخطئ وتصيب ، وينبغى أن نعلم ونعلِّم أبناءنا أن الله – سبحانه وتعالى – قد أنزل فى هذه الأسرة " تفصيلات دقيقة لم ينزلها فى أمر آخر من أمور الحياة المتعلقة بأمور المسلمين ، ولدينا فى القرآن العظيم سورة من أطول سوره

---

[١] راجع كتاب المؤلف : الإسلام ومكانة المرأة ، وقد سبقت الإشارة إليه ، وكذلك :

[٢] موسوعة أمهات المؤمنين .. دراسة فى سيرهن ومروياقمن ، تأليف عبد الصبور شاهين ، إصلاح عبد السلام الرفاعى ، الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .

[٣] على عبد الواحد وافى : الأسرة والمجتمع ، نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م ، ص ٤ .

أخذت اسمها مما يتعلق بأمور الأسرة ، هى سورة " النساء " ، وهـى تبلـغ ١٧٦ آية جميعها " مدنية " نزلت تشريعا إسلاميا يبين للمسلمين جميـع مـا ينبغى عليهم معرفته .. وفعله ، فى كل أمور حياتهم مع الأسرة – والمـرأة منها فى الصميم – فى فرحٍ ، وفى حزن ، فى حياة ، وفى ممـات ، قبـل الزواج ، وعند الزواج ، فى رباط ، وحين ينفصم الرباط ..

ما للمرأة من حقوق ، وما عليها من واجبات ، فى تعاملها مع زوجها، وتعامله معها ، فى كل ما دق وصغر من حياتهما ، من أمور الماديات ، إلى أمور المشاعر والود والصفاء ، فى العلاقة بينهما ، وفى علاقات بينهما وبين أطفالهما .

وجاءت السـنة النبويـة المطـهرة لتوضـح كـل ذلـك ، ولتنبيـه للمسـلمين من خـلال ضرب المصطفـى -ﷺ- للأمثلـة الشـارحة والموضحة والمبينة ، منه -ﷺ- للرجال ، بل حتى للنساء أنفسـهن حيـن طلبن منه ، عليه أفضل الصلاة والتسـليم ، كما كن يذهبن لزوجاته ، أمهات المؤمنين ، وخاصة السـيدة عائشة – رضى الله عنها – يسـألنهن النصـح والإرشـاد .

يقول واحد من كتابنا التربويـين " ويلاحظ ان القـرآن الكريـم مـا تولى بالتفصيل نظـاما كنظام الأسرة ، فالزكـاة تبينها بإجمـال ، فقـال " آتـواء الزكاة ". والصلاة بينهما بإجمال ، فقـال " اقيمـوا " . أما الأسـرة فقد بينهـا تفصيلا طويـلا، وإن لم يكن ممـلا (!!) ، لأنـه بيّـن إنشـاء الزواج ، وبين متى يكون الطلاق والعلاقـة بين الزوجين ، والعلاقة بيـن الآبـاء وبين أبنائهم ، والأبنـاء بعضهم مع بعض ، وبيـن العلاقـة بيـن

القرابــة جميعها ، ثم بين نظم الاقتصاد فى الأســرة بمــا لا يــدع مجــالا لتفصيل بعده " [١] .

يقول " التركى " : الأسرة – فى التشريع الاجتماعى الإسلامى – هــى أساس المجتمع ، وهى المحصن الذى يتخرج فيه العظمــاء والمســتقيمون ، ومن هنا فقد حدد الإسلام للسرة أهداف تتصل بتكوين المنـــاخ الاجتمــاعى الصالح ن وبإشباع الحاجات الضرورية ، وبخدمة المجتمع [٢] .

ويمضى بنا صاحب الفكرة السابقة خطوة ليحدد أهداف الأسرة ن فــى ظل المجتمع المسلم، والتى يحدد فيما يلى :

١ – صرف الطاقات العضوية فى مصرفها الفطرى ، وتحويلها من طاقــة يمكن أن تستغل فى الهدم ، إلى طاقة بناءة تخــدم الجنــس البشــرى ، وتحفظ لصاحبها كيانه الذاتى والاجتماعى والأخلاقى .

٢ – الحفاظ على نقاء الأنساب ، وسلامة الأعراض ، وإشاعة الفضيلة فــى المجتمع .

٣ – ضمان استمرار النوع الإنسانى ، حيث أن شيوع جريمة الزنا والفوضى الأخلاقية من شأنها تدير الحضارات والدول .

٤ – إشاعة الحب والحنان بين أعضاء الأســرة لتوفــير الســلامة النفســية والاجتماعية والخلقية لجميع أفراد الأسرة .

---

[١] سعيد إسماعيل على ، زينب حسن حسن : دراسات فى اجتماعيات التربية ، دار الثقافــة للطباعــة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٦٠ .

[٢] عبد الله عبد المحسن التركى : توجيهات الإسلام فى نطاق الأسرة ، جامعة الإمام محمد بــن ســعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م ، ص ٢٩ .

٥ – وبالإضافة إلى هذه الأهداف الأساسية فإنه بالإمكان القول بأن كل الأهداف التى يسعى إليها المجتمع الصالح إنما تصلح أهدافا للسرة الصالحة ، فالأسرة لا تنفصل عن المجتمع فى المنهج الإسلامى ، وخلية الأسرة إذا نجحت تكون مؤشرا قويا على نجاح المجتمع ، فهى – فى النهاية – جزء المجتمع المعبر عن الكل ، ونموذجه المصغر الذى يعبر عن إطاره الكلى ، ويعكس روحه وقيمه وأهدافه فى الحياة ، وما بعد الحياة [١] .

ويبين أحد الكتاب الاجتماعيين أن " الإسلام يهتم بشكل ملحوظ ببناء الأسرة أى أسلوب تكوينها ، والنظم المؤدية إليها ، كالخطبة والزواج ، والعلاقات الأسرية ، وبيان حقوق الأبناء ن وحقوق كل من الزوج والزوجة، وأساليب مواجهة المشكلات والخلافات الأسرية ، إن وجدت ، وأسلوب إنهاء العلاقة الزوجية إن استحالت الحياة الأسرية المتكاملة ، وبيان أساليب توزيع الميراث [٢] .

وبعد أن يبين " علوان " أهمية الزواج ، بَاعتباره فطرة إنسانية ومصلحة اجتماعية ، وأنه انتقاء واختيار ، على أساس من الدين والأصل والشرف والاغتراب فى الزواج (أى تفضيل المرأة الأجنبية على النساء ذوات النسيب والقرابة ، حرصا على نجابة الولد ، وضمانا لسلامة جسمه من الأمراض السارية ، والعاهات الوراثية ، وتوسيعا لدائرة التعارف

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ٢٩ – ٣٠ .

[٢] نبيل السمالوطى : بناء المجتمع الإسلامى ونظمه .. دراسة فى علم الاجتماع الإسلامى ، دار الشروق، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م ، ص ٧٧ .

الأسـرية ، وتمتينا للروابـط الاجتماعيـة) ، وتفضيـل ذوات الأبكـار ، والزواج بالمرأة الولـود .

بعد كـل ذلك يبيـن لنا الشـيخ أن الأبـوين مفطوران على محبـة الولـد ، أو الأولاد ، وأن الله – جلت قدرتـه – قـد أنـزل الرحمة فـى قلوب الوالدين لأبنائهمـا .. ومن ثـم تأتى العنايـة بـهم ، والاهتمـام بتربيتهم [١] .

الأسرة والتنشئة الاجتماعية :

إذا كانت عمليات التنشئة الاجتماعية فى الأسرة هى اللبنات الأولى فى البناء التربوى المتكامل الذى تشترك فيه الأسرة مع باقى المؤسسات التربوية فى المجتمع ، فإننا ينبغى أن نعـى أن عمليـة التنشـئة الاجتماعيـة هـذه Socialization هى التى تبنى الشخصية الثقافيـة والاجتماعيـة لإنسـان المستقبل ، فى إطار جماعة صغيرة تتميز بأن أفرادهـا تجمعـهم مشـاعر وأحاسيس مشتركة ، وألفة وتآلف .

والمولود البشرى لا يستطيع أن يعيش بعد مولده أكثر مـن سـاعات قليلة، دون مساعدة غيره ، ولذلك فإن الميلاد البيولوجى للفرد ليس هو الأمر الحاسم فى وجوده واستمراره ، وإنما العامل الحاسم هو (الميلاد الثـانى) ، أى تكونه كشخصية اجتماعية ثقافية ، تنتمى إلى مجتمع بعينه ، وتدين بثقافة بذاتها ، وتتكون أبعاد شخصية الفرد وطباعه خلال الفترة من السنة الأولـى حتى السنة الرابعة من العمر ، وذلك فى نطاق الأسرة المحـدودة ، أى فـى

---

[١] عبد الله ناصح علوان : تربية الأولاد فى الإسلام ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمـة ، سنغافورة ، ط ٨ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ ن ، ص ص ٣٣ – ٧٠ .

مجال العلاقات بين الطفل ووالديه وإخواته وأقربائه الذين يشاركون الأسرة معيشتها [١] .

وإذا كانت هذه هى الأسرة ، فى تكوينها وبنائها وأهميتها ، فى المجتمع المسلم ، فإن هذه الأسرة مناط بها عدد كبير من الحقوق والواجبات تشكل الرباط المتين الذى يربط أفرادها ببعض ، وهذه الحقوق والواجبات أساسية فى الأسرة ، فى أى مجتمع ، ولكنها فى الإسلام تحتل مرتبة خصوصية نظرا لاهتمام الإسلام بمتانة العلاقات بين أفرادها ، لأنها هى الخلية الأساسية فى المجتمع ، وبالتالى فإن صلاح المجتمع كله وانضباطه الأمر فيه يتوقف ، دون شك ، على صلاح حالة الأسرة فى مجموعها .

وثمة جانب آخر ينبغى أن يذكر عند النظر إلى الأسرة ، وما يتعلق بكل فرد من أفرادها من حقوق وواجبات ، إنه جان بالمسئولية التى لم تخلو الشريعة أى مكلف منها ، فهى مناط رعاية الحق ، والقيام بالواجب ، وهى مسئولية دينية وأخلاقية واجتماعية ، وذروتها هى المسؤولية الكبرى أمام الله – عز وجل – فى الدار الآخرة [٢] .

مسؤولية الأسرة التربوية :

إن الدين الإسلامى قد اهتم برعاية الناشئة ، حتى قبل الميلاد ، وذلك كما يتضح من خلال حديث رسول الله -ﷺ- " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس " ، وكما جاء فى حديث آخر معناه أن من كان له ثلاث بنات رعاهن رعاية طيبة ، ورباهن أحسن تربية كن له وجاء من النار .

---

(١) علياء شكرى الاتجاهات المعاصرة فى دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ص ٢٤٧ – ٢٥٠ .

(٢) عبد الله عبد المحسن التركى ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

ومما لا شك فيه أن من مهام الأسرة ، فى المجتمع المسلم ، العناية والاهتمام بغرس قيم المجتمع فى سلوكيات الأبناء ، بحيث تصبح هذه القيم وهى ذات شأن عظيم فى حياتهم ، وبحيث يعرفون معايير الجماعة ، ومن ثم ينضبطون على أساسها ، كما أن أخلاقيات الأسرة والمجتمع ينبغى أن تشكل سياجا لتصرفات الأبناء والبناء بحيث تحكم هذه التصرفات وتضبطها بلا تفلت أو انطلاق بلا حدود .

إن من أبرز أساليب الأسرة فى تنشئة أبنائها تنشئة إسلامية هو " القدوة الصالحة فى القول والعمل والتعبد ، والصلة الوثيقة بكتاب الله – تعالى – وسيرة نبيه – ﷺ – ، وقيام العلاقة بني أفراد السرة على الحب والتعاون والتشاور ، والتسامح ، والحرص على أداء العبادات ن خالصة لوجه الله – تعالى – فتشيع فى المنزل روح إسلامية صافية ، وتقوم الحياة بين أعضاء الأسرة على تأكيد الحقوق والواجبات ، وإلغاء الفجوات بين الأجيال ، وبث روح المحبة والألفة والمودة فيها [١] .

إن الأسرة ، فى الدين الإسلامى ، توجه صغارها نحو معرفة النافع والضار ، والسلوك الحسن والسلوك السيئ .. باللين والرفق ، فهى له سبيل اكتساب الخبرات معتمدين على أنفسهم برقابة واعية ، متحملين من المسؤوليات على قدر طاقاتهم وقدراتهم ، ويعلم الكبار أطفالهم شيئا من القرآن الكريم ، ومواقف ملائمة من حياة الرسول – ﷺ – [٢] .

---

[١] محمد بن أحمد الصالح : التكامل الاجتماعى فى الشريعة الإسلامية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م ، ص ص ١٠٢ – ١٠٣ .

[٢] شاكر محمد عبد الرحيم : علاج المسكرات والمخدرات فى ضوء التوجيه الإسلامى ، رسالة الخليج العربى ، العدد ١٤ ، السنة الخامسة ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م ، ص ٢٧٤ .

وعلى الأسرة أن تبصر الصغار بما يريد الإسلام منهم ، فيدعى الصغير إلى قول الحق والصدق ، لأن الله – تعالى – يحب عباده الصادقين، هكذا ينبغى أن يفهم الصغير ، كما يدعى إلى إقامة الصلاة حين يبلغ السابعة من عمره ، ويعاقب على تركها وإهمالها حتى يبلغ العاشرة ، وهذه مسؤولية حملها الإسلام الصغير تقديرا له حتى يشب على الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية .

كذلك ينبغى أن يتعلم كيف يعامل الكبار بالاحترام والتقدير ن وكيف يعامل أقرانه بالمودة والمحبة ، وكيف يعامل أبويه بالبر والطاعة ، ويتعلم كذلك العطف على الفقير ، وتقدير كل عامل فى المنزل ، لأنه إنسان يجب علينا أن نجزيه بالحسنى ، لأن الإسلام يدعونا إلى ذلك ، وبهذا الأسلوب الإسلامى فى تربية الطفل ينشأ الولد باراً بالوالدين ، محبا للأسرة ، وينعكس هذا الحب على سلوكه مع الآخرين ، قال رسول الله – ﷺ – : " رحم الله والدا أعان ولده على بره " [١] . ومن هذا المنهج السليم فى تربية الأطفال داخل الأسرة المسلمة نفهم أن أثر تلك الأسرة فى تنشئة الأطفال وتربيتهم ينتقل ويمتد منها إلى المجتمع ، ولذلك قيل إن الأسرة بالفعل هى خلية المجتمع الأولى [٢] .

ويحدد لنا كاتب تربوى كيف اهتم القرآن بالأسرة اهتماما بالغا لأنها أساس بناء المجتمع ، وإقامة المجتمع المسلم على عمد ثابتة لا تهتز، وما لا شك فيه أن اتباع أوامر الله فى قضية الزواج ، من نكاح

---

[١] المرجع السابق ، ص ٥/٢٧ .

[٢] علي عبد الحليم محمود : وسائل التربية عند الإخوان المسلمين ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة، ١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م ، ص ١٤٦ .

الأيـامى والصـالحين، ومن وجود السكون والرحمـة ، كل ذلك بلا شـك مدعاة لتكوين البيئـة الصالحة الخاضعة للطفل ، بحيث ينشأ هادئـا فـي طباعه تنتقل إليه الصفات الطيبة من الوالـدين ، فيعيش بها بين الناس ، بـل وينقلها هو إلى غيره [١] .

ويركز " ولد أباه " على تنشئة الأسرة المسلمة لأبنائها وفق مقتضيات الأخلاق الإسلامية ، وهو يرجع عطف الأبوين وحنانهما على أبنائهما إلـى الرحمة الإلهية التى أودعها الخالق – جل وعلا – فى نفسيهما ، كما يركـز على أن هذه التنشئة الإسلامية تتم ، أو ينبغى أن تتم وفى ذهن الأبويـن أن صلاح الأبناء هو بداية صلاح الأمة [٢] .

ويبين " سعيد إسماعيل " أن دور الطفولة يحتل الأهمية العظمى فـى تقرير أساس الحياة ، وأن السـلوك المتضل أو الفاسد للأفراد يعـود إلـى الأساليب التربويـة الصالحة أو الفاسـدة المتخذة فى حقـهم . إن الفـرد يسـير طيلة أيـام عمـره على طبق الخلفيـات الخاصة به ، وأن أسـاس الخلفيات ينشـأ فى أدوار الطفولـة . وبهذا الصـدد يؤكد الإسـلام مبـدأ " كل يعمل على شـاكلته " ، أى خلقه وطبيعتـه ، إذن فالإسـلام يصرح بأن افعـال كل فـرد وأقواله إنما تسـير حسـب خلقـه وطبيعته التـى نشـأ عليهـا [٣] .

---

(١) على خليل مصطفى أبو العينين : فلسفة التربية الإسلامية فى القرآن ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٥ن ، ص ١١٦ .

(٢) محمد المختار ولد اباه : التربية الإسلامية بين القديم والحديث ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربيـة والثقافة والعلوم ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م ، ص ٣٨ .

(٣) سعيد إسماعيل على : معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العـربى ، القـاهرة ، ١٩٨٦ن ، ص ص ١٢٨ – ١٢٩ .

بر الوالدين :

وإذا كنا قد ركزنا كلامنا فى الصفحات الماضية على مسئوليات الأسرة (الوالد والوالدة) التربوية ، تجاه أطفالهما كبارا وصغارا ، شبابا يافعين وفتيات ناضجات ، فما ذلك إلا لأن مسؤوليات الكبار تأتى أولا تجاه من هم دونهم ، بفضل ما أفاء الله – سبحانه وتعالى – عليهم من علم وخبرة ومعرفة، وبفضل ما منحهم من قوة وتحمل ، وكذلك بفضل ما رزقهم من مال ومتاع .

ولكن سنة الله – جلت قدرته – قضت بأن دوام الحال من المحال ، وبأن التغير هو السنة الأزلية التى لابد أن تطبق على جميع خلق ، ومن هنا فإن جيل الآباء والأمهات يأخذ فى الكبر ، ومن ثم فى الضعف والوهن ، فى الوقت الذى يأخذ فيه جيل الأطفال فى التقدم نحو مرحلة الشباب والرجولة ، وما تمثله من قوة واشتداد عود ، وقدرة وطاقة عل العمل وكسب العيش ومغالبة الشدائد بعزم وقوة .

ولأن الدين الإسلامى العظيم دين مسؤولية ، ورعاية أمانة ، وحفظ حقوق ، ولأن القرآن العظيم هو دستور هذه الأمة ، قال عنه من أحاط بكل شئ علما – سبحانه وتعالى – قال : ﴿ وما فرطنا فى الكتاب من شيئ ﴾ ، لكل ذلك نجد أنه – أى القرآن الكريم – قد أنزلت فيه آيات بينات تبين مسؤوليات الصغار الذين نضجوا واشتد عودهم ن وقويت شوكتهم ، تجاه جيل الآباء والأمهات الذين فعل فيهم السن والزمن فيهم فعله ، ومن هنا ألزمهم بسلوكيات وأخلاقيات معينة ، وتد شدد فى هذه الأخلاقيات بصورة لم يشدد فيها من قبل على أمر من الأمور لدرجة أن جعلها تالية ومعطوفة – فورا – على عبادته هو – جلت قدرته – وعظمت وتنزهت حكمته .

يقول — جل من قائل – : فى سورة النساء (آيــة ٢٦) ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت إيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ .

ويقــول — جل شــأنه – : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقـل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قـولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربى ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ (الإسراء ٢٣- ٢٤) .

وفى هذا النص يأتى النهى عن عبادة غير الله ، والأمــر بالإحسان للوالدين مقترنين ، وفى هذا شارة إلى الأهمية البالغة لواجب بــر الوالدين والإحسان إليهما ، إذ توحيد الله أصل وأساس وقاعدة الشريعة وأعظمــها ، فإذا جاء الأمر ببر الوالدين مقرونا به دل ذلك على مبلغ اهتمام الإسلام بــهذا الواجب ، وفى قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ﴾ قوة فى الإلزام بهذين الواجبين، إذ جاء التعبير عن هذا التكليف بلفظ " قضى " ومعلوم أن القضاء إذا كان فى مجال التكوين كان لابد من وقوعه حتما ، فلما جاء فى مجــال التكليــف دل على شدة إلزام المكلفين به ، إلى أقصى حد .

يقول " أبو السعود " ، وفى هذا النص ، أى ﴿ ولا تقل لهما أف ﴾ اهتمـام بحالة الأبوين حينما يبلغان مبلغ الكبر والعجز ، إذ يؤكد فريضــة الإحســان إليهما فى هذا الحالة ، ومن الإحسان إليهما تكريم مقامهما ، وعدم التضجــر من أفعالهما ، مهما كانت مثيرة للتضحية ، وعدم مواجهتهما بما يؤذيهما من

القول ، حتى ولو بكلمة " أف " .. والولد مطالب شرعا بأن يقول لكل من والديه ، مهما كانت حالهما ، قولا كريما ، وبأن لا يواجههما بأى قول يؤذيهما ، وأدنى ذلك كلمة " أف " التى تشعر بالتضجر [١] .

ونعتقد بعد كل ما تقدم ، فى هذا الجانب الخاص بالأصل الاجتماعى للتربية ، أن جميع مؤسسات المجتمع التى تسهم فى تربية المواطن ينبغى أن تكون فى رأس اهتمامات المسؤولين عن وضع المناهج والبرامج والخطط التربوية ن ولقد كان تركيزنا على " الأسرة " بالتحديد لأنها هى الخلية الأولى للمجتمع ، أى مجتمع ، ومن هنا فهى الأصل ، وهى الأساس ، وليت الجانب الذى ختمناها به ، وهو " بر الوالدين " يكون موضع عناية المربين واهتمامهم ، بعد أن بدأت بعض نذر الشر تظهر فى مجتمعنا ، من إهمال للوالدين ن ومن التضجر منهما ، بل وأخش أن أقول من محاولات الاعتداء عليهما ، والعياذ بالله ، وليس هناك من حل ناجح مثل العودة فى تربيتنا إلى جذورنا الدينية التى فرضت الإحسان إليهما ، وربطت ذلك فورا .. ومباشرة بعد عبادة الله – سبحانه وتعالى – ونختم بالآية الكريمة .. لنذكر : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . وبالوالدين إحسانا ﴾ وصدق الله العظيم .

ولعله من المناسب ونحن نتحدث عن الأصل الاجتماعى للتربية أن نختمه بحديث عن " الجار " ، خاصة وقد انتهينا إلى " الأسرة "

" الجار " فى تراثنا الإسلامى .. والتربية :

إن الباحث فى تراث المجتمعات عبر التاريخ ، لا يجد دينا اهتم بأمر " الجار " كما اهتم به الدين الإسلامى العظيم ، حيث نزلت الآيات القرآنية

---

[١] عبد رب النبى على أبو السعود : أحب الأعمال إلى الله ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، ص ص ٩١ - ٩٢ .

من فوق سبع سموات ، من لدن حكيم خبير ، وحيث تواترت أحاديث الرسول الكريم -ﷺ- وكلها تحث على حسن معاملة الجار ، وعلى المحافظة على حقوقه ومشاعره ، وكأنه فرد من الأسرة ، بل إن تلك المعاملة الطيبة هى دليل الإيمان فى الدين الإسلامى ، ومما لا شك فيه أن المجتمع الذى تتماسك فيه الأسرة ، فى بيتها ، والذى تترابط فيه الأسر مع جيرانها هو مجتمع شديد التماسك ، قوى البنيان .. وهكذا كان مجتمع المسلمين .

يقول الله - عز وجل - ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت إيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ . (النساء / ٣٦) .

وهكذا .. ومن الآية الكريمة .. نجد أن الله - سبحانه وتعالى - بعد أن أمر عباده بعبادته وبالبعد عن الشرك ، طالبهم بالإحسان إلى الوالدين ، ثم بالإحسان إلى ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وضم " الجار " إلى من ينبغى الإحسان إليهم ، وخص " الجار " الذى تربطه بالفرد المسلم وشائج القربى ، ولم يحرم : الجار الجنب " من هذا الإحسان والمعاملة الطيبة .

وعن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أنها أثر عنها قولها أن الرسول -ﷺ- أنه سيورّثه ..!! ولا يرث الإنسان أحد إلا أهله ذوو القرابة الوثيقة به ، وذوو الرحم ، والذين هم من صلبه ، وهذه قمة فى العطف والرحمة .. والتربية .

وأثر على سنة المصطفى -ﷺ- أنه قال : " والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .. قيل من يا رسول الله .. ؟ قال الذى لا يأمن جاره بوائقه ، وفى هذا تحذير من نبى الهدى -ﷺ- بأن الذى يؤذى جاره ، بأى صورة من الصور ، أو بأى شكل من الأشكال ، هو خارج عن دائرة الإيمان.

ولقد ربى مجتمع المسلمين الأول أبناءه على هدى النبوة ، فكان صغارهم والشباب يحترمون الجار ويسألون عنه ، كما كان الروسل -ﷺ- يسأل عن جاره ، والذى كان يهوديا ، وكانوا يساعدونه إن احتاج ، ويجلبون له الخير ، ويدفعون عنه الشر ، وفى التراث : إن استقرضك أقرضه ، وأن استعانك أعنته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن مرض عدته ، وإن أصابه خير هنأته ، وكن أمينا على أسراره ، متوددا له بالهدايا ، وحريصا على مصلحته كما تحرص على مصالحك .

وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنه – أن الرسول -ﷺ- خرج فى إحدى غزواته ، فقال : " لا يصحبنا اليوم من آذى جاره " [1] . وقال يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك ، بل إن مجتمع المسلمين العظيم ، الذى قال فيه – عز وجل – ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر ﴾ ، هذا المجتمع كان الكبار فيه يربون أبناءهم الصغار على احترام مشاعر أطفال الجيران لدرجة أن الرجل منهم كان ينهى أولاده عن الخروج من منازلهم وفى أيديهم أى نوع من الطعام أو الفاكهة ، مخافة أن يكون أبناء الجيران لا يملكون مثلها ، أو قد

---

[1] حياة الصحابة للسيخ محمد يوسف الماندهلون (تحقيق نايف العباس ومحمد الدولة ، الجزء الثانى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٠ هـ ، ص ٤٧٦ .

تكون أسر الجيران فى ضائقة مالية قد لا نمكنهم من الشراء أبنائهم مثلـــها ، وتبلغ المشاعر العظيمة قمتها حين نقرأ ما أثر عن نبى الرحمـــة والعطـــف وحسن المعاشرة مع الجميع ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، وما ملكت إيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ . " إن اشتريت فاكهة فأهد له (أى للجار) ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج ولدك ليغيظ بها ولده " .. !!

الفصل التاسع

الأصل الاقتصادى للتربية

الفصل التاسع
الأصل الاقتصادى للتربية

مدخل :

إن الإقتصاد لمن أهم الأمور فى حياة الأمم والشعوب ، أهمها تأثيرا فى حياة أفرادها ، فى علاقاتهم ببعضهم ، كما فى علاقات الدول بعضها بالبعض الآخر ، غنى وقوة وسيطرة وتحكما فى جانب ، بينما فى الجانب الآخر فقرا وخضوعا وذلا ، وطلبا للمعونات ، وقبولا للشروط المهينة ، وتنازلات لانهاية لها .

والفرد الذى يعمل ويكد ويكدح ، ويتعيش من ناتج عمله ، يطعم نفسه ويطعم أهله ، ويكسى نفسه ويكسيهم ، ويوفر لنفسه ولهم كل مايحتاجه ويحتاجونه ، هذا الفرد هو الذى يريده الإسلام ، ويده التى تتعب في سبيل طلب الرزق يد يحبها الله ورسوله ، -ﷺ- ، كما جاء فى الأثر ، وهو كذاك يبيت مغفورا له ، كما روى عنه -ﷺ- .

وفعلُ هذا المسلم الجاد والدائب والمستمر يتعدى منفعة نفسه ، ومنفعة أهله الأقربين إلى غيره من المسلمين ، القريبين والبعيدين الذين يصلهم خيره عن طريق الزكاة أو الصدقات ، كما يصل للمجتمع كله عن طريق الضرائب والتبرع والهبات ، ولعمرى إن مجتمعا يعمل من فيه ، أو معظم من فيه بهمة ودأب ونشاط لمجتمع عزيز الجانب ، قوى الشكيمة ، محترم الكلمة نافذها ، ويعمل له الجميع - يقينا - ألف حساب .

ويذكر لنا تاريخنا الإسلامى العظيم أن المسلمين الأوائل حين تركوا مكة مهاجرين بناء على أمر الرسول المصطفى -ﷺ - تركوا وراءهم كل ماكانوا يملكون من حطام الدنيا فى سبيل الله ، للحفاظ على دينهم حتى لا يفتنهم الكفار والمشركون عن دعوة الإسلام .

والذى يتفكر فى هذا المعنى لبرهة قصيرة يتأكد لديه أن هذه الطائفة من المؤمنين التى ارتكز عليها الإسلام ، كانت أفقر جماعة على وجه الأرض بعد أن تركت خلفها كل شيئ ، سواء كان هذا الشيئ سكنا يؤويهم ، أو أرضا يعملون فيها ، أو قطعانا من الماعز أو الضأن أو الجمال يتاجرون فيها ، أو حتى الخيول التى كان العرب يعتزون بامتلاكها ، ومع كل هذا تركوا رؤوس أموالهم التى جمعوها على مر الأيام والسنين ، تركوا كل ذلك وكثيرا غيره ، وخرجوا من مكة، مهاجرين فى سبيل الله ، ودخلوا المدينة التى أصبحت منورة بعد أن وصلها خير خلق الله قاطبة ، -ﷺ - .

وكانت معجزة :

فلم يحدث فى تاريخ البشرّية ، من يوم أن خلق الأرض ومن عليها ، أن استقبل مجتمع مستقر آمن تجرى أموره برخاء وطمأنينة وهدوء مجموعات من الفقراء والمعوزين والمحتاجين بهذه الحفاوة والترحاب الذين استقبل بهما أهل المدينة من " الأنصار " إخوانهم " المهاجرين " الذين وفدوا عليهم من مكة المكرمة .

إن أغنى الدول على مر العصور ، والتى تمتلك ثروات تعز على الوصف، والتى بها من ركاز الأرض من ذهب وحديد ومنجنيز وبترول مايعز على الوصف والعد والحساب ، والتى بها من خيرات الله فى الأرض والنهر والبحر ما لم تمتلكه أمة من قبل ، هذه الأمة ، ونعنى بها الولايات المتحدة

الأمريكية تضع على حدودها قوات هائلة من حرس الحدود كي تقف في وجه النازحين إليها ، خاصة من دول أمريكا اللاتينية الفقيرة كي تصد موجات الذين يحاولون عبور حدودها طلبا للقمة العيش ، أو سعيا وراء عمل شريف مهما كان متواضعا ، في مصنع أو متجرأو في مزرعة .

بينما كانت الصورة في مدينة الرسول ، منذ أكثر من ١٤٢٠ سنة جد مختلفة ، فنجد وصول الرسول ، - ﷺ - ، للمدينة ، وبعد توافد " المهاجرين" اليها استن معلم البشرية وهاديها إلى طريق الحق والرشاد سنة لم تحدث من قبل ، ولم تطبق من بعد ، حيث آخي بين " المهاجرين و " الأنصار " ، بحيث نزل كل مهاجر مع أنصارى يقاسمه في كل شيئ ، وقد تقبل " الأنصار " العظام ذلك الأمر المحمدي بكل صدر مفتوح ، حتى كان الرجل منهم ينزل لأخيه " المهاجر " عن نصف ما يملك حتى عرض بعضهم النزول عن أخص خصوصياته .. !! .

وعلى الطرف الآخر نجد أن " المهاجرين " لم يركنوا إلى الدعة ، والي العيش الرغيد على حساب إخوانهم الأنصار ، وإنما وجدناهم مجتمعا كريما معتزا بنفسه ، يقبل الواحد منهم دعوة أخيه الأنصارى إلى منزله إلى حين ، وفقط حتى يعرف طريقه إلى العمل ، وإلى كسب الرزق الحلال ، ومثالنا الصحابي الجليل ، " عبد الرحمن ابن عوف " ، خال النبي -ﷺ - الذي طلب من أخيه الأنصارى أن يدله على السوق ، والذي اندفع إليه يتاجر حتى أصبح من أغنى أثرياء مجتمع المسلمين في المدينة .

ويعمل الجميع .. ويعملون ، مهاجرين .. وأنصار ، كما أمرهم رسول الله -ﷺ - ، في كل فن ، وفي كل حرفة ، من الزراعة ، إلى الرعي ، ومن الصناعة إلى التجارة ، بفضل هدى الإسلام وتوجيهه ، فإذا المجتمع كله خلية

نحل يعمل أفرادها ويعبدون الله ، يكدون ويكدحون ، ويحفظون آيات القرآن الكريم ، ويلتزمون بحدوده ، وهم فى الوقت نفسه يحفظون أحاديث المصطفى - ﷺ - ، ويطبقونها فى حياتهم ، ويبارك المولى جلت قدرته هذا المجتمع العظيم الذى انبثق فى شبه الجزيرة العربية مرسيا بناء دعائم الحضارة الإسلامية الرائعة [١]، [٢] .

قضايا اقتصادية تربوية :

١ - ونحن نتحدث عن أصل مهم وخطير من أصول التربية ، وهو " الأصل الإقتصادى " ينبغى أن نتذكر أن الإسلام قد اهتم بهذا الجانب ، فى حياة الفرد والمجتمع ، أيما اهتمام ، وأنه قد وجه المسلمين صوب " العمل " ، وليس العمل أى عمل ، وغنما العمل المتقن الذى الذى نص عليه حديث رسول الله - ﷺ - ، " إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " ، وإذا كانت الأمم فى عصرنا هذا تتفاوت فيما بينها ، فى حظوظ العمل والإنتاج ، فإن هذا التفاوت فيما بيسنها يعود الى قضية " الإتقان " Perfectian واذا كان هناك عدد بسيط ٠٠ وبسيط جدا من الدول ذات السمعة التى لا يختلف عليها أحد فى إتقان الصناعة (على سبيل المثال : اليابان - ألمانيا - الولايات المتحدة الأمريكية - سويسرا) فإن السبب يعود إلى التربية ، تربية المواطنين فى هذه الدول على العمل ٠٠ وعلى إتقان هذا العمل ، ولعل هذا هو العنصر الفارق الأساسى ، وربما الوحيد، بين هذه الدول والدول الأخرى التى تعمل وتصنّع فى شرق أوروبا

---

(١) محمد عبد العليم مرسى : التربية والتنمية فى الإسلام ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٧ هـ .

(٢) عبد العزيز محمد العمرى : الحرف والصناعات فى الحجاز فى عهد الرسول - ﷺ - ، رسالة ماجستير منشورة ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٥ هـ .

والإتحاد السوفيتى ، وقد سبق أن تعاملنا مع منتجاتها فى فترة قريبة من حياتنا وكانت بعيدة كل البعد عن الجودة وعن الإتقان .

٢ - وقضية العمل .. وإتقان العمل : (*) هذه هى قضية مجتمعية ، بمعنى أنها تهم المجتمع كله ، وبالتالى ينبغى أن تهتم بها كل مؤسسات التربية فى المجتمع ، من الأسرة إلى المدرسة ومن دور العبادة إلى وسائل الإعلام.. الخ ، وأن يركز فيها على إعداد الفرد المنتج الذى يعرف قيمة ما يعمل ، كما يعرف الهدف منه ، وهو فى الوقت الذى يهدف إلى تحقيق المكسب لنفسه يعلم تماما أن عليه حقوقا للآخرين فى ماله الذى يكسبه ، ويعرف ويتأكد تماما أن التكافل بين أفراد المجتمع واجب يحتمه الإسلام ولا يتنازل عنه .

كذلك ينبغى على المربيين أن ينشئوا الشباب المسلم على أن يعى ، وأن يتيقن أن الله جلت قدرته - هو الرزاق ، مهما أوتى البشر من قوة ، ومن علم ، ومن حيلة وذكاء ، وذلك كما نص - سبحانه وتعالى - ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

٣ - كذلك فإن التربويين ، فى جميع المؤسسات التربوية ، عليهم أن يركزوا على معنى فى غاية الأهمية ، وهو أن " المال " وسيلة ، وليس غاية فى حد ذاته ، ومن هنا فإن التصارع فى سبيل جمعه وتكثيره وتكنيزه ، وعدم الإنفاق منه فى مصارفه الشرعية ليس من الإسلام فى شيئ ، وأن يكون الفرد المسلم مالكا لزمام نفسه ، يسير هو المال ، والمال لا يستعبده ، وعليهم أيضا أن يغرسوا فى نفوس الناشئة أن الحرية الفردية فى العمل

(*) سبق أن ناقشنا هذا الجانب فى فصل من هذا الكتاب .

والكسب مضمونة فى الإسلام ، ولكن هذه الحرية مقيدة بالصالح العام ، وأنها لا تترك هكذا دون رقابة من المجتمع المسلم ومؤسساته الضابطة لحركة الحياة فيها ، بحيث يأكل الكبير الصغير وبحيث تلتهم الشركات العملاقة الأخرى الصغيرة وتبتلعها ، كما أن الإحتكار والاستغلال والرشوة أمور ممنوعة فى الإسلام ، بل هى محرمة قطعا ومنهى عنها .

٤ – هناك كثير من السلوكيات الخاطئة تمارس هذه الأيام فى مجتمعنا ، بعد الإنفتاح الإقتصادى الذى نعيشه اليوم ، وقد ارتبطت هذه السلوكيات بالمكاسب المادية السريعة التى نمت نموا سرطانيا ، وأصبح أفراد طبقة معينة يقصدون درجات من الإشباع المادى الذى يدخل تحت باب السفه والإسراف والتبذير ، فى مأكل ، وفى مشرب ، فى مسكن ، وفى ترفيه ، وصار الحديث بالملايين ومضاعفاتها ، بينما لا تزال الكثرة الغالبة من أبناء المجتمع تئن تحت الفقر الفاقر ، وتحتاج إلى أبسط الضروريات ، وذلك وضع لا يجيزه الإسلام ، ولا يرضى عنه .

٥ – رغم أن مجتمعات الدول الشيوعية – التى كانت – استمعت كثيرا وكثيرا جدا عن عدالة التوزيع التى لاكتها ألسنة قيادات الحركة الشيوعية فبها ، ورغم الوعود التى وزعوها على مجتمعاتهم ، بشكل مكثف وملفت للنظر ، إلا أنه ، لم يتحقق شيئ لملايين البشر الذين صفقوا وهللوا لما بشر به زعماؤهم ، ولكن مضت الأيام والسنون وإذا شعوب تلك المجتمعات قابضون على الريح ، حياتهم تعيسة ، وأبناؤهم وشيوخهم فى أمس الحاجة إلى الغذاء والكساء والدواء والمسكن الملائم .

والمشكلة فى هذه المجتمعات أن قياداتها السياسية والحزبية إحتكر أفرادها الثروة فيما بينهم ، وبينما أفراد هذه القيادات يخطبون كثيرا فى جماهير شعوبهم

عن العدالة فى التوزيع ، وعن المستقبل المترف الموعود ، فى هذا الوقت كانت لهم هم أنفسهم حياتهم الخاصة المغرقة فى إسرافها ، والمبتذلة فى إنفاقها ، بعيدا عن أعين وأسماع الجماهير المطحونة والمسكينة .

وعلى سبيل المثال فإن " خروشوف " الذى حكم الاتحاد السوفيتى لفترة طويلة اعتبارا من الخمسينات من القرن الماضى كانت له حياة خاصة فى غاية الترف والغرابة ، من بينها أنه كان له بيت من زجاج تحت مياه البحر الأسود ، وكان حين يريد صيد السمك يحضرون له بعض رجال البحرية السوفيتية كى يشبكوا له أنواع السمك التى يحب اصطيادها فى سنارته حتى يبتهج ، وتغمره السعادة ، وذلك كما كتب محمد حسنين هيكل الصحفى الذى كان الأقرب لزعماء العالم .

٦ – وما يعنينا هنا فى دولنا فى العالم الثالث الذى نحن جزء منه ، هو أن هذه الممارسات والسلوكيات قد انتقلت إلى عدد كبير من زعمائنا ومسؤولينا وقادة الأحزاب فى بلادنا وأنهم قد مارسوا السلوكيات نفسها فإذا هم هم أثرياء مشبعون لدرجة التخمة ، وإذا هم متمسكون بالسلطة ، وإذا الثروة بينهم موزعة ولاتصل إلى الكادحين الذين تحدثوا بإسمهم كثيرا .

٧ – عكس ذلك تماما نراه فى المنهج الاقتصادى الإسلامى ، حين كان الحكام يتركون السلطة كما دخلوها ، خاصة وقد اقتدوا برسول الله - ﷺ - ، وكلنا نعرف أنه انتقل إلى الرفيق الأعلى ورمحه مرهون عند يهودى ، وقد مات عمر " رضى الله عنه " وهو مديون ، وقد طلب وهو يحتضر من ابنه عبد الله أن يتعهد بسداد دينه بعد وفاته [1] ، وذلك على الرغم من اتساع الدولة الإسلامية فى عهده توسعا لم تشهده من قبل ، وكانت الثروات الهائلة

---

[1] عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة (د.ت) .

قد بدأت تجد طريقها لأيدى المسلمين ، وعلى طريقه ، رضى الله عنه ، رأينا حفيده العظيم ، خامس الخلفاء الراشدين " عمر بن عبد العزيز " [١] ٠

٨ - وحتى لايفهم أحد خطأ موقف الإسلام من كسب المال نقول أن الإسلام يتيح الحرية كاملة للفرد المسلم أن يكسب من المال ٠٠ بلا حدود - طالما كان من حلال ، وطالما كان من وراء عمل وجهد وسعى شريف ، وطالما أديت زكاة ذلك المال ، وطالما - كذلك - أنفق فى حلال ٠٠ وفى سبيل الله ٠

إن المؤمن الغنى سوف يكون عونا لغيره من المؤمنين ، فى فك رقهم وعبوديتهم ، كما كان يفعل الخليفة الأول " أبو بكر " [٢]رضى الله عنه ، وفى سبيل الله وفى تجهيز جيوش المسلمين ، وفى إغاثة الفقراء المحتاجين ، كما كان يفعل عثمان بن عفان ، رضى الله عنه [٣] ٠ويضاف إلى ذلك أن المسلم الثرى الملتزم بحدود دينه لن يكنز الذهب والفضة وإنما سيقوم بمشروعات يعمل فيها المئات من المسلمين ، وربما الآلاف ، أعمالا شريفة يتعيشون منها ويستفيدون هم وأسرهم ، وذلك فى حد ذاته عظيم ومطلوب حتى لا يتعطل الناس، وحتى لا تنتشر البطالة بينهم فيتحول نفر منهم إلى الشحاذة وسؤال الناس، بل وقد يندفع البعض منهم فى اتجاه الجريمة طلبا للقمة العيش من الحرام ٠

٩ – إننا فى المجتمع المسلم ينبغى أن نكون واعين لفلسفة ما ندرس ، وما نعطى لأبنائنا ، ويجب أن يكون واضحا فى أذهان من يتعرضون لتقرير ما ندرسه فى مدارسنا وجامعاتنا ، وما نقدمه فى برامجنا الإعلامية ، يكون

---

[١] قطب ابراهيم محمد : السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨م ٠

[٢] عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، (د ٠ ت) ٠

[٣] خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، (د ٠ ت) ٠

واضحا عندهم جميعا أن مجتمعنا مجتمع مسلم بالدرجة الأولى ، ومن هنا فلا ينبغى أن يقدم لأفراده ، صغارا وكبارا ، ما يتصادم مع عقيدته ، وعلى سبيل المثال فإن المجتمعات الأخرى ، غربية وشرقية ، تقدم للناشئة من أبنائها ما تؤمن به ، ففى الغرب ينبع الأصل الإقتصادى من الفلسفة الرأسمالية لذلك الغرب ، وفى الشرق يقدمون لناشئتهم ما يتمشى مع فلسفتهم الشيوعية ، فهم قد صدقوا مع أنفسهم ونحن أولى منهم بهذا ، بمعنى أننا نقول أننا مسلمون فيجب علينا أن نقدم لناشئتنا ، ولكل مجتمعنا مايتمشى مع هذه المقولة ، حتى نصدق مع أنفسنا ، ومع الآخرين ، وأكثر من هذا وأهم ، نصدق به مع الله ، حتى لاينطبق علينا قول الله عز وجل ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولوا مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾ صدق الله العظيم .

مبادئ وتطبيقات اقتصادية
فى الإسلام

أولا : قضية الملكية الخاصة :

لقد سبق وألمحنا الى أن الملكية الخاصة من أهم المبادئ التى يحرص عليها الإسلام ، طالما التزم أصحابها بحقوق العاملين عندهم ، وطالما أدوا حق الجماعة المسلمة ، وطالما وظفوا أموالهم وممتلكاتهم (أراض ومزارع وغيرها) لخير الجماعة المسلمة ، وطالما - أيضا - أنفقوا أموالهم ومكاسبهم فى مصارفها الحلال ، دون سرف أو تبذير .

وهم إذا فعلوا ذلك عصموا أنفسهم من أى جور يحيق بهم ، من تأميم أو مصادرة ، أو غير ذلك من الأمور التى وقعت فى بعض مجتمعاتنا ، ولم يكن لها أصل من شرع أو قانون . هذا ولقد كانت فى مصر طبقة من الأثرياء قبل ثورة ١٩٥٢م ، وكانوا يمثلون العمود الفقرى للاقتصاد المصرى الذى تعود جذوره إلى أيام " طلعت حرب باشا " ، ذلك الوطنى العظيم الذى فكر ونفذ كثيرا من المشروعات الاقتصادية الوطنية من بنوك وشركات ومؤسسات عادت بالنفع العظيم على مصر .

ثم جاءت الثورة لتتبنى مبدأ التأميم لممتلكات الأثرياء ، وتحوّل أصحابها إلى فقراء معدمين ، بينما حولت العمال فى مصانعهم إلى " موظفين " لايعملون ، ولا ينتجون ، بل وجعلت منهم قوة سياسية تهدد رؤسائهم ، وتتجسس عليهم ، وهم فى الوقت نفسه لايهتمون بعملهم ، ولايتقنونه، أو يتدربون عليه ، ومن هنا ساءت أحوال ماعرف عندنا "بالقطاع العام " بلغت خسائره حدودا مرعبة ، لم

يكن أحد يملك الحيث عنها أو انتقادها ، حتى جاءت الموجة التصحيحية الجديدة التى تبنت مايعرف بالخصخصة Privtization .

يقول الشيخ محمد الغزالى ، رحمه الله ، فى هذا الوضع " إن تحويل العامل إلى كائن غير منتج ، حسبه أن يطالب بالحقوق والعلاوات والأرباح .. هو عمل مدمر ليس من الإسلام فى شيئ . ونرى أنه لابد من توازن بين الواجبات والحقوق .. وأن الواجبات تسبق الحقوق (تربية) .. وأنه لابد من موازنة عادلة بين الملكيتين الخاصة والعامة .. وأن ترك الأثرياء يطغون ويعبثون بأموال الأمة أمر ينكره الإسلام . وكذلك فإن ترك العمال والفلاحين يستأسدون ، ويدمرون ولا يعملون ، وتدليلهم تحت شعارات مختلفة أمر ينكره الإسلام كذلك .. وإذا كان العامل فى البلاد الرأسمالية يعمل بجد وإخلاص ثمانى ساعات كاملة أو أكثر .. فبأى شيئ تسمى البطالة المقنعة للعمالة فى البلاد التى تزعم أنها تقوم على العمال ولصالح العمال ، ولاسيما فى عالمنا الإسلامى .. ؟"[1]

ثانيا : محددات الملكية الخاصة :

من أوضح ملامح الدين الإسلامى العظيم أنه دين وسط ، وأنه دين اعتدال، لا إفراط فيه ولا تفريط ، ولذا نجده يعطى الفرد الحرية فى أمواله التى يكتسبها من حلال ، وكذا فى ممتلكاته ، من عقار ومزارع وتجارة ، ولكنه فى الوقت نفسه يبين له طرق صرفها ، وبيان سبيل الإنفاق منها ، وذلك حتى لا يشتط المالك فيما يفعل ، وحتى لا

---

(١) محمد الغزالى : الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ، ط ٧ ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م ، ص ١٠

يفقد الرؤية السليمة فى كيفية التصرف فى كل ما يملك ، وهناك عدد من الثوابت الإسلامية الراسخة التى ينبغى معرفتها واتباعها ، ومن أهمها :

١ - أن الملك إستخلاف إلهى ومنحة ربانية ، يقول الشيخ عبد الله المصلح : يقول الله تعالى فى بيان هذه الحقيقة ، وهو أصدق القائلين ، وأعدل الحاكمين ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق مايشاء ﴾ ، ﴿ولله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ (المائدة - ١٢٠)، ﴿ تبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾ (الزخرف - ٨٥) ، ﴿ الرحمن على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ (طه - ٦) ، ﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض، قل لله ﴾ (الأنعام - ١٢) ، وغير ذلك من الآيات القرآنية التى تبين أن المالك لهذا الكون بكل ما فيه من إنسان وجماد وحيوان ونبات هو الله الذى خلق كل ذلك ، وهو بالتالى الحاكم فيه بما يشاء ، والمتصرف فيه بما يريد .

٢ - اقتضت الإرادة الربانية ، والحكمة الإلهية أن تستخلف الناس على هذه الأرض ، ويمكن لهم من أسباب المعيشة ما يضمن لهم البقاء للمدة المقدرة، وذلك بما أودع الله فى الإنسان من حرص على النفس وحب للمال﴿وإنه لحب الخير لشديد ﴾ (العاديات -٨) ، وبما أودعه فى هذه الأرض من الخيرات، وبما مكنهم من السعى فى هذه الأرض ليقوموا باستخراج خيراتها ، ونيل فضلها ﴿ هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (هود - ٦١) وقد ذهب فريق من المفسرين إلى أن المراد من

قوله تعالى ﴿واستعمركم﴾ أى جعلكم عمارها وسكانها ، وقيل أن السين والتاء للطلب ، فالمعنى أمركم بعمارتها من بناء وحفر أنهار وغرس أشجار ونحو ذلك .[1]

٣ - لقد وردت آيات صريحة عن والإستخلاف فى الأموال ، ومن ذلك قوله عز وجل ﴿ آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ (الحديد - ٧) ، وكذلك يقول ﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ (النور - ٣٣) ، ومما يدل على أن الملك كله .. كله لله ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ (القصص - ٩٨) ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون ﴾ (مريم - ٤٠) .

وهذا الاستخلاف ليس استخلافا مطلقا ، بل بينت الشريعة أصوله وقواعده ، فلم يترك أمر الناس فى هذه الأرض فوضى دون تنظيم ، فهو مقيد بقيود حددت مداه وكيفيته ، ووضحت طرق الانتفاع والتمتع بما سخره الله للإنسان . والمستخلفون ليسوا أحرارا فى التصرف فيما استخلفوا فيه كيف يشاؤون ، فهم لم يخلقوا ويستخلفوا فى هذه الأرض إلا لعبادة الله ، وإلا فإنهم لم يحققوا شرط الاستخلاف ، ولم يعودوا أهلا له .[2]

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٨٩ .

[2] المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

هذا وهناك إجماع من الفقهاء على أن العباد لا يملكون الأعيان ، وإنما مالك الأعيان خالقها سبحانه وتعالى ، وأن العباد لا يملكون سوى الانتفاع بها على الوجه المأذون فيه شرعا .

٤ – الملكية وظيفة اجتماعية ، والمالك فيها عامل وخازن ، وعليه أن يعمل فى هذا المال بما يستطيعه فى نطاق إرادته ومواهبه وقدرته ، وله على ذلك ثمرة عمله لكن بقدر حاجته وما به طيب عيشه ، وأما ما فضل بعد ذلك فهو من حق صاحب المال ومالكه الحقيقى الذى هو الله – سبحانه وتعالى – ثم إنه لا يجوز لصاحب الملك اختزانه واكتنازه دون استثمار وعمل فيه ، كما لا يجوز أن يمنعه عن ذوي الحاجة ، وما تتطلبه مصالح الدولة عند ظهور حاجتها إليه .[1]

٥ – يجب على المالك أن يحسن التصرف فى ماله ، بدون إسراف ولا تقييد ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما ﴾ . (الفرقان – ٦٧) . فالاعتدال من خصائص الشريعة الإسلامية ، وعلى المسلم مراعاته، وهو ينعم بما تفضل الله به عليه ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (الأعراف – ٢١).

٦ – ضرورة استثمار المالك لأمواله ، وعدم جواز تعطيلها ، لأن تعطيل استثمار المال يؤدى إلى فقر صاحبه ، وبالتالى إلى فقر المجتمع ، والإسلام يكره الفقر ويكافحه ، ولذا حثت الشريعة على

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

الكسب ، ودعت الملاك إلى العمل بجد ونشاط ولسد حاجات من يعولون [١].

ثالثا : أهمية المال فى الإسلام :

يقول الشيخ سيد سابق [٢] ، رحمه الله إن الإسلام ينظر إلى المال على أنه عصب الحياة ، وقوامها ، وضرورة من ضروراتها ، لايستغنى عن الأفراد ، ولا الجماعات ... والله سبحانه وتعالى أسماه " خيرا " وقال فى كتابه الكريم ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ (العاديات – ٨) . وقال عنه جل وعلا ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ﴾ (الجمعة – ١٠) ، أى اطلبوا المال . وجعله ، سبحانه وتعالى زينة ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ (الكهف – ٤٦) .

وقد نوه الله سبحانه وتعالى – بالثروة الحيوانية ، فقال :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون ، وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم *والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لاتعلمون﴾ (النحل – ٥-٨) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٢ .

(٢) السيد سابق ، مرجع سابق ، ص ١٠١

كما نوّه بالثروة النباتية فقال :

﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ (الأنعام — ١٤١) ٠

وكذلك بالثروة المائية فقال :

﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (النحل — ١٤)

وتوجيه الإسلام فى هذه الآيات القرآنية العظيمة نحو نعم الله ، جل وعلا ، فى الأرض والبحر ، هو تربية فى غاية الأهمية ، وحث المؤمنين على أن يستفيدوا من الخيرات المتنوعة والهائلة التى أودعها فى الكون ، ويريد من عباده المؤمنين أن يكونوا على وعى كامل بفوائدها ، وهم مطالبون أن يعلموا أولادهم (تربية) كيفية التعامل معها ، وهم كذلك مطالبون بأن يشكروا الله جلت قدرته، على نعم تسخيرها لهم ٠

والمتمعن فى أحوال العالم من حولنا يجد أن أمما وشعوبا أخرى كانت أسبق من المسلمين ، وأكثر وعيا ، بما فى هذا الكون من خيرات ، وأنها علّمت أبناءها كيفية الاستثمار الإقتصادى الواعى السليم فى هذه الأمور ، ويكفى أن نقول أن الدول السبع الأغنى فى العالم ليس بينها دولة إسلامية واحدة ، وحتى الدول العربية التى ظهرت فى الربع الأخير من القرن الماضى وهى معتزة بغناها وثرواتها بعض الشئ (دول البترول) يؤسفنا أن نقول أن ذلك حدث بدون جهدٍ فاعل من أبنائها ، ولكن الآخرين هم الذين اكتشفوا البترول ، وهم

الذين يستخرجونه ، وهم الذين يكررونه ويصدرونه و يسوقونه ، وهم كذلك الذين كانوا يحددون أسعاره ، ولولا حرب أكتوبر / رمضان المجيدة عام ١٩٧٣مارتفعت أسعاره مضاعفة عشرات المرات ، وإن كانت قد عادت للإنحسارة مرة أخرى ، وهى تتذبذب الآن صعودا متوسطا وهبوطا ، كما يعلم الجميع [١]

رابعا : أهمية كسبه وتحصيله :

يوجهنا الله ، جل وعلا ، إلى كسب المال وتحصيله ، وذلك " بالعمل " و " العمل الجاد " الذى يتعب فيه الإنسان ، ويبذل فيه الجهد والعرق (تربية) ، ويربط ذلك العمل ، تابعا .. ومباشرا .. بالصلاة ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ﴾ (الجمعة — ١٠) ويقول كذلك ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾ (الملك / ١٥) .

بل أن هذا الدين العظيم يشجع المسلم على أن يعتز بعمله ، وعلى أن ينمى كرامته ويحافظ عليها عن طريق " العمل " (تربية) فيبين أن العمل ناتجه بالنهار عزة للنفس ، وإطعام للبطن ، وهو بطبيعة الحال مؤد للثروة وللسكن المريح ، وللإنفاق الكريم ، ثم هو من بعد ذلك مؤد لحب الله — سبحانه — بل إنه كذلك مؤد لغفرانه ، جل وعلا ، فى المساء ، فعن ابن عمر ، رضى الله عنهما ، أن النبى — ﷺ — ، قال :

" إن الله يحب المؤمن المحترف " .

---

[١] رودين ف ، ألن : التربية وقضايا الطاقة ، ترجمة محمد عبد العليم مرسى ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م .

وعن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : قال رسول الله -ﷺ- ، " من أمسى كالا - أى متعبا - من عمل يده ، أمسى مغفورا له " . وأنه ، -ﷺ- ، قال : ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده " ، بل وأكثر من ذلك أن يربط العمل بالجهاد فى سبيل الله ويقترن به ، " والجهاد " هو ذروة سنام الإسلام ، فعن كعب بن عمرة قال : مر على النبى -ﷺ- رجل ، فرأى أصحاب رسول الله -ﷺ- ، من جلده ونشاطه ، فقالوا : يا رسول الله ، لو كان هذا فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله -ﷺ- :

" إن كان خرج يسعى على ولده صغارا .. فهو فى سبيل الله .
وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين .. فهو فى سبيل الله .
وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها .. فهو فى سبيل الله .
وإن كان خرج يسعى رياء ومفخرة .. فهو فى سبيل الشيطان " [١].

وعنه -ﷺ- ، قال :

" سبع يجرى للعبد أجرهن ، وهو فى قبره ، وهو بعد موته : من علم علما ، أو كرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس نخلا ، أو بنى مسجدا ، أو ورث مصحفا ، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته " . وصدق رسول الله -ﷺ- .

فكيف نقرأ ، نحن المسلمين ، كل هذه الآيات القرآنية المجيدة ، وكل هذه الأحاديث النبوية الشريفة ، ولا نعمل بها ، كيف نقرأها ونتشدق بها ، صباح مساء ، ولا نندفع فى تربيتنا لأبنائنا ، ولمجتمعاتنا كلها نحو " العمل " والحث عليه وبيان أساليبه وطرقه ، بحيث نكف أيدينا عن السلف والإقتراض

---

[١] السيد سابق ، المرجع السابق ، ص ص ١٠٤ - ١٠٥ .

والإستدانة ، وكيف نرضى أن تكون أيدينا هى الأيدى السفلى التى تطلب المنح والمعونات .. ثم يأتى الذل والخضوع والخنوع بعد ذلك .. ؟ ونستجدى الدول الأغنى كى ترفع عن كاهلنا الديون أو حتى كى تعفينا من جزء منها ..؟؟

إن الذى يقرأ الخطط الدراسية لتلاميذ المرحلة الإبتدائية ، فى اليابان ، يرى إلى أى حد يدّرسون لهم البيئة المحيطة بهم ، وليس حولهم إلا البحر ، ويتأكد له لماذا أصبحت اليابان ، هذه الدولة الفقيرة فى مواردها الطبيعية ، أصبحت من أغنى شعوب الأرض فى مواردها البشرية (تربية) ، وكيف أن " العمل " فى البحر يضيف لثرواتها مليارات كل عام ، وهى تأكل مما تصيد .. فتشبع ولا تمد يدها ، ثم إنها تصدر منه ، فتغنى وتعتز ، وتتباهى على الأمم [١].

كذلك فإن الأمة التى تتسيّد العالم اليوم ، وتتفرد بتوجيه سياساته ، ونعنى بها الولايات المتحدة الأمريكية ، هذه الأمة ، كانت قبل وصول المهاجرين الأوروبيين إليها لا تعرف كيف تستثمر الخيرات الوفيرة والهائلة التى أودعها الله، جلت عظمته ، فى أرضها وأنهارها وبحيراتها وكذا البحار والمحيطات من حولها ، وحينما وصلت هذه العناصر المهاجرة والنشيطة انكبت عن الأرض تستزرعها ، وتستخرج الكنوز الوفيرة من باطنها ، وذهبت الى البحيرات العذبة ، وما أكثرها هناك – تصيد منها ، وكذا مدت نشاطها الى المحيطات من حولها تستثمرها أيما استثمار .

والذى يعيش هناك ويتعلم يعرف كيف تسهم التربية ، فى المدارس والجامعات وفى أجهزة الإعلام ووسائله فى تعريف المواطن ، الكبير والصغير على السواء ، بخيرات بلده ، وكيف توجهه نحو أفضل

---

[١] إدوارد ب . بو شامب : التربية فى اليابان المعاصرة ، مرجع سابق (راجع المقدمة بيد المترجمة) .

السبل والوسائل للاستثمار المفيد وللتدريب عليه ، بحيث يعود عليه ، وعلى مجتمعه الكبير بالنفع العظيم ، والخير العميم ، إن الجامعات تسهم فى ذلك بجانب الدراسة ، وكليات المجتمع هناك تؤدى خدمات لايمكن تخيلها لملايين المواطنين فى هذا المجال .[1] .

خامسا : التنمية البشرية والاقتصادية فى الإسلام :

من التطبيقات التربو يد الرائعة فى الإسلام توجيه الرسول -ﷺ - ، للمسلمين نحو العمل والاحتراف بحيث يكسب الإنسان المسلم عيشه بكده وتعبه وعرقه ، ولقد ضرب لنا فى ذلك المثل حين جاءه مسلم يسأل معونة فوجهه لأن يحتطب ويبيع ويتكسب ويكفى نفسه وأهله ، وقد كان ، وحين جاء الرجل للرسول -ﷺ - ، وقد تغيرت هيأته ، وحسن هندامه ، سُرَّ النبى -ﷺ - ، وقال له " هذا خير لك من أن تجيئ المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة".

وعن الأرض البوار يقول المصطفى -ﷺ - ، " من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها " ويقول : " من أحيا مواتا فهو له " ويقول " التمسوا الرزق من خبايا الأرض " . ومن التطبيقات الرائعة أنه -ﷺ - ، أعطى أرضا مفتوحة لبعض المسلمين ، وكذلك فعل أصحابه ، وذلك طلبا وحثا للمسلمين العمل فيها ، وعلى تنميتها وتنمية أنفسهم اقتصاديا . وحدث أنه ، -ﷺ - ، أعطى أحدهم أرضا طويلة عريضة ، ولم يستطع الرجل أن يستثمرها ، فلما جاء عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، قال له يا بلال (بلال بن الحارث المزنى) إن رسول الله -ﷺ - ، أقطعك وادى العقيق كله ، وأن رسول الله ، -ﷺ - ، لم يكن يمنع شيئا يسأله ، وأنت لا تطيق مافى يديك ، فقال : أجل ،

---

[1] باتريشياهـ كروسون : الخدمة العامة فى التعليم العالى (بالولايات المتحدة الأمريكية) ، ترجمة ونشر مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

قال : فانظر ما قويت عليه منها فامسكه ، وما لم تطق ولم تقو عليه ، فادفعه إلينا نقسمه بين المسلمين ، فقال لا أفعل والله شيئا أقطعنيه رسول الله -ﷺ -، فقال عمر : والله لتفعلن ، فأخذ منه ما عجز عن عمارته فقسمه بين المسلمين [١] . ولينا نتمعن فى موقف عمر ، رضى الله عنه ، وفى حسمه ، وعدله ، وقوة استمساكه بما رأى أنه حق ، وأنه عدل .

هذا ويشترط لمن يستقطع أرضا أن يستثمرها خلال ثلاث سنين من تاريخ وضع يده عليها ، فإن لم يفعل سقط حق ملكيتها ، يقول الرسول -ﷺ - ، من أحيا أرضا ميتة فهى له ، وليس لمحتجز حق به بعد ثلاث سنوات .

سادسا : قضية الزكاة :

وهذه من أهم قضايا الاقتصاد الإسلامى التى ينبغى على طالب التربية أن يتعلمها لأنه قد أسيئ فهمها فى مجتمعنا المصرى ، حيث سرى بين عامة الناس أنه أمر طيب يأتيه الفرد القادر إذا سمحت نفسه ، وتنازلت عن جزء معلوم مما تمتلك ، بينما هى فرض من الله عز وجل ، لا يكتمل إسلام المرء إلا به ، وهى حق الفقير قرره المولى جل وعلا فى مال الغنى القادر .

ومعروفة هى قضية امتناع الذين ارتدوا عن الإسلام ، بعد وفاة الرسول -ﷺ - ، حين رفضوا دفع الزكاة للخليفة الأول ، أبى بكر ، رضى الله عنه ، ومعروف أيضا موقفه الصلب فى محاربتهم ، حتى بعد أن حاول بعض الصحابة الكرام أنه يثنوه عن الحرب .. ومنهم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم أجمعين ، وذلك حين أصر " أبو بكر " رضى الله عنه ، على مقاتلتهم حتى يؤدوها كاملة ، وقال قولته المشهورة " والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله -ﷺ - ، لقاتلتهم عليه " .

---

[١] السيد سابق ، مرجع سابق ، ص ص ١٠٦ - ١٠٨ .

يقول الإمام محمد أبو زهرة إن الزكاة : هى الواجب الأول على الدولة بالنسبة للفقراء .. وأنها ليست صدقة منثورة كما توهم بعض الناس ، وليس فيها إذلال للفقير ... وهى الضريبة الاجتماعية . إن الزكاة حق معلوم للفقير فى مال الغنى ، وإذا وجبت فى مال فإنه يكون شركة بين الفقراء ، يمثلهم ولى الأمر العادل ، وبين أصحاب الأموال ، فإذا وجبت الزكاة فى زرع لا يكون ملكا خالصا لصاحبه ، بل يكون له تسعة أعشار الزرع إذا سقى من غير آلة ، والعشر لبيت مال المسلمين ، أى الفقراء من المسلمين ...

وقد قرر جمهور الفقهاء أن من يموت ولم يؤد الزكاة الواجبة عليه تكون دينا فى التركة لا تخلص للورثة إلا بعد سدادها ، كمن يموت وعليه دين للعباد، لأن دين الله أحق أن يوفى به ، كم صرح بذلك النبى -ﷺ -

وبذلك يطبق الفقهاء تطبيقا دقيقا المعنى الحقيقى للزكاة ، وهى أنها فريضة اجتماعية تشطر من مال الغنى قدرا معلوما يجمعه ولى الأمر جبرا من صاحبه إن امتنع ، ويكون دينا فى تركته يؤخذ منها إن لم يسدده فى حياته .[1]

وعن الزكاة يقول " الطيار " إن الإسلام بتشريعه الخالد للزكاة يسعى لإيجاد مجتمع متكافل يعطف فيه الغنى على الفقير ، ويحترم الفقير الغنى ، وتبنى فيه العلاقة على أساس المودة والرحمة ، لاوجود فيه للأمراض الفتاكة ، كالحسد والبغض والكراهية ، لأن كل واحد فيه أدى مايجب عليه عن طواعية ورضا نفس "[2] .

---

[1] محمد أبو زهرة : التكافل الاجتماعى فى الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص٧٩ .

[2] عبد الله محمد الطيار : الزكاة ، مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : الرياض ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ص ص ١٠ - ١١ .

هذا وهناك معنى إنسانى وتربوى هام ينبغى التأكيد عليه ، والعناية بفهمه فى المجتمع ، وهو أن الزكاة " حق " لمن يأخذه ، وباعتبارها حق فرضه الله – سبحانه وتعالى – وهو المالك لكل شئ فإنه لاينبغى لإنسان ، كائنا من كان أن يمس كرامة الفقير وإنسانيته ، يقول المولى ، عز وجل : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم ﴾ (المعارج / ٢٥) .

فهى حق للفقير بوصفه أخا للغنى ، لأن الإسلام جعل المجتمع كالأسرة الواحدة ، يكفل بعضهم بعضا ، بل كالجسد الواحد ، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله ، فمن حق الفقير الذى لا يستطيع أن يعمل ، أو يستطيع ولا يجد عملا ، أو يعمل ولا يجد كفايته من عمله ، أو يجد ولكن حل به من الأحداث ماأفقره إلى المعونة ، من أن يعان ويشد أزره ويؤخذ بيده ، وما يعطاه الفقير والمسكين وغيرهما من أهل الزكاة حق لهم لايمس كرامتهم وإنسانيتهم ، وليس فيه تفضل من الغنى لأن ما يدفعه واجب عليه .

وينقل " الطيار " عن الفقيه العالم الشيخ يوسف القرضاوى ، من كتابه "فقه الزكاة " عبارات دالة يقول فيها " وبهذا يستطيع هذا الفقير أن يشارك فى الحياة، ويقوم بواجبه فى طاعة الله ، وبهذا يشعر أنه عضو حى فى جسم المجتمع ، وأنه ليس شيئا ضائعا ، ولا كما مهملا ، وإنما هو فى مجتمع إنسانى كريم يعنى به ، ويرعاه ويأخذ بيده ، ويقدم له يد المساعدة فى صورة كريمة ، لا من فيها ولا أذى ، بل يتقبلها من يد الدولة ، وهو عزيز النفس ، را فع الرأس ، موفور الكرامة (تربية) لأنه إنما يأخذ حقه المعلوم ، ونصيبه المقسوم ، حتى لو اضطربت الأمور فى المجتمع المسلم وقدر للأفراد أن يكونوا هم الموزعين للزكاة بأنفسهم فإن القرآن يحذرهم من إهانة الفقير أو جرح إحساسه بما يفهم منه الاستعلاء عليه ، أو الامتنان ، أو أى معنى يؤذى كرامته كإنسان ، وينال

من عزته كمسلم ، (قمـــة فى التربية فى المجتمع المسلم) . قال الله تعـــالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولايؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ﴾ (البقرة / ٢٦٤) [١].

مصارف الزكاة :

قال تعالى ﴿ إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ﴾ (التوبـــة /٦٠) صـــدق الله العظيم ، ويقول الإمام " أبو زهرة " فهذه أصناف ثمانية وهم :

الفقراء ، والفقير هو الذى لا يملك نصاب الزكاة ، أو لا يملك ما يكفـــى حاجته الأصلية ، والمسكين هو المريض الذى لا يستطيع أن يكسب ما يكفيـه ، أو هو الذى أذلته الحاجة ودفعته الى السؤال ، وكيفما كان فهو من الفقراء ، إن أخذنا بعموم لفظ الفقير .

والعاملون عليها هم الذين يجمعون الزكاة ، ويقومـــون علـــى إداراتـــها وتصريف شئونها ، وفى الرقاب هم العبيـــد الذيـــن لا ســـبيل إلـــى عتقـــهم ، والأسرى ، والمصرف الخامس هم الغارمون وهم المدينـــون الذين عجـــزوا عن الوفاء بديونهم ، ولم يكونوا قـــد اقترضوهـــا لإســـراف أو تبذيـــر ، والمجاهدون فى سبيل الله ، وابن السبيل ، وهو الذى يكون فى مكان لا يجد فيه الطعام والمأوى فينفق عليه من مال الزكاة حتى يعود إلـــى أهلـــه ، وأخـــيرا المؤلفة قلوبهم ، وهـــم الذين كانـــوا يعطون ليثبتـــوا على إسلامهم ، أو فـــى

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ١٥٨ - ١٥٩ .

سبيل الدعاية للإسلام بين القبائل ، وقد اختفى ذلك القسم ، فإن وجد صرف له [١]

وقبل أن نختتم هذا الجانب المتعلق بالزكاة نشير إلى رأى أحد فقهاء القانون ، وهو يتحدث عن نظام الزكاة فى المجتمع الإسلامى ، والذى يتميز عن غيره من النظم الوضعية التى حاولت أن تكفل حق الفقير فى مجتمعه " إن الزكاة نظام للضمان الإجتماعى الإسلامى ، شامل أصيل ، وفريد متميز ، يحوز – بجذوره الدينية ، وبأحكامه الرائدة – قصب السبق على أنظمة التكافل والتأمين الاجتماعى المعاصرة جميعا ، ويقيم ميزان العدل فى المجتمع ، ويعين المعوزين ، دون حرج على الدولة كما أنه لا يحدث إرهاق للأغنياء ، ولا إخلال لمبدأ المساواة بين المواطنين [٢] .

ونحن نتحدث عن الأصل الإقتصادى للتربية " فى مجتمع المسلمين ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن المجتمع المسلم يهمه جدا ألا يكون فيه فقير ولا محتاج فى الوقت الذى يكون فيه موسرون يتمتعون بكل مافى الحياة من مباهج ومسرات وملذآت ، وبذلك تنشأ عوامل الحقد والحسد والبغضاء فى النفوس ، وتلك أمراض اجتماعية وخيمة العواقب على الفرد والمجتع على السواء ، يقول الشيخ يوسف القرضاوى ، حفظه الله ، " وقد عرفت الإنسانية الفقر والفقراء منذ أزمنة ضاربة فى أغوار التاريخ ، وحاولت الأديان والفلسفات منذ القدم أن

---

(١) محمد أبو زهرة : تنظيم الإسلام للمجتمع ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ – ١٩٦٥م ، ص ص ١٥٧ – ١٥٨ .

* راجع كذلك : عيسى عبده : النظم المالية فى الإسلام ؛ معهد الدراسات الإسلامية ، القاهرة ، (بدون تاريخ)

(٢) عثمان حسين عبد الله : الزكاة الضمان الإجتماعى الإسلامى ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م ، ص ٧ .

تحل مشكلة الفقر ، وتخفف من عذاب الفقراء .. حينا عـن طريـق الوصايـا والمواعظ ، والترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق التحليق النظرى في عـالم مثالى لا تفاضل فيه ولا طبقات ، ولا فقر ، ولا حرمان ، وهو عالم يرسم على صفحات الكتب ، لا في واقع الناس ، وأبرز مثال لذلك " جمهورية أفلاطـون ، قبل بضعة قرون من ميلاد المسيح عليه السلام ، وطورا عن طريق حركـات متطرفة تريد معالجة الانحراف الواقع بانحراف أشد منه ، كحركة " مـزدك " فى فارس بعد خمسة قرون من الميرد ، وقد دعا إلى شيوعية الأموال والنساء!!

وفى عصرنا هذا احتلت مشكلة الفقر — والمشكلة الاقتصادية على وجـه العموم — مكانا فسيحا فى عقول الناس وقلوبهم ، واتخذها المخربون والهدامون أداة لإثارة الجماهير ، والتأثير عليها ، وكسبها إلى جانب مذاهبـهم اللادينيـة الباطلة ، بإيهامهم أنها فى صف الضعفاء ، وفى خدمة الفقراء ، وساعد علـى ذلك جهل المسلمين بنظام الإسلام ، وتأثرهم بالدعايات المضللة التى مسـخت صورته ، وشوهت جماله ، مستغلة فى ذلك الواقع الكئيب لحيـاة المسـلمين ، والأفهام الخاطئة لبعض علمائهم فى عهود الإنحطاط [١] .

ثم يقول الشيخ الفقيه — وجب على كل من عنده علم من الإسلام أن يبيـن للمسلمين (تربية) حقيقة ما بعث الله به محمدا -ﷺ- ، من الهدى والرحمة، وما شرع الله على يديه من أحكام ، تعالج مشكلات الفرد والمجتمع ، علاجـا يقطع الداء من الجذور ، لا مجرد علاج سطحى بمسكنات وقتية ، تخفف الألـم ساعة من الزمن ، ولا تستأصل جرثومة المرض .

---

[١] يوسف القرضاوى : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٥/ ، ص ص ٣ — ٤ .

إن نظرة الإسلام إلى الفقر وعلاجه له ، ووسائله فى علاجه ، ورعايتـه لحقوق الفقراء ، وكفالته لحاجتهم المادية والأدبية ، تجعله مذهبا متميزا عن كل مذهب آخر يروج له المروجون فى بلادنا وغير بلادنا فى هذا الزمــن ... إن للإسلام نظرة إلى الحياة ، وإلى الإنسان ، وإلى العمل ، وإلى المـال ، وإلـى الفرد ، وإلى المجتمع ، تخالف فى مجموعها نظرة المذاهب الأخرى ، يمينيـة ويسارية ، : إنها نظرة متفردة مستقلة ، لا شرقية ولا غربيـة ، بـل ربانيـة إنسانية: ﴿ يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ﴾ (النور / ٣٥) ، صدق الله العظيم .[1]

إن من معجزات الدين الإسلامى ، ومن الدلائل على أنه مـن عنـد الله ، وعلى أنه الرسالة الخاتمة الخالدة : أنه سبق الزمن ، وتخطى القرون ، فعنـى بعلاج مشكلة الفقر ، ورعاية الفقراء ، دون ثورة منهم ، ولا مطالبة من فـود أو من جماعة بحقوقهم ، ولم تكن عنايته هذه عناية سـطحية ، أو عارضـة ، أو ثانوية فى تعاليمه وأحكامه ، بل كانت من خاصة أسسه ، وصلب أصوله ، فـلا عجب أن كانت الزكاة — التى ضمن الله بها حقوق الفقراء والمساكين فى أموال الأمة ، وفى عنق الدولة — ثالثة دعائم الإسـلام ، وأحـد أركانـه العظـام ، وشعائره الكبرى ، وعباداته الأربع ..

وقد جعل القرآن الزكاة — مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة — عنـوان الدخول فى الإسلام ، واستحقاق أخوة المسـلمين ، والإنتمـاء إلـى المجتمـع الإسلامى ، قال الله تعالى فى شأن المشـركين المحـاربين : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ (التوبة /٥) وقـال

---

[1] المرجع السابق ، ص ص ٤ – ٥ .

سبحانه وتعالى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾ (التوبة / ١١) .

ومنهج القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، أن يقرنا الصلاة بالزكاة .. دائما، دلالة على قوة الاتصال بينهما ، وأن إسلام المرء لايتم إلا بهما ، فالصلاة عمود الإسلام ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام ، من مر عليها نجا ، ومن تجاوزها هلك ، قال عبد الله بن مسعود " أمرتم بإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له " .

وقال جابر عن زيد : " افترضت الصلاة والزكاة جميعا ، لم يفرق بينهما " فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين " ، وأبى أن تقبل الصلاة إلا بالزكاة ، وقال : " رحم الله أبا بكر .. ماكان أفقهه " يعنى بذلك قوله : " لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة " .[1]

ثامنا : قضية الرشوة :

ونحن نتحدث عن " الأصل الاقتصادى للتربية " ينبغى أن تشير إلى بعض المظاهر السلبية التى تصاحب النشاط الاقتصادى فى أى مجتمع ، ومن هذه المظاهر ، على سبيل المثال .. لا الحصر ، نجد قضية الرشوة، وقضية السرقة ، وقضية الغش .. الخ ، وهذه القضايا وغيرها ينبغى على دارس التربية المتخصص أن يقف عليها وعلى أبعادها ، كما أنه من الأهمية بمكان أن يعرف الجذور الإسلامية للتعامل معها ، خاصة وأن مجتمعاتنا بدأت تعرف الكثير من هذه المظاهر مع الاندفاع فى التنمية الاقتصادية ، وبدأنا نسمح ونقرأ عن العمولات التى يقبضها بعض كبار المسؤولين ، وعن الرشاوى التى يمنحها

---

[1] المرجع السابق ، ص ص ٦٩ – ٧٠ .

كبار رجال الأعمال ، وكذا عن السرقات التى تتم فى كثير من بنوكنا ومؤسساتنا الاقتصادية الكبرى ، ومن جانب آخر بدأنا نقرأ عن مطلب " الشفافية " والنقاء فى المعاملة ، والمطالبة " بنظافة اليد " و " طهارة التعامل " ، ومعروف فى ثقافتنا أننا حين نبدأ فى الدفاع عن مثل هذه الأمور فإنه تكون هناك أسباب ووقائع أدت إلى هذه المطالبات .

والرشوة محرمة فى الشرع الإسلامى ، وقد لعن الله الراشى والمرتشى والرائش الذى يمشى بينهما ، والرشوة هى مايبذل من مال أو منفعة ، لإحقاق باطل ، أو إبطال حق ، أو امتناع عن واجب ، أو ترك محرم .

وإذا تفشت الرشوة فى مجتمع ، انحلت قوى أعضائه ، وخارت عزائم أفراده ، وبدل بحثهم عن التعلم والعمل والإنتاج والإنفاق ، فإنهم يبحثون عن المرتشى ، ويعملون على توليته ، بدل المنتج الشريف ، لكى يحققوا به مآربهم. والغالب أن الراشى لا يرشو إلا إذا علم من نفسه أنه مقصر غير محق ، سيئ غير محسن ، وعلم أن سلعته أو خدمته لا يمكن رواجها إلا مدعومة بالرشوة .[1]

والشريعة الإسلامية تحرم الرشوة والكسب عن طريقها بأى شكل من الأشكال ؛ والرشوة اليوم تعددت أساليبها ، ويجنى المستغلون مناصبهم وجاههم من أجل جمع الثروات والإثراء على حساب الآخرين ، وقد نهى الرسول -ﷺ- ، عن أخذ الرشوة ، وحرمها على أمته ، وقد قال -ﷺ- ، " ما بال العامل نستعمله على بعض العمل من أعمالنا فيجيئ فيقول هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، أفلا جلس فى بيت أبيه أو فى بيت أمه فينظر هل يهدى إليه شيئ أو لا ،

---

[1] رفيق يونس المصرى : أصول الاقتصادى الإسلامى ، دار القلم ، دمشق ، ط ١٤١٣،٢هـ - ١٩٩٣م ص ص ١٠٧ - ١٠٨ .

والذى نفس محمد بيده لا يأتى أحد منكم منها بشيئ إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيرا له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر "[١] .

ومن مظاهر استغلال الحكم الذى يحرم الكسب والتملك عن طريق مايلى :

أ - وزير أو مسئول له شركة مع آخرين يقومون بالاستيراد فيتحكم فيه ، بما يكون سببا للغلاء على حساب الناس ، والمستفيد من ذلك هو المسؤول مع مجموعته .

ب - قد تصدر الدولة ، لسبب أو لآخر ، قرارا بموجبه تمنع استيراد البضائع التى تصنع محليا من شركة يملكها أفراد معينون ، ونتيجة لذلك يرتفع سعر الإنتاج المحلى ، لا لشيئ وإنما لفقدان المنافسة واحتكار التصنيع ، وكل ذلك على حساب المواطنين .

ج - قد يكون لذوى القضاء والجاه امتيازات تخصهم ، وينالون من ورائها الربح الوفير ، ولقد جرت السنة الراشدة أن تحاسب من زاد ماله بعد توليه أمرا من أمور المسلمين ، ووضع عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه مبدأ (من أين لك هذا ؟)

هذا وإن المثال الذى نضربه فى نزاهة الحكم فى المجتمعات الغربية ، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والذى يتمثل فى أن يقدم رئيس الدولة قبل أن يدخل البيت الأبيض تقريرا بما يمتلكه من أموال وعقارات وشركات .. كل شيئ ، ثم هو يحاسب بعد ذلك عند خروجه من الحكم ، بعد أربع أو ثمان سنوات ليرى الكونجرس والشعب هل زادت ثروته أو تضخمت على حساب المواطنين ، ، أقول هذا المثال قدمه لنا مجتمع المسلمين فى المدينة منذ أكثر

---

[١] عبد الله المصلح ، مرجع سابق ، ص ص ١٧١ - ١٧٣ .

من ألف وأربعمائة عام تطبيقا لحديث رسولنا -ﷺ - ، " ما عدل والٍ اتجر في رعيته أبدا " .

وفى هذا المجال يذكر أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حين لاحظ أن إبل ابنه قد ظهرت عليها السمنة أدرك بفطنته المعهودة ، وخوفه من الله ، أن الرعاة كانوا يرعونها فى المناطق الخصبة ويعتنون بها لأنها ابل ابن أمير المؤمنين ، وقد اعتبر الخليفة العادل أن ذلك من باب استغلال النفوذ ، وأمر ابنه أن يبيعها ويجعل ربحها فى بيت مال المسلمين (*).

تاسعا : قضية السرقة :

وهذه القضية من أخطر القضايا التى يتعرض لها الإقتصاد فى مجتمعاتنا الإسلامية ، خاصة وهى فى مجملها مجتمعات نامية يؤثر فيها بشدة ماقد يستبيحه البعض لأنفسهم ، خاصة وأن هذا البعض اذا كان من كبار المسؤولين فإن سرقاتهم من المال العام تكون كبيرة جدا.. بالملايين .. وربما بعشرات الملايين ، مما يؤثر على الأوضاع الاقتصادية فى البلد الذى يسرق منه .

(*) فى أهرام الأربعاء ١٧ مايو ٢٠٠٠ خبر فى الصفحة الخامسة يقول عنوانه : " كلينتون لن يحمل معه سوى هدايا ب ٢٣ ألف دولار " ، والتفاصيل تقول : قرر الرئيس بيل كلينتون أن يحتفظ من الهدايا التى تلقاها ب ٢٨ هدية يرغب فى أن يحملها معه عندما يترك البيت الأبيض . وقد بلغت قيمة الأصول المملوكة لكلينتون مابين ١,٢٦ ، ٥,٧ مليون دولار . معظمها أسهم فى صناديق للاستثمار .. ومنذ عام ١٩٩٣ فإن الفواتير القانونية المستحقة على عائلة الرئيس بلغت ١٠,٧ مليون دولار ، وحتى فبراير من العام الحالى كانت مديونة ب ٤,٣ مليون دولار .

أليست هذه هى الشفافية ..؟ فى أغنى وأقوى بلد فى العالم ..؟؟!!

والسرقة من الأمور التى شدد الله - سبحانه وتعالى - العقوبة فيها ، لأن السارق ، يستولى دون وجه حق ، على جهود الآخرين وعرقهم ، وقد يكونون فى أشد الحاجة إلى ماسرق منهم ، بينما المعتدى الأثيم يأخذ أموالهم لينفقها فيما حرم الله .

ويقرر الشيخ محمد الغزالى ، رحمه الله ، أن " السرقة جريمة خلقية واجتماعية كبيرة ، رتب عليها الدين عقوبة دنيوية ، تتراوح بين قطع اليد ، وقطع العنق ، عندما تكون السرقة فى الخفاء ، أو عندما يكون صاحبها مدمن اختلاس ، أو عندما تكون السرقة غصبا بالإكراه ، كما يعبر القانون الحديث .

وعقاب كهذا ليست به شائبة قسوة ، مادام القصد من تنفيذه تأمين الحقوق، وصيانة الجهود ، وتوجيه الناس إلى العيش من كسبهم الحلال لا السطو على كسب غيرهم ، والعيش به من حرام ... ولقد قصد الشارع من وراء " درء الحدود بالشبهات " ألا تقطع إلا اليد الظالمة الآثمة ، يد اللص المعتدى على حق غيره يسرقه ، غير قانع بما عنده ، وهو يكفيه ويغنيه .

ويمضى الشيخ الفقيه فيقرر " أن أيسر الأمور هو إقامة مجتمع تقل فيه جرائم السرقة ، أو تختفى ، لا بالإرهاب والقطع والقتل ، ولكن بمنع الأسباب المادية التى تلجئ إلى السرقة فى أغلب الأحيان ، عندما تفتح أبواب العمل ، وتضبط مصادر الكسب ، وتحدد أسباب الملكية وقيمتها ، وعندما يحول تعطل الطبقات المترفة إلى عمل ، وتستثمر أموالها فى المشروعات التى يفيدون بها ، ويفيدون منها .. عندئذ تقل جرائم السرقة حقا ، ويومئذ يستحق السارقون أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف [1] .

---

[1] محمد الغزالى : الإسلام والأوضاع الإقتصادية ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ص ٦٤ - ٦٥ .

وحتى لايفهم الناس الإسلام فهما خاطئا ، وحتى لايتسرع إنسان ويقول بأن الإسلام فيه من القسوة شيئ ، حينما يقول بقطع يد السارق ، حتى لايقع ذلك نقرأ للشيخ يوسف القرضاوى ، الفقيه العالم يقول الرجل :

" إن الإسلام ليس تشريعا فقط ، إذ أن الجانب التشريعى أو القانونى ليس هو كل الإسلام ، فالإسلام عقيدة تلائم الفطرة ، وعبادة تغذى الروح ، وخلق تزكو به النفس ، وأدب تجمل به الحياة ، وعلم ينفع الناس ، ودعوة لهداية العالم ، وجهاد فى سبيل الحق والخير ، وتواصى بالصبر والمرحمة ، كما أنه - فى الوقت نفسه - تشريع يضبط سير الحياة ، وينظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقته بدولته ، وعلاقتها بالدول الأخرى ، مسالمة ومحاربة ٠

إن الإسلام توجيه وتربية وتكوين للفرد الصالح ، وللمجتمع الصالح ، قبل أن يكون قانونا وعقابا . إن العقاب - فى الإسلام - للمنحرفين من الناس ، وهؤلاء ليسوا هم الأكثرية ، وليسوا هم القاعدة ، بل هم الشواذ عن القاعدة ، والإسلام لم يجئ لعلاج المنحرفين أساسا ، بل لتوجيه الأسوياء ووقايتهم أن ينحرفوا . والعقوبة ليست هى العامل الأكبر فى معالجة الجريمة فى نظر الإسلام ، بل الوقاية منها بمنع أسبابها هى العامل الأكبر ، فالوقاية دائما خير من العلاج [١] .

---

[١] يوسف القرضاوى : بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/ ، ص ص ١٩٢ - ١٩٣ .

ويعرج الشيخ الفقيه على قضية السرقة مبينا " أن القرآن الكريم تحدث عن عقوبتها فى آيتين فقط من سورة المائدة وهما قوله تعالى ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ (المائدة/ ٣٨ – ٣٩).

وهذه الآية التى أوجبت قطع يد السارق ، إنما نزلت فى سورة المائدة ، وهى من أواخر ما نزل من القرآن ، أى بعد أن توطدت أركان المجتمع الإسلامى الذى أسسه رسول الله -ﷺ- ، فى المدينة ، وهو مجتمع يقوم على العدل والتكافل والأخوة ، وأهله كالأسرة الواحدة ، بل كالجسد الواحد ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، يأخذ قويه بيد ضعيفه ، ويصب غنيه على فقيره ، ويتكافل أهله فى سرائهم وضرائهم ، فليس بمؤمن من بات شبعانا وجاره جائع ، وليس بمسلم من يستأثر بالخير دون أخيه ، الغنى فيه مستخلف فى ماله ، بل فى مال الله عنده ، وفى ماله حق معلوم ، للسائل والمحروم ، والزكاة فريضة دينية مالية اجتماعية ، تؤخذ من أغنياء المجتمع لترد على فقرائه ، وهى الركن الثالث من أركان الإسلام ، ومن لم يدفعها طوعا أخذت منه كرها ، ومن أبى وكان ذا شوكة أعلنت عليه الحرب حتى يؤديها ، ولو كانت عناقا أو عقال بعير .

والزكاة هى أول الحقوق فى المال ، وليست آخرها ، ومن كان عند فضل مال فليعد به على من لامال عنده . هذا ولقد نزلت قبل آية حد السرقة عشرات الآيات ، بل مئاتها ، تأمر بإيتاء الزكاة ، وتحض على طعام المسكين ، وتدعو إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وتحث على إقامة العدل والقسط بين الناس ، وتنهى عن الظلم فى كل صوره وأشكاله ، وتحذر من مصائر الظالمين فى الدنيا والآخرة .

ولهذا لا يتصور فى ظل (الحل الإسلامى) الصحيح أن تقطع يد السارق فى مجتمع لا يجد العاطل فيه عملا ، ولا الجائع خبزا ، ولا العريان كساء ، ولا المريض علاجا ، ولا الأمى مدرسة يتعلم فيها ، فى حين تلعب فئة قليلة فيه بالملايين من الجنيهات ، أو الدنانير ، أو الريالات ، تنثرها يمينا وشمالا ، إلا على الفقراء والمتعبين ..

إن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، أوقف تنفيذ حد السرقة فى عام المجاعة ، وليس معنى هذا أن الحد قد وجب مستوفيا شروطه وأركانه .. ثم أسقطه .. فما كان ليفعل ذلك ، ولكنه رأى ، بما خصه الإسلام من بصيرة وفقه فى الدين ، اقتبسه من مشكاة النبوة ، أن جو المجاعة العامة ، بضغوطه وتأثيراته ، يثير لونا من الشك أو الشبهة يفسر لمصلحة السارق المتهم ، فإن الغالب فى مثل هذه الحال ، أنه لم يسرق إلا من حاجة ، ومثل هذا أهل لأن يرحم و يعذر ، لا أن يعاقب ويقطع ، ومعنى هذا أن الحد لم يجب أصلا حتى يقام .

وأكثر من ذلك أن نجد أن عمر الملهم المسدد يهدد بقطع يد السيد الذى سرق غلمانه ، لأنه رآه لا يعطيهم ما يكفيهم ويغنيهم عن التطلع إلى ما عند الآخرين ؛ لهذا أعفى الغلمان من العقوبة ، وهدد سيدهم بها إذا تكرر منهم ذلك[1].

ويقرر الشهيد سيد قطب ، رحمه الله ، أن عقوبة السرقة الصارمة - فى الإسلام - هى دليل على احترام حق الملكية الفردية وعلى صيانته ، وقد نص القرآن الكريم على ذلك نصا لا لبس فيه ولا شبهة ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا

---

[1] المرجع السابق : ص ص ١٩٥ - ١٩٦ .

أيديهما جزاء بما كسبا ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم ﴾ (المائدة / ٣٨ - ٣٩) ٠كذلك فإن الغصب محرم ملعون من يجترحه ، قال رسول الله - ﷺ - ، " من ظلم من الأرض شيئا طوقه من سبع أرضين " (الشيخان واللفظ للبخارى) .." ومن أقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان " (حديث رقم ٣٩٤٦ مسند الإمام أحمد) ٠[١]

عاشرا : قضية الترف والإسراف :

ونحن مازلنا نتحدث عن الأصل الإقتصادى للتربية نجد أنه من الضرورى أن نتوقف عند هذه القضية ، قضية الترف والإسراف فى حياتنا ، نحن المسلمين ، خاصة وأن قرآن ربنا العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، هذا القرآن وصف المبذرين بأنهم إخوان الشياطين ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ (الإسراء - ٢٧) ٠

ولعل الكفر هنا الملتصق بالإنسان المسرف والمبذر هو الكفر بالنعم التى أنعمها الله ، جلت قدرته ، وبعثرة هذه النعم ، دون حساب ، يمينا ويسارا ، على ملذات عابرة ، وشهوات للنفس تافهة ، وليس هذا من الإيمان فى شيئ ، والأمة التى تعرف طريق السرف والتبذير هى أمة تحفر قبرها بيديها ، لأن المترفين المنعمين لايبنون حضارة ، ولا يقيمون أمة ، ولقد كان بناة حضارة هذه الأمة الإسلامية ، فى معظمهم يعيشون عيشة بسيطة لا تكلف فيها ولا إنفاق بلا حد ، بل كان عمر بن الخطاب ، وهو الخليفة الثانى الذى فتحت فى

---

[١] سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م ، ص ص ٨٨-٨٩ .

عهده إمبراطوريات وممالك ، فى شرق وفى غرب ، وجلبت إلى المدينة أموالا بلا حصر ، ووزعت على المسلمين جميعهم ، هذا الخليفة الذى أذهل الناس عدله وورعه وخوفه من الله أثر عنه قوله وهو يحدث أصحابه يوما عما يحل له من أموال المسلمين ، قال : " أستحل من مال المسلمين حلتين .. حلة فى الشتاء وحلة فى القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر من الظهر ، وقوت أهلى ، كقوت رجل من قريش ليس بأغناهم ، ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين .. يصيبنى ما أصابهم " .

وعن ابن سعد باسناده ، عن عمر ، رضى الله عنه ، أنه قال : " أنزلت مال الله عندى بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت عنه ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف "[1] .

ثم انقضى عصر الخلفاء الراشدين ، وجاءت الدولة الأموية التى بدا حكامها ــ للأسف الشديد ــ يعرفون الترف والتبذير والإنفاق بلا حدود على شهواتهم وملذاتهم ، وعلى المقربين من الشعراء والمداحين والكاذبين والمنافقين، ولكن للحق جاء من بينهم خليفة زاهد ،. هو عمر بن عبد العزيز ، حفيد عمر بن الخطاب ، الذى أعاد سيرة جده رضى الله عنه ، فحرم على نفسه، وعلى آل بيته ، ما كان سائدا بين حكام وأمراء بنى أمية قبله ، بل ومنع المقربين منه من مباشرة الإسراف والترف الزائدين عن الحد ، حتى ذكر الجميع بسيرة جده العظيم ، عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، [2].

---

[1] محمد سيد (محقق) : سيرة ومناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م ، ص ٨٢ .

[2] عثمان حسين عبد الله : الزكاة .. الضمان الإجتماعى الإسلامى ، الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩م ، ص ١٥٢ .

ويقرر الشهيد سيد قطب ، رحمه الله ، أن صاحب المال فى الإسلام ليس حرا فى ماله يفعل به ما يشاء ، دون ضابط ، أو وازع من دين ، . حقيقة هو له حريته ، ولكن داخل إطار من الحدود ، ثم أنه قلما يكون هناك تصرف شخصى لا علاقة له بالآخرين ، وإن لم تكن علاقة مباشرة أو واضحة .

إن اليد المغلولة كاليد المسرفة .. كلتاهما لا يقبلهما الإسلام ، لما فى كلتيهما من ضرر بالغ على النفس وعلى الجماعة ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ (الإسراء – ٢٩) . ﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ (الأعراف / ٣١) .[١]

والإسراف هو الطرف الآخر للمعادلة ، وهو مفسد للفرد والجماعة ، والإسلام يكرهه كراهية شديدة ، ويبغض أن يكون المال دولة بين الأغنياء لئلا يؤدى تضخم الثروة لإنفاقها فى سبيله ، ويعده مصدر شر لصاحبه وللجماعة التى يعيش فيها ، وبهذا يكون منكرا يجب على الجماعة أن تغيره ، وإلا عرضت نفسها للتهلكة بسببه .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية فى كراهة الترف وتحريمه متوافرة كثيرة بصفة بارزة ، تشعر أنه من أكره الحرام إلى الله ورسوله ، والإسلام الذى يحض الناس على التمتع بطيبات الحياة ، ويكره أن يحرموها على أنفسهم وهى لهم حلال ، ويدعو إلى جعل الحياة بهجة مقبولة ، لا قاتمة ولا منبوذة... هذا الإسلام نفسه يكره السرف والترف تلك الكراهية الشديدة .

---

[١] سيد قطب : العدالة الإجتماعية فى الإسلام ، مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

إن المترفين حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة ، حريصون على شهواتهم ولذائذهم ، حريصون على أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم ، والهدى والدين والإيمان يحرمهم الكثير مما يحرصون عليه، ويحدد لهم سبل المتاع المباح — وهو بالقياس إليهم قليل ضئيل لا يرضى مرض نفوسهم وترهل شهواتهم — ويرفع قيم الناس جميعا فلا يكون لهم من السلطان المطلق على المستضعفين ما يجعلهم أدوات خاضعة وآلات منفذة ، ويحرمهم الخرافات والأوهام والأساطير التي يحيطون بها أنفسهم ، أو يستغلونها في المجتمعات الضالة الجاهلة المستسلمة .. لذلك هم أعداء كل هدى وكل عرفان ، ذلك فضلا على ما يصنعه الترف بالضمير ، وما يحدثه المتاع الغليظ من جمود في المشاعر .

والرسول -ﷺ- ، يسمى بيوت المترفين بيوت الشياطين ، لما ينبع فيها من الفساد ، ولما يخرج منها من الفتنة ، والترف كان سبب الهلاك على مدى التاريخ ، فالترف سبب للبطر ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ، فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا ﴾(القصص / ٥٨)٠ولاجرم أن يكون الترف سبب العذاب في الآخرة بما يؤدي اليه من معقبات ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال : في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ﴾ (الواقعة ٤١ — ٤٨)٠[١]

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١١٠ — ١١١ .

وينتقل الكاتب المسلم الواعى – رحمه الله – إلى بعد آخر هام ، وهو بعد مسؤولية الجماعة فيقول إن الهلاك والعذاب لا يصيبان الفرد المترف وحده ، بل يصيبان الجماعة التى تسمح بجود المترفين ، ذلك أن وجود المترفين فى الجماعة ، وسماح الجماعة بوجودهم وسكوتها عليهم ، وقعودها عن إزالة أسباب الترف ، وتركها المترفين يفسدون .. كل ذلك أسباب تؤدى حتما إلى الهلاك والتدمير بطبيعة وجودها •

إن الجماعة هى المسؤولة عن هذا المنكر الذى يقع فيها ، فالترف لابد أن يؤدى إلى المنكر بحكم وجوده فى الجماعة ، إذ الطاقة الفائضة لابد لها من متصرف ، فهناك مال فائض ، وهو طاقة ، وهناك حيوية جسد فائضة كذلك ، وهى طاقة ، والفتية المترفون والفتيات المترفات ، وهم يجدون الشباب والفراغ والجدة ، لابد أن يفسقوا ، ولابد أن يبحثوا عن مصارف أخرى لطاقة الجسد وطاقة المال وطاقة الوقت ، وغالبا ما تكون مصارف تافهة ، تأخذ طابعها من الزمن والبيئة ، ولكنها تلتقى عند حد التفاهة والميوعة والقذارة الحسية والمعنوية .

وفى الجانب الآخر المستغلون والمستربحون ، والمحتاجون من تجار الرقيق ، والمهرجين ، والذيول ، وحواشى المترفين ، ينشدون الدعارة والترهل، ويرخصون كل قيم الحياة الجادة ، التى لا تروق للمترفين والمترفات.

ثم يسرى الداء إلى سائر مرافق الحياة ... ثم تكون العاقبة التى لابد منها، وهى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وانتشار الإباحية ، وترهل الأجسام والعقول ، وانحطاط المعنويات والروحيات ، عنده يحق أمر الله ، فيدمر هذه

الجماعة تدميرا ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ أمرنا هنا بمعنى أكثرنا (الإسراء / ١٦).

ذلك رأى الإسلام فى " جريمة الترف " يقول سيد قطب ، إنها جريمة تبدأ فردية ، فإذا سكتت عنها الجماعة ، ولم تُزل هذا المنكر (تربية) باليد واللسان والقلب ، آتت الجريمة ثمراتها ، وأفرخ الوباء فى جسم الجماعة ، وعرّضها للهلاك فى النهاية ، بحكم ترتب النتائج على المقدمات ، والمسببات على الأسباب ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (الأحزاب / ٦٢).[1]

وينص الشيخ الغزالى - رحمه الله - على أن القرآن العظيم يرى فى وجود الطبقات المترفة خطر داهم لايفتأ بتهديد الحياة الإنسانية ، ويملأ مستقبلها بالغيوم والرجوم ، فالمترفون أعداء كل إصلاح ، وهم خصوم الحق المتألبون ضده فى كل زمان ومكان ، وهم مصدر فساد عريض ، ومثار فتن متجددة ، وطبقاتهم تشبه المستنقع الراكد ، لا تزال تهيج منه جراثيم المرض ، وتنبعث منه روائح الحمى ، فإما تدارك المصلحون الأمر فردموا المستنقع واستراحوا منه ، وإما بقى على حاله فاسدا مفسدا ، حتى يعم الوباء ، ويستشرى الخطر ، وتصاب الأمة بالفناء العاجل ويلحق كيانها ، ويحطم أركانها .

إن أساس التأخر ، وسبب الدمار الذى يصيب الأوطان والشعوب هو من هذه الطبقات ، ومرجع ذلك أن حياة الترف تحول دائما عن مشاغل العمل وأسباب الكفاح ، ولا يتسع الميدان فيها إلا للهو والبطالة.

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ١١١ ـ ١١٢ .

وطبيعة الشهوات الإنسانية أنها إذا لم تجد حدودا تقف عندها ، طغت بأصحابها ، وسخرت قواهم للأغراض الدنيئة .[١]

ولسنا فى حاجة بعد كل ما كتب عن التبذير والإسراف والترف ، وعن آثار كل ذلك على الفرد والجماعة ، أقول لسنا فى حاجة لأن نقول بأن المسئولين عن التربية فى كل موقع من مواقع التوجيه فى التربية مطالبون ، أمام الله ، ثم أمام مجتمعهم ، أن يصنعوا هذا البعد من أبعاد " الأصل الاقتصادى " للتربية أمام أعينهم فى كل عمل تربوى يقدمونه للجميع ، أطفالا وشبابا وشابات فى المدارس والجامعات ، ومواطنين يتعرضون يوميا لوسائل الإعلام المختلفة ... مقروءة ... ومسموعة... ومرئية ، بحيث يتبين للجميع أن الترف والإسراف والتبذير تؤدى جميعها إلى الهلاك والخراب ، لكل من الفرد والمجتمع .

حادى عشر : قضية الربا :

وهذه القضية من أخطر القضايا التى تهم المسلمين فى معاملاتهم الاقتصادية ، ودارس التربية ينبغى أن يعرف أن الله ـ جلت قدرته ـ قد حرم الربا ، وجعله من أكبر الكبائر ، يقول سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٢] (البقرة /٢٧٥ — ٢٨٠) .

---

[١] محمد الغزالى : الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، دار الصحوة للنشر ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م ص ص ٥٠ ــ ٥٢ .

[٢] يوسف كمال : الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧/ ، ص ص ١٧٥ ــ ١٧٦

هذا ولقد أقر مجمع البحوث الإسلامية مايلى فى مؤتمره الثانى :

١ – الفائدة على أنواع القروض كلها ربا محرم ، لا فرق فى ذلك ، بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكى ، وما يسمى بالقرض الإنتاجى ، لأن نصوص الكتاب والسنة فى مجموعها قاطعة فى تحريم النوعين .

٢ – كثير الربا وقليلة حرام ، كما يشير إلى ذلك الفهم الصحيح فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ﴾ .

٣ – الإقتراض بالربا محرم ، لا تبيحه حاجة ولا ضرورة ، والإقراض بالربا محرم كذلك ، ولا يرتفع إثمه إلا إذا دعت إليه الضرورة .

٤ – الحسابات ذات الأجل ، كفتح الاعتماد بفائدة ، وسائر أنواع الإقراض نظير فائدة ، كلها من المعاملات الربوية وهى محرمة .[١]

٥ – أعمال البنوك من الحسابات الجارية ، وصرف الشيكات ، وخطابات الإعتماد ، والكمبيالات الداخلية التى يقوم عليها العمل بين التاجر والبنوك فى الداخل .. كل هذا من المعاملات المصرفية الجائزة ، وما يؤخذ من نظير الأعمال ليس من الربا .

ويعقد الكاتب والمفكر" أبو الأعلى المودودى " مقارنة رائعة بين الزكاة والصدقة من جانب ، وبين الربا من جانب آخر يقول فيها : " إذا نظرنا فى الربا وجزأناه تجزئة نفسية تبين لنا لأول وهلة أن الربا لا يبدأ فيه العمل الذهنى كله من رغبة الإنسان فى جمع المال إلى مختلف مراحل حياته الاقتصادية – إلا منطبعا بتأثير الأثرة .. والبخل .. وضيق الصدر .. وتحجر القلب ..

---

[١] المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

والعبودية للمال .. والتكالب على المادة .. وما إليها من الصفات الرذيلة الأخرى ، ثم لا ينفك يجرى هذا العمل تحت مثل هذه الصفات ويؤصلها في الإنسان على قدر ما يتقدم ويقطع من مراحل النجاح في تجاربه الربوية — ولكن — بالعكس من ذلك إذا نظرت في الشؤون المالية القائمة على الزكاة والصدقات، وجدت العمل الذهنى كله — منذ أن ينوى الإنسان أداء الزكاة والصدقة إلى أن يؤديها فعلا — لا يحصل إلا منطبعا بصفات الكرم .. والسخاء.. والإيثار .. والمواساة .. وسعة القلب .. ورحابة الصدر .. وعلو الهمة ، وما إليها من الصفات الشريفة الأخرى ، ثم لا تزال تنشأ وتتأصل هذه الصفات فى الإنسان ، ما سلك هذا الطريق فى حياته . وهل هناك فى الدنيا رجل لا يشهد له قلبه أن الأولى من هاتين المجموعتين شر مجموعة للصفات الخلقية ، وأن الأخرى خيرها ..؟ [1] .

وعلينا أن ننظر الآن فى هذه المسألة من الناحية المدنية والاجتماعية فلا يكاد يختلف اثنان فى أن المجتمع الذى يتعامل أفراده فيما بينهم بالأثرة ، ولا يساعد فيه أحد غيره إلا أن يرجو منه فائدة راجعة على نفسه ، ويكون فيها عوز أحد ما ، وضيقه وفقره فرصة يغتنمها غيره للتمول والاستثمار ، وتكون مصلحة الطبقات الغنية الموسرة فيه مناقضة لمصلحة الطبقات المعدمة ، لايمكن أن يقوم ويظل قائما مثل هذا المجتمع على قواعد محكمة أبدا ، ولابد أن تبقى أجزاؤه مائلة إلى التفكك والتشتت فى كل حين من الأحيان ، ثم إذا عاونت على هذه الوضعية الأسباب الأخرى أيضا ، لا تلبث هذه الأجزاء تتحارب وتتشابك فيما بينها .

---

[1] أبو الأعلى المودودى : الربا ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧، ص ص ٤٩ — ٥٠ .

ولكن بالعكس من ذلك إن المجتمع الذى يقوم بناؤه على التعاون والتناصح والتكافل ، ويتعامل أعضاؤه فيما بينهم بالكرم والسخاء ، ولا يكاد يحس فيه أحد أن أحدا من إخوانه فى حاجة إلى مساعدته ، إلا سارع إلى الأخذ بيده ، وعامل فيه الأغنياء إخوانهم الفقراء بالإعانة متطوعين ، أو بالتعاون العادل على الأقل، لابد أن تنشأ وتنمو صعدا عواطف التحاب والتناصح والتناصر فى قلوب أفراد مثل هذا المجتمع ، وتبقى أجزاؤه متكافلة متساندة فيما بينها ، ولا تتطرق إليه عوامل التنازع والتصادم الداخلى أبدا ، وأن يكون أسرع كذلك إلى الرقى والكمال والازدهار من المجتمع الأول [١] .

ويضرب لنا المودودى مثلا واقعيا من علاقات الدول ببعضها فى مجال الاقتراض بالربا مما وقع بين الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وذلك حين تصورت الأخيرة أنها يمكن أن تقترض من الأول مبالغ طائلة كانت تحتاجها بعد انتهاء الحرب حتى تعيد ماخربته تلك الحرب ، وذلك بدون فوائد ربوية ، أو بدون أرباح ، ولكن أمريكا خيبت ظنها ، ورفضت طلبها مما جعل كبار سياسييها ، أمثال " تشرشل " ، " كينز " الإقتصادى الشهير ، "ودالتن"وزير المالية يهاجمون أمريكا فى بلادهم ، وفى خطبهم ، ولم تتزحزح أمريكا عن موقفها [٢] .

وينبغى أن يكون فى علم دارس التربية أن القروض التى تأخذها الدولة المقترضة من الدولة القارضة فوائدها مركبة ومهولة ، وقد تصل

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٥٠ ـــ ٥١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ص ٥٢ ـــ ٥٣ .

أكثر من مائة فى المائة ، بل إن بعضها وصل أحيانا الـى أكـثر مـن ألـف فى المائة [١] ، بحيث صارت خدمة ديـون القـروض عبئـا رهيبـا علـى بعض الدول وأصبحت بالفعل تنـوء تحـت حملـه ، ولا تسـتطيع سـداده ، ولعلنا لا زلنا ــ هنا فى مصر ــ نذكـر المؤتمـر الكبـير الـذى عقـد فـى القاهرة وجمع رؤساء دول أوروبـا وإفريقيـا ، وكـان عددهـم يمثـل (٦٧) سبعا وستين دولة ، وكـان الموضـوع الرئيسـى الـذى أثـار الكثـير مـن النقاش هو موضـوع الديـون التـى تنـوء بـها دول إفريقيـا ولا تسـتطيع سدادها ، ولقد انتهى المؤتمر ، ولم تخرج منـه دول إفريقيـا سـوى بوعـود بتخفيف بعض هذه الديون ، وبعد حالات البحـث فـى أى الـدول الأفريقيـة أكثر فقرا ، وأيها ينوء بحمل أكبر من الديـون ولا يسـتطيع السـداد ، وكـل ذلك ناتج بطبيعة الحال عن الإقراض الربـوى الفـاحش [*].

ثانى عشر : قضية الإحتكار :

من أبشع الأمور فى عالم الاقتصاد قضية الاحتكار ، تلك التى يتفنن فيـها طائفة من التجار ، أو من أصحاب الشركات الكبرى فـى حجـب الإنتـاج أو البضاعة المطلوبة فى السوق ، حجبها عن الناس حتى يرتفع سعرها إلى الحـد الذى يرضى جشعهم ، حتى إذا اشتدت حاجة الناس إليها ، وجأروا بالشـكوى بسبب ندرتها ، أنزلوها إلى الأسواق فاشتراها الناس ــ مكرهين ــ بالسعر الذى فرضه الجشعون ، والإسلام ــ كما يقول يوسف كمال " يهيئ للمشاركة المنـاخ النظيف فيحررها من ظلم الاحتكار ، وظلم التسعير ، قال رسـول الله -ﷺ -، "لايحتكر إلا خاطئ " وقال " من احتكر يريد أن يغلّى بها على المسـلمين فـهو

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(*) عقد هذا المؤتمر فى القاهرة يوم الإثنين ٣ أبريل ٢٠٠٠ ولمدة ثلاثة أيام .

خاطئ " ، وكذلك قال " الجالب مرزوق ، والمحتكر ملعون " إن المحتكر يقلـــل الإنتاج ، ليزيد السعر ، فهو يستطيع أن يتحكم فى السوق ، ومعنى هذا أن يؤذى المسلمين مرتين .. فمرة بإنقاص الإنتاج ، ومرة برفع السعر [١] ، ومن هنا لعنه الرسول ، - ﷺ - ، وبالتالى فهو ملعون من المولى ، عز وجل .

هذا وقد فصل الشهيد سيد قطب ، رحمه الله فى قضية " الاحتكار " هذه ، ولنقرأ : " واحتكار ضروريات الناس لا يعترف به الإسلام وسيلة من وســـائل الكسب وتنمية المال : " من أحتكر فـــهو خـــاطئ " (رواه مسـلم وأبــو داود الترمذى) ، ذلك أن الاحتكار إهدار لحرية التجارة والصناعــــة ، فـالمحتكر لا يسمح لسواه أن يجتلب ما يجتلبه ، أو يصنع ما يصنعه ، وبذلــك يتحكــم فــى السوق ، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار ، ، فيكلفهم عنتـا ، ويحملـــهم مشقة ، ويضارهم فى حياتهم وضرورياتهم ، فوق أنه يقفل باب الفرص أمـــام الآخرين ليرتزقوا كما ارتزق ، وليجودوا فوق ماجود ، وقد يقع أحيانا أن يســد المحتكر الموارد وأن يتلف البضاعة الفائضة ، حتى يتمكن من فـــرض ســعر إجبارى ، وفى ذلك إعدام أو إنقاص فى الأرزاق والأقوات العامة التى أتاحـــها الله للإنسان فى الأرض .

ولقد بلغ حرص الإسلام على منع هذه الوسيلة من وسائل تنمية المال ، أن جعل الاحتكار مبعدا للمحتكر من دائرة الدين " من احتكر طعاما أربعين يومـــا فقد برئ من الله ، وبرئ الله منه " فما هو بمسلم ذلك الذى يضار الجماعة هــذه

---

(١) يوسف كمال : الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .

المضارة ، ويشيع فيها الخوف ، والحاجة إلى الضرورى ، ليحصل منها على كسب حرام يزيد به ماله الخاص على حساب الصالح العام [١] .

ولتوضيح اللمحة الذكية التى أشار إليها الكاتب الشهيد ، رحمه الله ، من أن المحتكر قد يتلف البضاعة الفائضة حتى يرفع سعرها ، نقول أن ذلك حدث بالفعل على المستوى العالمى ، فعلى سبيل المثال أعلنت وزارة الزراعة الأمريكية أن محصول القمح الشتوى لعام ١٩٨٧م سيقل بنسبة ١٣% عن العام السابق ، وذلك لتخفيض المزارعين الأمريكيين للمساحة المزروعة ، كرد فعل لهبوط الأسعار ، وأن هذا الإعلان الواضح عن إنخفاض الإنتاج فى وقت أعلن فيه أن التهام النيران لأكبر عدد من مخازن الحبوب الأمريكية .

وهذه الاحتكارات ذاتها هى التى أغرقت آلاف الأطنان من الحبوب والبن والمواد الغذائية الأخرى فى البحار ، كما أنفقت دول السوق الأوروبية المشتركة ١٢٧ مليون مارك ألمانى لإتلاف آلاف الأطنان من الفواكه والخضر ، وإبادة قطعان الماشية ، خلال عام ١٩٧٤م ، وأنفقت بريطانيا أكثر من ١٢ مليون جنيه استرلينى لإتلاف كميات كبيرة من منتجات الألبان لنفس العام [٢] .

ولعل طالب التربية يسأل : وماذا يمكن لمجتمعات المسلمين أن تفعل إزاء هذه الاحتكارات العالمية الرهيبة ..؟ هل يكفى أن تقرأ هذه الأخبار وتضع أيديها على خدودها وتتحسر ..؟؟ لا .. وإنما هى عليها واجب يفرضها دينها العظيم . إن عليها أن تشمر عن ساعد الجد وأن تنزل ــ فورا ــ إلى ميدان "

---

[١] سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ــ ١٩٩٥م ، ص ص ١٠١ ــ ١٠٢ ــ

[٢] يوسف كمال : الإسلام والمذاهب الإقتصادية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ .

العمل " فلديها من مقوماته كل شيئ .. لديها الأرض الزراعية القابلة للزراعة (السودان على سبيل المثال لديها ملايين الأفدنة .. أكثر من ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان من أخصب وأجود أراضى العالم ، ولديها سبعة أنهار (!!) تجرى بالخير على مدار العام ، ولديها المناخ المثالى لإنضاج المحاصيل ، ولديها القوى البشرية ، وإن احتاجت فمصر فى شمالها ترسل لها مددا لا ينقطع ، فقط كل ما نحتاجه هو أن نعود لديننا العظيم الذى يأمرنا رسوله -ﷺ- ، نصا بالزراعة : " من كانت له أرض فليزرعها ، أو ليزرعها أخاه " (١) . المهم ألا تبقى إمكانية لدى المسلمين لا يستفيدون منها ولا يستثمرونها ، حتى لا يمدوا أيديهم لغيرهم يطابون العون .. وهم صاغرون ..!!

وختاما لهذا الفصل الخاص بالأصل الاقتصادى للتربية ينبغى لنا أن نعى تماما أن أجدادنا المسلمين الذين أقاموا حضارة رائعة بزّت الحضارات التى كانت سائدة فى العالم آنذاك ، هذه الحضارة ارتكزت على الدين الإسلامى العظيم ، بعد أن نفّذوا تعاليمه التى أنزلت إليهم من فوق سبع سموات .. قرآنا عربيا غير ذى عوج ، وسنة نبوية مطهرة شريفة ، كما ارتكزت على علم واسع، ومعرفة شاملة ومتعمقة بأمور الدين والدنيا معا .

ويكفى هذه الأمة العظيمة ، العالمة والمتعلمة ، فى آن واحد ، أن نقرأ عنها ، فى مجال الإقتصاد مايلى :

كان الناس فى الإسلام لا يتعاطون البيع والشراء حتى يتعلموا أحكامه .. وآدابه .. وحلاله .. وحرامه .. فلابد من العلم قبل الشروع بالعمل ، ومعرفة

---

(١) رفيق يونس المصرى : أصول الاقتصاد الإسلامى ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م ، ص ٨٥.

مثل هذه الأحكام فرض كفاية ، ولكنها تصبح فرض عين على من أراد ممارسة التجارة ، وكان التاجر.. يتعلم ، والمتعلم .. يتاجر .

قال عمر ، رضى الله عنه ، لا يدخلن أحد سوقنا حتى يتفقه فى الدين ، أو حتى يتفقه فى البيوع والربا ..!!

وكان يبعث من يقيم [*] من الأسواق من ليس بفقيه ، ويضربه بالدرة ، وكان المحتسب يسأل صاحب الدكان فى الأحكام التى تلزمه فى تجارته ، من أين يدخل عليه الربا فيها ، وكيف يحترز منه ، فإن أجابه أبقاه فى الدكان ، وإلا أقامه .

وروى عن على ، كرم الله وجهه ، أنه قال : " من اتجر بغير فقه فقد ارتطح (وقع أو انغمس) فى الربا ، لأن مسائل الربا قد تشتبه بمسائل البيع ، ولا يفرق بينهما إلا فقيه . وكان التجار فى القديم إذا سافروا استصحبوا معهم فقيها يرجعون إليه فى أمورهم ، قال بعض العلماء : لابد للتاجر من فقيه صديق.

وورد أن عمر دخل السوق ، فلم ير فيه فى الغالب إلا النبط (الأجانب) فاغتم لذلك ، فلما اجتمع الناس أخبرهم بذلك ، ولامهم فى ترك السوق فقالوا إن الله أغنانا عن السوق ، بما فتح به علينا ، فقال رضى الله عنه : والله لقد فعلتم (تركتم السوق) ليحتاج رجالكم إلى رجالهم ، ونساؤكم إلى نسائهم .[1]

---

[*] يبعد .

[1] المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

الفصل العاشر

الأصل الأخلاقى للتربية

الفصل العاشر
الأصل الأخلاقى للتربية

مدخـــل :

ليس هناك مدخل لهذا الفصل أعظم من أن تتصدره الآية القرآنية الكريمة: ﴿ وإنك لعلى خلق عظيـم ﴾ (القلم / ٤) ففيها يبين الحق تبارك وتعالى أهميـــة الخلق فى هذا الدين الرائع ، كما يبين التأكيد من جـــانب الخـلاق العظيـم ــ سبحانه ــ على عظيم خلق خير الأنام -ﷺ - ، ويكفى أنه وهو المصطفـــى وهو المنعم عليه بإكمال الرسالات السماوية كلها يقول " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ، ويقينا فإن إتمام مكارم الأخلاق هو قمة عمل " التربية " وليســـت هناك تربية على وجه الأرض ، فى شرق أو فى غرب ، وعبر عصور التاريخ المختلفة طمعت فى أن يكون عملها هو .. إتمام مكارم الأخلاق .

ولنقرأ ما كتبه أحد علماء المسلمين المتفقهين ، يقول خالد محمد خـــالد " ولقد كان عليةّ الصلاة والسلام ، يعلم علم اليقين أنه جـــاء الحيـــاة الإنســـانية ليغيرها ، وأنه ليس رسولا إلى قريش وحدها ، ولا إلى العرب وحدهم ، بـــل رسول الله إلى الناس كافة .. وقد فتح الله ــ سبحانه ــ بصيرته علـــى المـــدى البعيد الذى ستبلغه دعوته ، وتخفق عنده رايته .

ورأى رأى اليقين مستقبل الدين الذى بشر به ، والخلـــود الحـــى الـــذى سيكون له ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ... ورغم ذلك كله ، لم ير فى نفسه ، ولا فى دينه ، ولا فى نجاحه الذى لن تشهد الأرض له مثيلا ، ، أكـــثر من " لبنة " فى البناء ..!!

ووقف الإنسان العظيم يعلن هذا فى أوضح بيان فيقول :

" مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتا ، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ..؟؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين "[١]..!!

ويكمل الكاتب الإسلامى الحصيف قائلا :

كل هذه الحياة التى عاشها ..

كل جهاده وبطولاته ..

كل عظمته وطهره ..

كل هذا الفوز الذى حققه دينه فى حياته ، والفوز الذى كان يعلم أنه سيبلغه بعد مماته ..

كل ذلك ، وليس إلا " لبنة " ..!!

لبنة واحدة فى بناء شاهق وعريق ..!!

وهو الذى يعلن هذا ، ويقوله ويصر على توكيده ...!!

ثم هو لا ينتحل بهذا القول تواضعا ، يغذّى به جوعا إلى العظمة فى نفسه. بل هو يؤكد هذا الموقف ، بإعتباره حقيقة ، تشكل مسؤولية تبليغها وإعلانها ، جزءا من جوهر رسالته ... ذلك أن التواضع ، على الرغم من أنه خلق من أخلاق " محمد " الأصيلة لم يكن الدليل الذى يدل على عظمته ويشير إليها ... فإن عظمة الرسول -ﷺ- بلغت من التفوق والأصالة ما جعلها آية فى نفسها ، وبرهان ذاتها ...

هذا هو معلم البشر ، وخاتم الأنبياء .

---

[١] خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، (بدون تاريخ) ، ص ٢٩ .

هذا هو النور الذى رآه الناس وهو يحيا بينهم بشرا ... ثم رآه العالم بعد رحيله عن الدنيا ، حقيقة وذكرا ...[1]

ونحن نتحدث عن " الأصل الأخلاقى " كأصل أساسى من " أصول التربية " فى مجتمع المسلمين ننقل عبارة للفقيه العالم ، الشيخ محمد الغزالى ، رحمه الله ، يقول فيها : " قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس " لأرسطو " ؟ فقال: بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله، - ﷺ - ، فوجدنا ما تخيله الأولون ، واصطنعوا له ، بعد العناء ، صورا بعضها كامل وبعضها منقوص ، وجدناه قد تحول إلى حقائق حية تجسد فيها الكمال ، وأضحى سيرة رجل ، وأدب أمة ، وشعائر دين ضخم ، ذلكم هو أدب النفس " لمحمد بن عبد الله ، - ﷺ - [2].

هذا ويمكن أن نقسّم هذا الفصل : " الأصل الأخلاقى للتربية " إلى عدة جوانب يتعلق كل جانب منها بناحية من النواحى الأخلاقية التى تتعلق بشخصية الإنسان المسلم ، وبأساليب تعامله مع الآخرين ، فى إطار القيم الإسلامية التى تعلمها من هذا الدين العظيم ، ولعلنا نستعرض فى الصفحات التالية بعض هذه الجوانب :

أولا : أدب الحديث :

إن نعمة البيان من أجلّ النعم التى أسبغها الله ـ جلت قدرته ـ على الإنسان ، وكرّمه بها على سائر الخلق ، قال تعالى : ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ (الرحمن / ١ ـ ٤) .

---

[1] المرجع السابق ، ص ص ٢٩ ـ ٣٠ .

[2] محمد الغزالى : خلق المسلم ، دار القلم ، دمشق ، ط١١ ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ، ص ص ٥ ـ ٦ .

يقول الشيخ الغزالى – رحمه الله تعالى – " وعلى قدر جلاله النعمة يعظم حقها ، ويستوجب شكرها ، ويستنكر كنودها . وقد بيّن الإسلام كيف يستفيد الناس من هذه النعمة المسداة ، وكيف يجعلون كلامهم الذى يتردد سحابة النهار على ألسنتهم طريقا إلى الخير المنشود ، فإن أكثر الناس لا ينقطع لهم كلام ، ولا تهدأ لألسنتهم حركة .

هذا ولقد عنى الإسلام عناية كبيرة بموضوع الكلام ، وأسلوب أدائه ، لأن الكلام الصادر عن إنسان ما ، يشير إلى حقيقة عقله ، وطبيعة خلقه ، ولأن طرائق الحديث فى جماعة ما ، تحكم على مستواها العام ، ومدى تغلغل الفضيلة فى بيئتها [١] .

هذا ولقد قرأنا كثيرا عن تربية الرسول –ﷺ – ، بأنها كانت تعلمهم " الحكمة " يقول الله ، عز وجل " ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (الجمعة / ٢) .ولعلنا لو مررنا على بعض أقوال هؤلاء الصحابة العظام ، خريجى أعظم مدرسة وجامعة فى العالم ، وعبر التاريخ ، لأنه فى حدود علمنا ليست هناك جامعة على وجه الأرض علمت طلابها " الحكمة Wisdom " ، كما فعلت تلك الجامعة الإسلامية العظمى ، بل الأعظم .

يقول الرسول –ﷺ – ، فى هذا المجال ، وهو ينصح " أبا ذر الغفارى " رضى الله عنه :

عليك بطول الصمت ، فإنه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دينك "

ويقول :

" من حسن إيمان المرئ تركه ما لايعنيه " .

---

[١] المرجع السابق ، ص ٧٩ .

وهناك من الأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله - ﷺ - ، عشرات وعشرات مما يصعب حصره ، فى مجال تربيته لصحابته على تعلم آداب الحديث ، وحسن الكلام مع الناس ، وكل هذا لأنه هو - ﷺ - ، تربى على المنبع الصافى ، القرآن الكريم ، وأخذ عنه ، يقول الله ، عز وجل :

﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ (المؤمنون / ١-٣). ويقول :

﴿ وقل لعبادي يقولوا التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ (الإسراء / ٥٣) .

وكذلك :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (الفرقان /٦٣).

ولنقرأ بعد ما نطق به نفر من صحابة رسول الله - ﷺ - ، وليتنا نتمعن فى " الحكمة " التى تعلموها ، فنبعت على ألسنتهم حكمٌ رائعة ، وعبارات لم يجد الزمان بمثلها ، بل هى تعتبر دستورا أدبيا للأمة الإسلامية ، إذا أرادت أن تربى أبناءها على أساسها :

يقول عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، والذى لا إله غيره ما على ظهر الأرض شيئ أحوج إلى طول سجن من لسان ..!!

ولنقرأ ما نطق به " سلمان الفارسى " رضى الله عنه ، وهو فى مرضه الأخير ، وقد دخل عليه " سعد بن أبى وقاص " يعوده قال : ياسعد ..

اذكر الله عند همك إذا هممت ..

وعند حكمك إذا حكمت ..

وعند يدك إذا اقسمت ..

وجلس أبو ذر الغفارى – رضى الله عنه – بين أصحابه ، وأخذ يتذكر بعض ماعلمه المصطفى – ﷺ – ، قال :

* أوصانى خليلى بسبع ..
* أمرنى بحب المساكين ، والدنو منهم ..
* وأمرنى أن أنظر إلى ما هو دونى ، ولا أنظر إلى ما هو فوقى ..
* وأمرنى ألا أسأل أحدا شيئا ..
* وأمرنى أن أصل الرحم ..
* وأمرنى أن أقول الحق ولو كان مرا ..
* وأمرنى ألا أخاف فى الحق لومة لائم ..
* وأمرنى أن أكثر من قول : لاحول ولاقوة إلا بالله ..[١]

وليتنا نتمعن فى عظمة التعبير ، وفى جميل البيان الذى أوصل به ذلك الصحابى الرائع نصائح رسول الله – ﷺ – ، إلى الناس ، وهكذا كان هو وصحبه من تلاميذ المدرسة النبوية الأولى ، والجامعة الإسلامية العظمى التى أوصلت الهداية للناس بحسن البيان وروائع التعبير ، وقبل هذا وذاك بالنموذج العملى الذى لم يتكرر فى التاريخ .

ولنقرأ ، ختاما لهذا الجانب ، لواحد من شباب المسلمين النوابه الذين ربّاهم الرسول – ﷺ – ، لنقرأ عظمة بيانه ، وروعة أسلوبه ، وهو يبين مدى

---

[١] خالد محمد خالد ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

فقهه فى موضوع من أخطر الموضوعات ، ألا وهو موضوع " العلم " يقول معاذ بن جبل :

" تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والنصير على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند القرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواما ، فيجعلهم فى الخير قادة سادة ، هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتفى آثارهم ، وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس يستغفر لهم ، حتى حيتّان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ... إلى أن قال : به يطاع الله ، وبه يعبد ، وبه يوّحد ، وبه يمّجد ، وبه يتورّع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء " (١) .

ثانيا : الكرم :

إن هذا الدين الإسلامى العظيم ، الذى جاء به خاتم المرسلين -ﷺ - ، هو دين الكرم ، ويكفى أن أحد أسماء الله الحسنى هو " الكريم " ويكفى أن نعلم أن رسول الله -ﷺ - ، كان ــ كرمه ــ كالريح المرسلة ، خاصة فى شهر رمضان ، وأن صحابته ، من حوله ، قد انتقلت إليهم هذه الصفة العظيمة ، حتى إن نفرا منهم كان الواحد منهم ينزل عن كثير مما عنده ، وكفانا فى ذلك المثل العظيم الذى ضربه " الأنصار " من أهل المدينة المنورة ، حين آخى الرسول -ﷺ - ، بينهم وبين المهاجرين ، فكان الواحد منهم يقتسم ماعنده مع

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والمعلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م ، ص ١١ .

أخيه " المهاجر " الذى عينه له المصطفى - ﷺ - ، وفيهم قال المولى ، عز وجل ، ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (الحشر/ ٩).

كان من عادة النبى - ﷺ - ، أن يسأل أصحابه حينا بعد حين عما ابتدروه من الخيرات فلا يكتموه شيئا ، لأنه يسأل ويريد أن يجاب، وذلك ليتبع جوابهم عظة من العظات ، او يعقبه حديث يؤثرونه عنه .

صلي النبى - ﷺ - الصبح ذات يوم ، فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائما ..؟ قال عمر : أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدث نفسى بالصوم ، وأصبحت مفطرا ، وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسى بالصوم ، فأصبحت صائما ، ثم سأل النبى - ﷺ - ، أيكم عاد اليوم مريضا ..؟ قال عمر : إنما صلينا الساعة ولم نبرح ، فكيف نعود المريض ..؟ وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، أخبرونى أن أخى عبد الرحمن بن عوف مريض وجع ، فجعلت طريقى عليه ، فسألت عنه ، ثم أتيت المسجد ، ثم سأل النبى - ﷺ - ، فأيكم تصدّق اليوم بصدقة..؟

قال عمر : يا رسول الله : ما برحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق ..؟ وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد فإذا سائل يسأل ، وابن لعبد الرحمن بن أبى بكر معه كسرة خبز ، فأخذتها فأعطيتها السائل ، فقال النبى : أبشر بالجنة .. أبشر بالجنة ..!!

لاجرم .. يقول عمر : ماسابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقنى إليه ، ولاجرم .. يقول على : هو السباق ، والذى نفسى بيده ، ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر [١].

وينبغى على المسؤولين عن التربية فى أمتنا أن يعوا هذه الأمور ، وأن يضمنوها في كل مايقدمون للمجتمع ناشئة وكبارا ، فليس الكرم وحده بالتصدق بالأموال ، ولكن بالجهد وحسن الخلق ، وبذل النفس للفقير والمريض وذى الحاجة ، وكان الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم أجمعين ، يتنافسون فى ذلك ، كما رأينا فى المثال السابق .

ونصل إلى قمة فى الكرم تمثلت وتركزت فى السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، يقول العقاد : أما كرم السيدة عائشة فهى إلى المنجدة أقرب منها إلى السخاء ، وهى فيه على آسالٍ من أبيها العظيم ، رضى الله عنه ، تنقذ من الأسر ، وتغيث من البلاء ، وتعطى من هو فى حاجة إلى العون العاجل ما تيسّر لها العطاء ، وكانت فى كرمها على حال سواء فى أيام النبى - ﷺ - ، حين لا مال لديها إلا القليل الذى هى أحوج إليه ، أو فى أيام الفتوح التى تيسر لها فيها من المال مالم يكن قبل بميسور [٢].

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المرسلين - ﷺ - ، للضعفاء ، ومعلم الجابرين لكسر القلوب ، فما من شأو بلغته فى هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله - ﷺ - ، إلى أعلى منه وأجمل [٣].

---

[١] عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ، دار المعارف ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، ص ص ٤٣ ــ ٤٤

[٢] عباس محمود العقاد : الصديقة بنت الصديق ، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٢ ، ١٩٨٨ ، ص ٣٦ .

[٣] المرجع السابق ، ص ٣٧ .

حدثت مولاتها أم ذرة ــ وهى من الثقات ــ أن ابن الزبير بعث إلى السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم ، وكانت صائمة ، فدعت بطبق فجعلت تقسم فى الناس ، ثم أمست فقالت : يا جارية هاتى فطرى ، قالت أم ذرة ، أما استطعت فيما أنفقت نشترى بدرهمين لحما تفطرين عليه ؟ قالت لا تعنفينى ..!! لو كنت أذكرتنى لفعلت . وقال بن سعد عن عروة بن الزبير : رأيت عائشة تتصدق بسبعين ألفا ، وإنها لترقع جانب درعها [١]..!!

ولا يمكننا مفارقة هذا الجانب ، جانب الكرم ، دون أن نشير إلى صحابى جليل كان غاية فى الكرم ، البذل ، هو " عثمان بن عفان " رضى الله عنه ، قال بن عباس : قحط الناس فى زمن أبى بكر ، فقال أبو بكر لا تمسون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب ، فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ، فقال لهم : ما تريدون ..؟ قالوا بلغنا أنه قدم إليك ألف راحلة برا وطعاما . بعنا حتى نوسّع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان : ادخلوا ، وقال لهم كم تربحونى على شرائى من الشام ؟ قالوا: العشرة اثنى عشرة ، قال : قد زادونى ــ قالوا العشرة خمسة عشرة ، قال : قد زادونى .. ، قالوا من زادك ونحن تجار المدينة ..؟ قال : زادونى بكل درهم عشرة .. هل عنكم زيادة .؟ قالوا : لا ، قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة . ويشير عثمان ــ هنا كما هو ظاهر ــ إلى جزاء الحسنة بعشر أمثالها عند الله [٢].

---

[١] المراجع السابق

[٢] عباس محمود العقاد : عثمان بن عفان ذو النورين ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، (بدون تاريخ)، ص ص ٥٨ ــ ٥٩ .

وفى هذا المجال يذكر الكاتب أنه حال وجوده فـــى الولايـات المتحـدة الأمريكية شاهد برنامجا علــى إحـدى المحطـات التلفزيونيـة الرئيسـية ، وكان عبارة عن مقابلة حوارية مطولة بين واحدة من أشــهر مذيعـات هــى باربارا والــترز Barbara Walterس ، وكـانت مـع واحـد مـن أثـرى أثريـاء المجتمـع الأمريكـى ، ومـاأكثرهم ، وكـان بليونـيرا .. يـهوديا، ودارت الكاميرا فى مصانعه ومزارعه وقصـوره تبيـن الغنـى الفـاحش ، وكيف جمع تلك الثروة وهو الذى كان أبـوه فقـيرا إلـى حـد أنـه كـان لا يتناول طعام العشاء فى المطاعم إلا بعد منتصف الليل حيـن يخفـض ثمـن العشاء إلى النصف ، وسألته المذيعة سؤالا شـد انتبـاهى : هـل إذا جـاءك فقير يطلب بعض المال ليتناول به طعاما هـل تعطيـه ..؟ وكـانت الإجابـة سريعة وحاسمة وفـى كلمـة واحـدة قالـها ... لا ..!! وسـألته المذيعـة : ولكن لماذا ..؟ فقال : إنى لسـت الإلـه ..!! Idon,t play God .

ولنا أن نقارن بين تربية ديننا الإسلامى العظيـم الـذى يقـول رسـوله الكريم ما معناه إن الجماعة تأثم إذا بـاتت شـبعانة وبـها فـرد جـائع .. ولنا أن نعتز بديننا ، وأن نفخر بـه ، ولا أزيـد .

ثالثا : الصدق والوفاء :

وهاتان صفتان من أروع الصفات التى يتمتع بها الإنسان المسلم الحـق ، وقد أشار القرآن الكريم الذى أنزل من فوق سبع سموات ، من لدن حكيم خبير ، إلى الصفة الأولى فقال: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ (النساء/ ٧٠).

والقرآن الكريم الذى " أحكمت آياته " وضع " الصديقين " بين النبيين والشهداء يوم القيامة ، وهذه مرتبة أكثر من رائعة ، لا ينالها إلا من يعطيها حقها ، ويصبر على أداء حقها ، وقد أثر عن النبى -ﷺ - ، أنه ما قال كذبا – فى حياته – قط ، وأنه كان يلقب فى مجتمع مكة قبل البعثة ب " الصادق الأمين " وأنه حتى المشركين الذين حاربوا الدعوة الإسلامية وحاربوه ، بل وبلغوا فى حربهم إياه أنهم دبروا مؤامرة لقتله ليلة كان مزمعا الخروج فى هجرته الميمونة إلى المدينة ، أقول أن هؤلاء المشركين الذين فعلوا ذلك كانت لبعضهم ودائع عند المصطفى -ﷺ - ، استأمنوه عليها ، وكانوا فى ثقة من أنهم حين يطلبونها سوف يردها إليهم لأنه .. صادق أمين ، وأنه يفى بالوعود والعهود .

والإسلام يوصى أن تغرس فضيلة الصدق فى نفوس الأطفال (تربية) حتى يشبوا عليها ، وقد ألفوها فى أقوالهم وأحوالهم كلها ، ولقد قال رسول الله -ﷺ - ، " أنا زعيم ببيت فى وسط الجنة ، لمن ترك الكذب ، وإن كان مازحا "[١] .

يقول الله عز وجل : ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبيا ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ﴾ (مريم/ ٥٤ – ٥٥)، وسرد الصفات الفاضلة على هذا الترتيب ، يدلك على ما لصدق الوعد من مكانة ، ولقد كان إسماعيل أصدق الناس وعدا [٢].

---

[١] محمد الغزالى : خلق المسلم ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤ م ، ص ٣٨ .

[٢] المرجع السابق ، ص ٤٣ .

قال رسول الله -ﷺ- ، " وتحروا الصدق ، وإن رأيتم أن الهلكة فيه ، فإن فيه النجاة " وقال : " إذا كذب العبد تباعد الملك عنه ميلا من نتن ماجاء به". والصدق فى الأقوال يتأدى بصاحبه إلى الصدق فى الأعمال والصلاح فى الأحوال ، فإن حرص الإنسان على التزام الحق فيما ينبس به يجعل ضياء الحق يسطع على قلبه وفكره ، ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ (الأحزاب / ٧٠ ــ ٧١). ويقول الرسول -ﷺ- ، " عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقا .. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ".

وأما البر الذى هدى إليه الصدق ، فهو قمة الخير التى لايرقى إليها إلا أولو العزم من الرجال ، وحسبك ــ كما يقول الشيخ الغزالى - رحمه الله ، فيه هذه الآية الجامعة . ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء ، وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة / ١٧٧) [١] .

---

[١] المرجع السابق ، ص ٤٥ .

هذا وقد ألصقت صفة " الصدق " بأبى بكر ، رضى الله عنه ، وسمى " بالصدّيق " لأنه صدق النبى -ﷺ - ، فى حديث الإسراء كما يقول العقاد ، رحمه الله (١)

هذا ولقد كان من أول أسباب دخول " أبى بكر " رضى الله عنه ، فى الإسلام ، أنه كان موقنا أن الرسول -ﷺ - ، ماكان يقول إلا الصدق ، وأنه طالما أنه قال أنه نبى مرسل ، فهو لاشك كذلك ، قال يصارح المصطفى -ﷺ- ، فى أولى لحظات إسلامه : " والله ماجربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك ، مد يدك فإنى مبايعك" (٢) .

ونختم هذا الجانب من جوانب " الأصل الأخلاقى للتربية " بلمحة عن " الصديقة بنت الصديق " رضى الله عنها ، فقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ماتكون به فى " خصلة الصدق " التى بها اشتهر ومن أجلها نعت " بالصديق"، وغلب عليه هذا النعت حتى أوشك أن ينسى الناس إسمه الذى دعاه به أبواه ، وقد امتحن صدقها فى مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتحمصت عن معون كريم ، وعرق سليم ، ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم (٣).

هذا ويمس هذه الصفة العظيمة ، صفة " الصدق" فى أم المؤمنين " عائشة " رضى الله عنها ، لم تنقل قط فى كل ما ثبتت نسبته إليها حديثا واحدا تمسه الشبهات ، من قريب أو بعيد ، ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ، ولم تحرف

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ، مرجع سابق ، ص ص ٩ - ١٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٩٨ .

كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية ، لإغراق تلك النوازع النفسية التى تطيش بالألسنة، أو تضلل العقول ، وهو امتحان ـ يقول العقاد رحمه الله ـ ليس أعسر منه امتحان فى هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق [١].

رابعا : الرحمة :

وهذه صفة من صفات المولى تباركت سماؤه ، فإن رحمته ـ جل وعلا ـ شملت الوجود ، وعمت الملكوت ، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيئ أشرق معه شعاع الرحمة الغامرة ، لذلك كان من صلاة الملائكة له :

﴿ ربنا وسعت كل شيئ رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ (غافر/٧)، هذا وإن الإنسان المسلم وهو يفتتح صلاته ، فى كل ركعة من ركعات الفروض أو النوافل ليقول : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، فهاتان صفتان متلازمتان تلازمان اسمه ، جل وعلا ، والإنسان المسلم الذى تربى تربية إسلامية ليفتتح أى عمل يقوم به ، أو مسعى آتيه فى يومه يفتتحه دوما بالبسملة حتى يباركه الله ، وحتى يوفقه فيه ، إذ أن كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر .. كما جاء فى الأثر .

وينبغى أن يكون معروفا ، ونحن ندرس " الأصل الأخلاقى للتربية " أن "الرحمة " جانب من أهم جوانب هذه التربية ، ينبغى أن نحرص عليه ، وأن نعلمه أبناءنا وبناتنا ، وأن ننشئهم عليه ، حتى يشبوا وهم رحماء بغيرهم ، ويتراحمون فيما بينهم ، وقد تواترت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تبين موقع "

---

[١] عباس محمود العقاد : الصديقة بنت الصديق ، مرجع سابقة ، ص ٣٨ .

الرحمة " من هذا الدين الخاتم العظيم ، ولعل ذكر بعضها يكون مفيدا ، يقول الله عز وجل :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء / ١٠٧)، ويقول :

﴿ ورحمتي وسعت كل شيئ ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ (الأعراف / ١٥٦ - ١٥٧)، ويقول واصفا المؤمنين :

﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (الفتح / ٢٩) ، ويقول :

﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ (المؤمنون / ١١٨) ،

كذلك تواترت أحاديث المصطفى -ﷺ- ، بشأن الرحمة فنقرأ :

" لن تؤمنوا حتى ترحموا ، قالوا يارسول الله ، كلنا رحيم ، قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة " (الطبرانى) . وقال ، -ﷺ- :

" من لا يرحم الناس لا يرحمه الله " (البخارى) . وقال ، -ﷺ- :

" من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء " (الطبرانى) ، وقال ، -ﷺ- : " إن الله تعالى خلق ـ يوم خلق السموات والأرض ـ مائة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها فى الأرض رحمة واحدة ، فيها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض " (مسلم) .

وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : سمعت الصادق المصدوق ، صاحب هذه الحجرة ، أبا القاسم -ﷺ- ، يقول : " لا تنزع الرحمة إلا من شقى " . (أبو داود) ، كما قال -ﷺ- :

" الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، الرحمة شجنة من الرحمن ، من وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله " (الترمذى) .

وعن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى رسول الله -ﷺ - ، قسوة قلبه ، فقال : " أمسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين " (أحمد) ، وفى رواية : أن رجلا جاءه يشكو قسوة قلبه فقال له : " أتحب أن يلين قلبك ، وتدرك حاجتك..؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك ، يلين قلبك ، وتدرك حاجتك " [١]

هذا ولقد كانت سيرته -ﷺ - ، نبراسا يحتذى به فى هذا المجال ، فكل آية نزلت من فوق سبع سموات طبقها -ﷺ - ، وكل حديث قدسى وصله -ﷺ - ، وكل حديث -ﷺ - ، نجد له تطبيقات عملية لمسها أصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين .

وينتقى العقاد ، رحمه الله ، دررا من رحمات الرسول -ﷺ - ، فيقول أنه " ما نهر خادما ، ولا ضرب أحدا ... وكان يصغى الإناء للهرة لتشرب ، وكان يواسى فى موت طائر يلهو به أخو خادمه ، وأوصى المسلمين : إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ، ولا تكونوا عليها شياطين " وقال : " إن الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب عن رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك " [٢] .

---

[١] محمد الغزالى : خلق المسلم ، مرجع سابق ، ٢٢٣ .

[٢] عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

وعظمة العظمات ، كما يحلو للعقاد أن يقول ، أن نختتم هذا الجانب برحمة الرسول -ﷺ- ، بالنساء ، يقول العقاد :

" مكان إعزاز من ذلوا بعد عزة : سنة النبى -ﷺ- ، فى معاملة جميع الناس ، ولاسيما النساء اللاتى تتكسر قلوبهن فى الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صفية الإسرائيلية ، سيدة بنى قريظة ، بين أن يلحقها بأهلها ، وأن يعتقها ويتزوج بها ، فاختارت الزواج منه -ﷺ- .

وآية الآيات فى الشعور الإنسانى أنه -ﷺ- ، أنب صفيه بلالا لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود ، فقال مغضبا : " أنزعت الرحمة من قلبك حتى تمر بالمرأتين على قتلاهما ..؟؟ واحتقرتها زينب فلقبتها يوما باليهودية ، فهجرها شهرا لا يكلمها ، ليأخذ بناصر هذه الغريبة ، ويدفع عنها الضيم ..[1]

ومن تربية النبى -ﷺ- ، لصحابته على الرحمة ، نقرأ كلمات لأبى بكر ، رضى الله عنه ، وهو يودع جيش أسامة ، فى أعقاب وفاة الرسول ، -ﷺ- ، ونقرأ الكلمات التى خطها العقاد ، وهى فى حد ذاتها " دستور " للمجاهدين فى سبيل الله ، يقول العلامة المسلم :

" وشيع ـ أبو بكر ـ جيش أسامة ، فلم ينسى أن يوصيه بالضعفاء ، وهو ذاهب إلى القتال : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا

---

[1] المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

أكلتم منها شيئا بعد شيئ فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله ".(١)

خامسا : الأمانة :

إن الأمانة – يقول العالم الفقيه الشيخ الغزالى – فضيلة ضخمة ، لا يستطيع حملها الرجال المهازيل ، وقد ضرب الله المثل لضخامتها ، فأبان أنها تثقل كاهل الوجود كله ، فلا ينبغى للإنسان أن يستهين بها ، أو يفرط فى حقها .

قال الله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا ﴾ (الأحزاب / ٧٢)، والظلم والجهل آفتان عرضتا للفطرة الأولى ، وبلى الإنسان بجهادهما ، فلن يخلص له إيمان ، إلا إذا أنقاه من الظلم ، ولذلك وبعد أن تقرأ الآية التى حملت الإنسان الأمانة نجد أن الذين غلبهم الظلم والجهل ، خانوا ونافقوا وأشركوا ، فحق عليهم العقاب ، ولم تكتب السلامة إلا لأهل الإيمان والأمانة (٢) .

وقد جاء ذكر " الأمانة " فى مواضع عديدة من القرآن الكريم نذكر منها الآيات الكريمة التى بينت مخايل الأمانة التى كانت واضحة فى تصرفات موسى ، عليه السلام ، حتى قبل أن يبعث نبيا ، وذلك حين سقى لابنتى الرجل الصالح ، ورفق بهما ، واحترم أنوثتهما ، وكان معهما عفيفا شريفا :

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٠٩ .

(٢) محمد الغزالى : خلق المسلم ، مرجع سابق ص ص ٥٤ – ٥٥ .

﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ (القصص / ٢٤-٢٦) .

ولا غرو فرسل الله ـــ جل وعلا ـــ يختارون من أشرف الناس طباعـــا ، وأزكاهم معادنا ، والنفس التى تظل معتصمة بالفضيلة ـــ علـــى شـــدة الفقـــر ووحشة الغربة ـــ هى لرجل قوى أمين ، والمحافظة على حقوق الله ، وحقـــوق العباد ، تتطلب خلق لا يتغير باختلاف الأيام بين نعمى وبؤسى ، وذلك جوهـــر الأمانة [١].

ومن بعض أقوال الرسول الكريم -ﷺ - ، فى الأمانة ما يلى :
" الرجل فى مال أبيه راع ، وهو مسؤول عن رعيته " . وعـــن أنـــس ، رضى الله عنه ، قال : ما خطبنا رسول الله -ﷺ - ، إلا قال : " لا أيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له " وقال ، -ﷺ - ، وجاء على لسان عبد الله بن مسعود :

" الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والكيل أمانـــة ، وأشـــياء عددهـــا ، وأشد ذلك الودائع " . (أحمـــد) ويـــأتى هـــذا الحديـــث الشـــريف وغـــيره متوافقا مع الآية الكريمـــة التـــى نزلـــت مـــن فـــوق ســـبع ســـموات لتـــأمر المسلمين بأداء الأمانات ، وهى مرتبطـــة ـــ فـــى آيـــة واحـــدة مـــع الحكـــم بالعدل ، وكأنما المولى عز وجل يربط بين الحكـــام والمحكوميـــن فـــى أمـــر

---

[١] المرجع السابق ، ص ٤٧ .

تأدية الأمانات وفي الحكم بالعدل بين الناس ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (النساء / ٥٨).

هذا وقد اعتاد الناس أن يفهموا قضية " الأمانة " هذه على أنها مرتبطة ـ فقط ـ بحفظ الودائع للناس ، ثم بإعادتها إليهم عند طلبها ، ويتمثلون في ذلك بالرسول -ﷺ - ، ذلك "الأمين " الذى اعتاد أهل مكة أن يثقوا فيه ، لشدة أمانته ، وأن يتركوا ودائعهم عنده حتى إنه عندما هاجر " للمدينة المنورة " أوصى عليا بن أبى طالب بأن يؤدى لكل امرئ منهم أمانته ، رغم أنهم كانوا قد تآمروا عليه -ﷺ - ، لقتله .

وهذا المفهوم ـ مفهوم أداء الودائع لأصحابها ـ مفهوم صحيح ، ولكنه قاصر ، لأن الأمانة ـ في نظر الشارع ـ واسعة الدلالة ، وهى ترمز إلى معانٍ شتى ، مناطها جميعا شعور المرء بتبعته فى كل أمر يوكل إليه ، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه على النحو الذى فصله الحديث الكريم :

" كلكم راع ، وكلكم مسؤولٍ عن رعيته ، فالإمام راع ، ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ، وهى مسؤولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع ، وهو مسؤول عن رعيته " (البخارى) . وقال ابن عمر ـ راوى الحديث ـ سمعت هؤلاء من النبى -ﷺ - ، وأحسبه قال : " والرجل فى مال أبيه راع ، وهو مسؤول عن رعيته " [1] .

ومن معانى الأمانة وضع كل شيئ فى المكان الجدير به ، واللائق له ، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به ، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذى

---

[1] المرجع السابق ، ص ٤٦ .

ترفعه كفايته إليها ، واعتبار الولايات العامة أمانات مسؤولة ثابت من وجوه كثيرة ، فعن أبى ذر قال : " قلت يا رسول الله ، ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها " (مسلم) .

ويستطرد الشيخ ، رحمه الله ، والأمانة تقتضى أن نصطفى للأعمال أحسن الناس قياما بها ، فإذا ملنا عنه إلى غيره ـ لهوى أو رشوة أو قرابة ـ فقد ارتكبنا ـ بتنحية القادر وتوليه العاجز ـ خيانة فادحة .

قال رسول الله -ﷺ - ، " من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين . (الحاكم) .

وعن يزيد بن أبى سفيان (لعله معاوية ..) قال : قال لى أبو بكر الصديق حين بعثنى إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بم قال رسول الله : " من ولِّى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباه ، فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم " (الحاكم) .

والأمة التى لا أمانة فيها ، هى الأمة التى تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة ، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء ، لتهملهم وتقدم من دونهم ، وقد أرشدت السنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد ، الذى سوف يقع آخر الزمان .

ومن معانى الأمانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كاملا فى العمل الذى يناط به ، وأن يستنفذ جهده فى إبلاغه تمام الإحسان . أجل انها الأمانة يمجدها الإسلام : أن يخلص الرجل لشغله وأن يعنى بإجادته ، وأن يسهر على حقوق الناس التى وضعت بين يديه ، فإن استهانة الفرد بما كلف به ـ وإن كان

تافها ــ تستتبع شيوع التفريط فى حياة الجماعة كلها ، ثم استشراء الفساد فـــى كيان الأمة وتداعيه برمتها .

ومن الأمانة ألا يستغل الرجل منصبه الذى عين فيه ، لجر منفعة لشخصه أو قرابته ، فإن التشبع من المال العام جريمـــة ، والمعـروف أن الحكومـات أو الشركات تمنح مستخدميها أجورا معينة ، ومحاولة الـتزيد عليـها بـالطرق الملتوية هي اكتساب للسحت [١] .

هذا ومنذ يومين فقط ، أى يوم الجمعة ١٤ أبريل ٢٠٠٠ نشرت جريـدة " الأهرام " المصرية أن تقريرا صدر عن البنك الدولى ينص على أن ٦٧% مـن مأمورى الضرائب فى مصر مرتشون ، وقد أثير الموضـــوع فـى مجلـس الشعب، بعد أن تحدث فيه النائب زكريا عزمى ، وإن كـان رئيـس الرقابـة الإدارية قد رفض تقرير البنك الدولى ، وقال بأن هناك رشوة.. حقيقية ، ولكنها ليست بهذا الحجم .. !!

والعجيب أنه فى نفس اليوم وفى نفس الجريدة ، وفى الصفحة الأولـــى ، جاء خبر يقول بأن المدعى العام الاشتراكى أصدر قرارا بالتحفظ على أمـوال رجل أعمال مصرى أمريكى (محمد وهبة) لامتناعه عـن سـداد (٣٨٧) مليون جنيه ، حصل عليها فى صورة تسهيلات ائتمانية وقروض مـن بنكـى الأهلى والقاهرة .. ثم ترك مصر كلها .. وسافر .. !!

ويذكر لنا تاريخنا الإسلامى العظيم أن عمر بن الخطـاب ، رضـى الله عنه، كان يحاسب ولاته حسابا عسيرا عندما يوليهم بعض المناصب ، ثم يشـك

---

(١) المرجع السابق ، ص ص ٤٨ – ٤٩ .

فى أن أحدهم قد بدت عليه بعض مظاهر الثراء ، وماكان يتركهم حتى يسترد منهم لبيت مال المسلمين ما يكونون قد أخذوه بحكم مناصبهم أو سلطانهم .

وليس أشهر فى ذلك من قصة عزل القائد الأشهر ، خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، يقول العقاد " وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام فى زمانه ، فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ، ومنها إنفاقه من بيت المال فى غير ما يرضاه ، فأمر به أن يحاكم فى مجلس عام ، كما يحاكم أصغر الجند ، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع "[١] .

هذا وقد أورد أحد علماء الأمة الإسلامية عددا وافرا من أهداف تعليم الأخلاق هى :

١ – بيان حقائق القيم الأخلاقية الإسلامية ومبادئها وميادينها .

٢ – التبصير بشمولية روح الأخلاق الإسلامية على كل تصرفات وسلوكيات الناس الفردية والاجتماعية .

٣ – إبراز أهمية وأثر القيم الأخلاقية الإسلامية من الناحية العلمية والاجتماعية والإنسانية والحضارية المادية والمعنوية .

٤ – إظهار خصائص ومميزات القيم الإسلامية بالنسبة إلى الأخلاق البشرية الوضعية .

٥ – وضع المعايير الخلقية الإسلامية أمام المتعلمين ليستطيعوا توجيه سلوكهم ، وتقويم السلوكيات فى ضوئها .

---

[١] عباس محمود العقاد : عبقرية عمر ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، (بدون تاريخ) ، ص ص ٥٣- ٥٤ .

٦ – تكوين القناعة بثبات القيم الأخلاقية الإسلامية ، وأنها ليست خاضعة للتغيرات الاجتماعية ، بل إن التغيير والتكوين الإجتماعى يجب أن يخضع لهذه القيم .

٧ – تكوين الإيمان بالعلاقات الثابتة والمتينة بين العقيدة الإسلامية والقيم الأخلاقية الإسلامية .

٨ – الإشعار بأن تعليم الأخلاق لا يعنى مجرد توصيل المعلومات الأخلاقية إلى الأذهان فقط ، بل يعنى الإشعار بالمسؤولية الأخلاقية ، وبتطهير النفوس وتزكيتها من الرذائل والشرور ، وتحليتها بالفضائل ومكارم الأخلاق .

٩ – تكوين الشعور بالمحبة للفضائل ، والكراهية والنفور من الرذائل والشرور .

١٠ – تنمية الميول نحو العمل بالقيم الأخلاقية ، والدعوة إليها ما استطاع المعلم إلى ذلك سبيلا ، فى المدرسة وخارجها [١] .

وبجانب تلك الأهداف المفصلة السابقة نؤكد نحن على القدوة الصالحة فى مدارسنا وجامعاتنا ، لأن التأثر بالنموذج العملى أفعل كثيرا من مجرد المعلومات وحشو أذهان التلاميذ والطلاب بها ، فقد رأينا كيف تأثر المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة المنورة بالنموذج والمثل الذى ضربه خير معلم للبشرية على وجه الأرض ، وإلى أن تقوم الساعة ، -ﷺ - ، حتى قال الله عز وجل فيه " وإنك لعلى خلق

---

[١] مقداد يالجن : علم الأخلاق الإسلامية ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م ، ص ص ٥ -٦ .

عظيم " ، كما نصح المسلمين فى كتابـــه العظيـــم باتبـــاع النمـــوذج النبـــوى الشـــريف : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾ . صدق الله العظيـــم .

كذلك فإن وسائل الإعلام المختلفة ، وخاصة التليفزيـــون مطالبـــة بـــأن تتضمن برامجها ومسلسلاتها وتمثيلياتها وأفلامها غرس تلك الأخلاقيـــات فـــى نفوس المشاهدين وضمائرهم ، والمسؤولية هنا واقعة على جميع العاملين فـــى مجالات الإعلام ، من كتاب ومؤلفين ومعدى برامج .. الخ وذلك حتى لا تخرج على المجتمع مواقف على الشاشة الصغيرة أو الكبيرة تمجد المنافقين والساعين بالشر بين الناس ، وجامعى الأموال بالحرام ، كما تشجع المرتشين ومـــادحى الرئاسات ، والملتفين حول ذوى المال والسلطان .

الفصل الحادى عشر

الأصل العلمى للتربية

الفصل الحادى عشر

الأصل العلمى للتربية

مدخــل :

على الرغم من أن المسلمين يمثلون مساحات هائلـــة ، باتســاع الكــرة الأرضية ، وينتشرون باتساع معظم قاراتها ، فــى عشــرات مــن الوحــدات السياسية، وعلى الرغم من أنهم يصلون فى أعدادهم إلى أكثر من الألف مليــون نسمة ، بحيث يقتربون من سدس سكان العالم ، إلا أنــهم لا يحتلــون المكانــة اللائقة بهم فى عالم اليوم ، ولا يؤثّرون فى مسيرة الأحداث العالمية ، ولا فــى رسم سياساتها ، بل إن العكس هو الصحيح تماما ، حيث يؤثر فيهم الآخرون .. ويتحكمون .. !!

إن العالم اليوم يؤثر فيــه أمــران رئيســان : العلــم أولا .. وتطبيقاتــه التكنولوجية ، والمال ثانيا .. ومهارات إدارته ، والتحكم فى أسواقه ، وكيفيـــة الاستفادة منه . والمسلمون – للأسف الشديد – لا يمتلكون علما يستفيدون منــه ويطبقونه ، بحيث يصبح تكنولوجيا تعمل على تيسير الحياة لهم فى مجتمعاتهم ، وإنما هم مستوردون حتى لأبسط أنواع التكنولوجيات ، وبطبيعة الحال هم مــن المستوردين لأعقد تلك الأنواع .. دفاعا عن النفس ، ومحاولة للحاق بالعصر ، بل إن معظمهم يستورد غذاءه الذى يأكله صباحا ومساء .. !!

أما بالنسبة للمال ، فباستثناء قلة نادرة من دول المسلمين ، نجد أن الغالبية العظمى من هذه الدول تقف فى موقف شديد التدنى ، بل فى موقــف الفقــراء الذين يمدون أيديهم طلبا للقروض من الدول الغنية ، وهم للعلم تكاد تقع جميعها

فى دائرة الدول التى تعادى الإسلام والمسلمين ، تارة ، وطلبا للمعونة .. تارة أخرى .

وتبعا لما سبق ، عدم امتلاك ناصية العلم الحديث ، بتطبيقاته التكنولوجية المتقدمة ، وندرة المال الذى يتحكم فى حركة التجارة العالمية ، وفى مصائر العديد من الشعوب ، فقد المسلمون - فى مجموعهم - تأثيرهم السياسى بين شعوب العالم ، وصنّفوا ضمن شعوب العالم الثالث ، أو ضمن عالم المتخلفين.. أولئك الذين لا يملكون صنع قرار سياسى خطير ، ولا يؤثرون فى مجرى حدث اقتصادى كبير .

وبما أن عالم اليوم عالم مادى ذو حضارة لا تعرف إلا لغة القوة ، فلقد تدهورت أوضاع المسلمين فيه بشدة ، وصاروا كالأيتام على مأدبة اللئام ، بحيث تحولت مصائر بعض شعوبهم إلى " قضايا ومآسى " يبحثون هم عن حلٍ لها ، ويطالبون دول العالم بأن تحلها لهم ، وهم فى ذلك واهمون أشد الوهم ، فلا أحد يهتم بأن يحل قضايا أحد ، وقديما صدق الحكيم العربى الذى قال " ما حك جلدك مثل ظفرك " .. بل إن العالم اليوّم يفقد احترامه للفقير الضعيف .

وحينما يجلس الإنسان ليتفكر فى مسيرة التاريخ ، وفى المكانة العظيمة التى احتلها المسلمون ، بعد أن أخرجهم الله من الظلمات إلى النور ، وبعد أن أرسى نبى البشرية ، ومعلمها الأول وقائد مسيرة حضارتها محمد بن عبد الله -ﷺ- أسس حضارتها ، يجد إنهم لم يسودوا العالم آنذاك إلا بشئ واحد فقط كان هو : تطبيق الشريعة الإسلامية .. فى كل مناحى حياتهم ، تلك الشريعة الغراء التى دفعت المسلمين الأولين ، أول ما دفعت إلى طلب العلم ، وإلى التفكير ، وإلى النظر والبحث ، فيما حولهم .. على الأرض .. وفى

السماء .. وفي أنفسهم .. حتى يبصروا ، فليس هناك دين سماوى جعل طلب العلم " فريضة " على المؤمنين به .. إلا الإسلام .

وكانت النتيجة المنطقية هى خروج أجيال وراء أجيال من العلماء فى كل مجال ، من أبناء الأمة الإسلامية ، بفضل هذا الدين العظيم ، وبفضل تعاليمه التى نفذها الجميع .. حكاما ومحكومين ، فسادت الأمة الإسلامية غيرها من الأمم ، وسطعت حضارة المسلمين على كل العالم المعروف آنذاك (*) .

الإسلام .. والعلم :

يقول العقاد ، المفكر المسلم – رحمه الله – : " من مزايا القرآن الكثيرة مزية واضحة . يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين ، لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب ، ودلالات اللفظ اليسير ، قبل الرجوع فى تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التى قد تختلف فيها الآراء .. وتلك المزية هى التنويه بالعقل ، والتعويل عليه ، فى أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف .

ففى كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقلِ أو إلى التمييز ، ولكنها تأتى عرضا غير مقصودة ، وقد يلمح فيها القارئ بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل ، أو التحذير منه ، لأنه مزلة (أى مدعاة للزلل والضلال) العقائد ، وباب من أبواب الدعوى والإنكار .

ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ، ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية ، بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة،

(*) من مقدمة كتاب المؤلف : البحث العلمى عند المسلمين بين ميسرات الماضى ، ومعوقات الحاضر ، عالم الكتب ، الرياض ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، ص ص ١٥ – ١٧ .

وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله ، أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه " [١] .

والعلم الذى أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق من شيئ .. ويشمل الخلق هنا كل موجود فى هذا الكون ذى حياة ، أو غير ذى حياة .. ﴿أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيئ ﴾ (الأعراف / ١٨٥) . ﴿إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة /) .

فالعلم فى الإسلام يتناول كل موجود ، وكل ما يوجد ، فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر ، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام ، إذ كان خير عبادة الله أن يهتدى الإنسان إلى سر الله فى خلقه ، وأن يعرف حقائق الوجود فى نفسه ومن حوله .. ولهذا قال النبى -ﷺ- " إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكوكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء " . كما قال -ﷺ- "فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " . وقال " من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع " وقال : " فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم " [٢] .

---

[١] عباس محمود العقاد : التفكير فريضة إسلامية ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، (بدون تاريخ) ، ص ٣ .

[٢] المرجع السابق ، ص ص ٥٧ – ٥٨ .

وهذا غير الأحاديث النبوية التى وردت فى فضل المعرفـــة والحكمـــة ، وفريضة العلم على كل مسلم ومسلمة مما اجتمعت فيه أوامر الله ونبيه على هذا المعنى المتكرر فى مواضع شتى من القرآن الكريم ، ومناســبات شــتى مــن الأحاديث النبوية ..

وموقف الإسلام من العلم – أو من العلوم عامة – يتبين من موقف علمائه المجتهدين فى كل حقبة من تاريخه الذى تعاقبت به الأجيال بين القوة والضعف، والتقدم والتأخر ، والنشاط والجمود ، فقد مرت بالأمم الإسلامية عصور متخلفة جهلت فيها الإسلام نفسه ، فجهلت فضل العلم ، كما جهلت فضـــل الديـــن ، ولكن الإسلام لم يخل قط تاريخه ، بين المشرق والمغرب ، من أئمة مجتــهدين استمدوا حرية الفكر من ينبوع تلك القوة الحيوية التـــى لا تســتنزفها المحــن والطوارق ، فحفظوا رسالة هذا الدين ، ولا فرق بينها وبين رسالة العلــم فــى مقصد من مقاصده ، وأوجبوا على المسلم أن يتعلم حيث وجد العلم ، وأن ينظر إلى " الحكمة " كأنها هى ضالة يعنيه أن يبحث عنها ويجدها ، وأينما وجدهـــا فهو أحق بها ، كما تعلم من رسول الله -ﷺ- ، واعتقد الأئمـــة المجتــهدون جميعا أنهم يؤدون أمانة الكتاب فى حثهم جماعة المسلمين على طلب المعرفـــة حيثما وجدوها ، فكل معرفة صحيحة فهى معرفة قرآنيـــة إســلامية ، علـــى اختلافهم فى تفسيرها والنسبة إلى الكتاب الكريم بين فئـــة تـــرى أن المعرفـــة محتواة فيه إجمالا وتفصيلا ، وفئة ترى أن المعرفة مطلب من مطالب المؤمــن بالكتاب لا يعوقه عائق عنه أن يتحراها ويحققها ، ويهتدى بها حيث أصابها [١].

أما الشيخ القرضاوى فيقول : " إن البشرية لم تعرف دينا مثــل الإســلام عنى بالعلم ابلغ العناية وأتمها ، دعوة إليه ، وترغيبا فيه ، وتعظيمـــا لقـــدره ،

---

[١] المرجع السابق : ص ص ٥٨ – ٥٩ .

وتنويها بأهله ، وحثا على طلبه وتعلّمه وتعليمه ، وبيانا لآدابه ، وتوضيحا لآثاره ، وترهيبا من العقود عنه ، أو الازورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله .

ومن درس الأديان السابقة على الإسلام ، أو قرأ كتبها المقدسة ، ازداد إيمانا بعظمة الإسلام فى هذا الجانب . إنك تقرأ " الأسفار المقدسة " فى العهد القديم أو الجديد ، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات " العقل " أو " الفكر " أو " النظر " أو " البرهان " أو " العلم " أو " الحكمة " ، أو ما اشتق منها ، أو تفرع عنها ، أو كان له قرابة بها ، فإذا قرأت " القرآن " وجدت فيه - كما يذكر " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ما يلى [١] :

كلمة " علم " نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرة ، أما مشتقاتها : علم ويعلم ويعلمون وعلم ويعلم وعليم وعلام .. إلخ فقد ذكرت مئات ومئات من المرات . كلمة " عقل " لم ترد اسما أو مصدرا فى القرآن ، وورد بديلا عنها كلمة " الألباب " ، وتكررت (١٦) ست عشرة مرة ، وكلمة " النهى " بمعنى العقول أيضا مرتين .

أما مشتقات " عقل " فقد تكررت فى القرآن (٤٩) تسعا وأربعين مرة ،وكذلك مشتقات " فكر " (١٨) ثمانى عشرة مرة ، ومشتقات " فقه " (٢١) إحدى وعشرين مرة ، وكلمة " حكمة " (٢٠) عشرين مرة ، وكلمة " برهان " مضافة وغير مضافة (٧) سبع مرات . وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر مثل " انظروا " : وينظرون " ونحوها .

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م ، ص ٣ .

وإذا طالعت كتب الحديث النبوى وجدت فى جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب – أو بتعبير ذلك العصر : الكتب – كتابا حافلا موضوعه " العلم " . ففى " الجامع الصحيح " للإمام محمد بن إسماعيل البخارى ، نجد – بعد أحاديث بدء الوحى ، وكتاب الإيمان – كتاب العلم ، وقد اشتمل كما يقول الحافظ بن حجر فى " الفتح " من الأحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين ، منها ستة عشر حديثا مكرراً – وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم اثنان وعشرون أثرا .

وفى صحيح مسلم وباقى الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجة) كتاب أو أبواب للعلم ، تقصر أو تطول . وحسبنا أن نذكر هنا أن كتابا مثل " الفتح الربانى " ، فى ترتيب مسند الإمام أحمد قد ضم فى كتاب العلم (٨١) واحدا وثمانين حديثا . وإن كتاب " العلم " فى مجمع الزوائد" للحافظ نور الدين الهيثمى قد بلغ (٨٤) صفحة فى كل صفحة عدد من الأحاديث .

وفى " المستدرك " للحاكم النيسابورى بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحة . وإن كتاب " الترغيب والترهيب " للحافظ المنذرى جمع فى كتاب العلم ١٤٠ حديثا . كما أن كتاب العلم من " جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد " للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثا .. كما أن كثيرا من الأحاديث المتصلة بالعلم نجده متناثرا فى أبواب كتب الحديث تحت عناوين شتى [١] .

وبعد أن يورد عددا من الأحاديث النبوية الشريفة التى تبين فضل العلم والعلماء ، وكذا منزلة طالبى العلم ينتهى الشيخ القرضاوى – حفظه الله – إلى

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ٥ – ٧ .

أن " العلم فى الإسلام نشأ فى أحضان الدين ، وإن نشأت المدارس فى صحون المساجد ، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع ، بل سمى كل منها جامعا : جامع الأزهر ، جامع القرويين ، جامع الزيتونة .. إلخ .

وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرّس علوم الدين ، وعلوم الدنيا معا ، وكان كثير من العلماء التجريبيين هم فى نفس الوقت علماء دين ، مثل القاضى ابن رشد مؤلف " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " فى الفقة المقارن ، ومؤلف "الكليات فى الطب " ، ومثل الخوارزمى الذى ألف كتابه الفريد الذى أسس به علم الجبر ، ليحل به مشكلات فى الوصايا والمواريث من أبواب الفقه.

ونتيجة للوحى الإلهى العظيم الذى نزل من الله العزيز القدير ، على قلب المصطفى -ﷺ- وأمر به المسلمين أن " يقرأوا " ، وأن " يتفكروا " ، وأن " ينظروا " ، وأن " يبصروا " .. ونتيجة لأحاديث الرسول -ﷺ- ، والتى حثت المسلمين على طلب العلم ، وعلى السعى فى سبيله ، وعلى الجهاد فى طلبه ، والتى بينت مكانة العلم والعلماء الذين رفعت مكانتهم فوق مكانة العابدين والعاملين ، نتيجة لكل ذلك اندفعت كتائب الإيمان من المسلمين الأولين تطلب العلم فى مظانه فى أى مكان على سطح الأرض ، وتبحث وتنقب فى بطون الكتب وأمهاتها ، ومن بعد طول قراءة ، وكثرة اطلاع بدأت " خلايا النحل " المؤمنة تفرز عصارات علمها التى خرجت للعالم على شكل عسل صاف للشاربين ، فيه لذة وفيه فوائد جمة لا تحصى فى كل مجال ، حتى إن أوروبا حين أرادت أن تخرج من عصور الظلام والجهالة لم تجد إلا العلم العربى الإسلامى تنهل منه ، ولم تجد إلا علماء المسلمين تلمذة على أيديهم ، وتعلما للغة قرآنهم .

إن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل ، وإن هـــذه النهضة فاقت كثيرا ما تركه اليونان أو الرومان ، إن العرب ظلوا ثمانية قرون يشعون على العالم علما وفنا وحضارة وأدبا ، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور ، وهكذا نجد السبق لعلماء العرب ومفكريهم ، " لقد كان لابد من ظهور بن الهيثم والبيرونى وابن سينا والخوارزمى والرازى والغـافقى وابن يونس والكندى وابن رشـد وابن زهـر ومن إليهم ، كى يتسنى ظـهور كبلر وكوبرنيق ونيوتن ودالتن وأينشتاين .. ومن إليهم [١] .

هذا وينبغى علينا نحن التربويين أن نبين للأجيال الحاضرة ، والأجيـال القادمة كيف عمل المسلمون ، وكيف جدوا واجتهدوا فى سبيل العلم ، وكيـف أعطوا لهذا العلم حقه ، بحيث أسلم لهم قياده ، وبحيث نجحوا ، على طريقه هذا النجاح الرائع والعظيم .

وحين نتحدث عن " المسلمين " فى عصور فجر الإسـلام ، تلـك التـى أرسيت فيها أسس النجاح العلمى الإسلامى فإننا نتحدث عن منظومـة الأمـة الإسلامية كلها ، من الحكام الواعين المؤمنين ، ومن العلماء الأجـلاء الذيـن نذروا أنفسهم للبحث عن الحقيقة فى كل مجال ، ومن طلاب العلم الذين أشربوا حب ذلك العلم ، وعرفوا فضل شيوخهم وأساتذتهم ، وكرّسوا حياتـهم قـراءة واجتهادا حتى أصبحوا مثل هؤلاء الأساتذة ، وربما تفوقوا عليهم ، ومن هنـا سارت قافلة العلم الإسلامى من نصر إلى نصر ، ومن نجاح إلى نجاح ، ولعلنا نمر على ما بذله كل هؤلاء من ميسّرات ، حتى نعلم ،ونحن نتحـدث عـن " الأصل العلمى " للتربية كيف يمكن أن نستعيد بعض ما كان لنا من مكانة علمية رائعة وصل إليها أجدادنا العظام ، وربّوا أجيالهم عليها على أساسها .

---

[١] محمد عبد العليم مرسى : البحث العلمى عند المسلمين بين ميشرات الماضى ومعوقات الحـاضر ، عـالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م ، ص ١٢ .

شهادات حق :

هذا وقبل أن نتحدث عن اليسرات التى أتاحها المسلمون " للعلم " حتى يؤتى ثماره التى عمت بلاد السلمين ، كما عمت الآفاق العالمية التى كانت معروفة آنذاك ينبغى أن نضع أمام أبصار أبنائنا ما قاله بعض علماء الغرب المشهورين عن المسلمين، بعضهم على الأقل ، وكيف كانت إسهاماتهم فى عصرهم ، وكيف استفاد الغرب من تلك الإسهامات .

يقول واحد من العلماء المسلمين بعد أن يستعرض التاريخ القديم لعلم اليونان الذى جاء بعد علم المصريين القدماء ، وبعد أن يقص علينا حكاية العلم الرومانى ، ثم ينتقل إلى العصر الإسلامى الزاهر يقول :

ثم ظهرت أمة العرب ،قويية بالإسلام أولا ، وبالعلم ثانيا ، وامتدت رقعة الامبراطورية والولاة من أمثال المأمون والحاكم بأمر الله وصلاح الدين الأيوبى ، ونظام الملك ونور الدين زنكى ، ممن كان لهم أثرهم البارع فى نشر نور العلم والعرفان فى أرجاء الإمبراطورية العربية الإسلامية ، وسطع فى سمائها علماء مبرزون من أمثال ابن الهيثم والبيرونى ، وابن سينا وابن النفيس، وجابر بن حيان ، والخازن ، والبتانى والفرغانى والمجريطى ، والجلدكى ، والبغدادى ، وداود ، وابن البيطار ، والدينورى ، والغافقى ، والقزوينى ، والخوارزمى ، وابن الصورى .. وغيرهم [١] .

وإذا لم يكفنا ما يقول به عالم مسلم مدقق متخصص فى " العلم وتاريخه " فلنقرأ لبعض علماء الغرب ، ممن اعترفوا بموقع العلماء المسلمين على خريطة العلم فى العالم .. موقعهم المتميز : " لقد أدرك الغربيون العلماء ان الجامعات

---

[١] عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى نقدمه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

الإسلامية فى الشرق كانت معقل آمالهم ، وكعبة قصـــادهم ، وكـــان علمـــاء المسلمين فى تلك الجامعات يرحبون بضيوفهم وتلاميذهم ، وأخذوا ينقلون عنهم الدفاتر العلمية ، ويترجمون الكتب العربية إلى اللاتينية ، وقد جاء فى مقدمـــة أحد كتب الكيمياء ما يلى : إنكم يا معشر اللاتينيين لا تعرفون ما هى الكيمياء ، ولا ما تراكيبها وأصولها ، وسترون ذلك مشروحا فى هذا الكتاب الذى ننقلـــه عن العربية .

ويقول " سارتون " عن " ابن الهيثم " إنه أكبر عالم طبيعى مسلم ، وهـــو من أكبر المشتغلين بعلم المناظر " الضوء " فـــى جميـــع الأزمـــان ، ويقـــول "كاجورى " إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله علماء العرب فـــى ميـــدان " الجبر " وهم أول من أطلق لفظ " الجبر " على ذلك العلم المعروف ، بل وهـــم أول من ألف فيه بطريقة علمية منظمة .

ويقول المستشرق " سـخاد " عن " البيرونى " إنه أكـــبر عقليـــة فـــى التاريـــخ ، وأنه من أضخم العقول التى ظهرت فى العالم ، وأنه أعظم العلمـــاء فى كـــل العصور ، ويقـــول " مايرهوف " إن اســـم " البيرونى " أبـــرز اســـم فى موكب العلمـــاء الكبـــار واسعى الأفق الذى امتاز بـــهم العصـــر الذهبـــى للإسلام .

كما يقول المستـــشرق الأمريكى " إيربوب " فى أية قائمـــة نحوى أســـماء أكابر العلمـــاء يجب أن يكون لاســـم " البـــيرونى " مكانـــه الرفيـــع ، ومـــن المستحيل أن يكتمل أى بحث فى الرياضيات أو الفلـــك أو الجغرافيـــا أو علـــم الإنســـان أو المعادن ، دون الإقرار بمساهماته العظيمة فى كل علم من تلـــك العـــلوم [١] .

---

(١) المرجع السباق ، ص ١٣٥ .

وممن أنصفوا جابر بن حيان " هولميارد " الذى وضعه فى القمة بالنسبة للعلماء العرب ، وبدد الشكوك التى اثارها حوله علماء مغرضون ، كذلك أنصفه " سارتون " الذى أرخ به حقبة هامة من تاريخ الحضارة العلمية الإسلامية ، فهو القائل " ما قدر جابر أن الكتب التى ألفها لا يمكن أن تكون لرجل عاش فى القرن الثانى للهجرة ، وذلك لكثرتها ووفرة ما بها من معلومات.

ويقول " درابر " لقد كان تفوق العلماء العرب فى العلوم ناشئا عن الأسلوب الذى توخوه فى بحوثهم ، وهو أسلوب إقتبسوه من اليونان ، وقد تحققوا أن الأسلوب العقلى وحده لا يكفى ، وأنه لابد من أسلوب عقلى تجريبى ، وهذا هو الذى دفعهم لهذا الترقى العظيم فى الهندسة وحساب المثلثات والفلك والطب وغير ذلك من العلوم .

ولعلنا نقرأ ما كتبته " سيجرد هونكة " فى كتابها " فضل العرب على أوروبا " ، أو " شمس الله على الغرب " : إن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل ، وأن هذه النهضة فاقت كثيرا ما تركه اليونان أو الرومان .. إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوال يشعون على العالم علما وفنا وحضارة وأدبا ، كما أخذوا بيد أوروبا وأخرجوها من الظلمات إلى النور [١] .

ويقول " سفر " لقد أمضى الغرب زهاء خمسة قرون ليبنى قلاعه العلمية والتكنولوجية ، والقارئ الموضوعى لتاريخ الإنسانية لا يملك إلا أن يعترف بأن أعمال العرب والمسلمين تمثل أنصع صفحات التراث العلمى العالمية ، فقد كانت تلك الأعمال الركيزة الأساسية التى قامت عليها الحضارة الغربية ، إذ أن جذور شجرة الحضارة العلمية المعاصرة تمتد إلى عصور السمو فى الحضارة

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ١٣٥ – ١٣٦ .

العربية الإسلامية حين ازدانت تلك العصور بمئات من العلماء العرب والمسلمين الذى أقرنوا بمساهماتهم إلى أعاظم العلماء فى كل عصر ، لقد كان لابد من ظهور ابن الهيثم والبيرونى وابن سينا والخوارزمى والرازى والزهراوى والغافقى وابن يونس والصدفى والكندى وابن رشد وابن زهر .. ومن إليهم لكى يتسنى ظهور كبلر وكوبرنيق ونيوتن ودالتن وأينشتاين ومن إليهم [١] .

ولعلنا بعد ما تقدم نستعرض سويا الميسرات التى مارسها المسلمون الأوائل أمام العلم والبحث العلمى ، والتى أوصلت الحضارة الإسلامية إلى ما صارت إليه خلال عصورها الزاهية [*] .

أولا : الإسلام .. والعلم ثانية .. !!

وهذا الجانب سبقت الإشارة إليه فى أكثر من موضع من هذا الكتاب ، وليس هناك شك فى أن الدين الإسلامى هو الذى حفز العرب ، ومعهم من دخل الإسلام من الأمم الأخرى إلى التعمق فى العلم ، وإلى التبحر فيه ، بل وتحمل المشاق والصعاب فى سبيل تحصيله .. وجمعه ، ثم فى وجوب إشاعته بين الناس ، وعدم حبسه فى صدور العلماء .

ونقلا عن عماد الدين خليل فى كتابه تهافت العلمانية يقول عويس " لقد حشد القرآن ما يقرب من خمسين آية فى تحريك العقل البشرى وانتشاله من وهدة التقليد والتبلد ، كما حشد عشرات الآيات فى إيقاظ الحواس من سمع وبصر ولمس ، وعشرات أخرى فى إيقاظ التفكير والتفقه ، فضلا عن آيات

---

[١] محمود محمد سفر : الحضارة .. تحد ، الكتاب العربى السعودى ، تهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ٣١ .

[*] هذه الميسرات مشروحة مفصلة لمن أراد الرجوع إليها فى الكتاب الذى يحمل اسمها .

طلب البرهان ، والحجة والجدال بالتى هى أحسن ، بل إن القرآن أضاف حقيقة فى غاية الأهمية ، وهى أنه أطلق كلمة " العلم " عن " الدين " ، كأنما يمزج بينهما فى مرحلة العصر القرآنى مزجا لا فكاك منه ، ومن ثم يغدو العلم والدين سواء فى لغة القرآن الكريم [١] .

أما السابح فيقول بأن الإسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمى والعقلى فحسب ، بل جعل متابعة البحوث وطلبها واجبا دينيا يؤجر عليه الإنسان المسلم، وكلمة " العلم " فى القاموس الإسلامى كلمة مطلقة لم تخصص بمادة معينة من مواد العلم ، ويرشد هذا الإطلاق فى مضمونه إلى أن العلم فى نظر الإسلام ليس خاصا بعلم الفقه والأصول والأحكام ، وإنما يشمل كل إدراك يفيد الإنسان فى القيام بمهمته فى الحياة [٢] .

ويتحدث فتحى عثمان عن القرآن الكريم باعتبار أنه كتاب يحمّل الإنسان مسؤولياته العقلية فى التفكير وطلب المعرفة ، واستيعاب ثمراتها ، وهو يخاطب أولى الألباب ، والذين يعقلون ويتفكرون ويتذكرون القرآن ، وأولى آياته نزولا ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق / ١ – ٥) [٣] .

---

(١) عبد الحليم عويس : لا نزاع بين الدين والعلم فى المنهج والموضوع ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ ، ص ص ١٦ – ١٨ .

(٢) أحمد عبد الرحيم السايح : أضواء على الحضارة الإسلامية ، دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م ، ص ص ٣٠ – ٣١ .

(٣) محمد فتحى عثمان : القيم الحضارية فى رسالة الإسلام ، ضمن بحوث اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامى " الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم " ، الرياض ، ٢ ربيع الثانى ١٣٩٩ هـ – ٢ مارس ١٩٧٩ م ، ص ص ١١٠ – ١١١ .

والكتاب المبين يثير طاقة العقل الإنسانى ، ويوجهه إلى المشاهدة والملاحظة والإدراك لشتى ظواهر الكون الواضحة لكل ذى عينين ، ونواميسه المعجزة التى يسبر غورعا أهل العلم بالبحث والتدبر ، والآيات القرآنية فى ذلك كثيرة بشكل لافت للنظر فى هذا القرآن العظيم المعجز .. كما يدفع الله – سبحانه وتعالى – البشر إلى التمعن والتفكر فيما يأكلون من حب أنبته الخالق ، وكيف يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وكيف يجرى الكون بأمره تعالى ، لا تهتز فيه أدنى شعرة دون إذن منه ، فكل شئ خلق بقدر ، والشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم . كل فى فلك يسبحون .. وهناك آيات وآيات لا تكاد تحصى ، وكلها تبين قدرة الخالق العظم ، وكيف أن العلماء هم المنوط بهم أن يبينوا ذلك للناس ، وأن يتفكروا فى كل ذلك .

ولعلنا هنا نقول بأن المسلمين الأوائل ، الذين رباهم الرسول – ﷺ – حينما وعوا أبعاد الآيات القرآنية الكريمة ، وحينما عملوا بها ، مقتدين برسول البشرية ، مستهم شرارة الروح .. فحولتهم إلى علماء متفقهين .. خاشعين .. مؤمنين .. فاهمين ، فاندفعوا بحكم هذا الميسر الدينى العظيم ، كى يبنوا حضارة إسلامية رائعة ، فى ظرف قرنين من الزمان ، هما طرفة عين فى أعمار الأمم والشعوب ، وليس هناك من تفسير آخر لهذه الوثبة الحضارية الكبرى ، تلك التى بنيت بالعلم الذى رسخ على قواعد من الإيمان ثابتة لا تتزحزح ، ولعل هذا الذى نقصده هو ما عبر عنه المفكر الإسلامى الجزائرى ، مالك بن نبى – رحمه الله – حين قال " بأنه حين يبتدئ السير إلى الحضارة ، لا يكون الزاد – بطبيعة الخال – من العلماء والعلوم ، ولا من الإنتاج الصناعى أو الفنون ، تلك الأمارات التى تشير إلى درجة ما من الرقى ، بل إن الزاد هو

" المبدأ " الذى يكون أساسا لهذه المنتجات جميعا [١] . ونعتقد أنه يقصد بالمبدأ.. الإيمان الذى يدفع الإنسان للإتيان بالعجائب في مجال العلم كما فى كل مجال .

لقد تحول الرجل البدوى إلى راوية للحديث يحفظ خمسة آلاف منها ، وتحول – بفضل شرارة الإسلام العظيم إلى حاكم ذى بصيرة أذهلت العالم بأفقه الواسع ، ونظراته التى أدارت شؤون الإمبراطورية الإسلامية ، فى الوقت الذى لم يغفل فيه عن أم يبكى أطفالها من الجوع ، فيحمل إليهم طعاما يطهيه لهم ، وهو يبكى ، خشية الرحمن .. إنه الإيمان ، كما تحول هذا الإنسان الذى خرج من قلب الصحراء إلى رحابة العلم والبحث لينتج .. ويبدع .. ويخترع .. ويكتشف .. بحيث أصبح معلما لأساتذة الحضارة السابقين باتساع العالمين [١] .

ثانيا : إتاحة المساجد لطالبى العلم :

المسجد ذو مكانة خاصة فى نفوس المسلمين ، ففيه يقفون بين يدى الخالق – جل وعلا – خمس مرات فى اليوم ، وفيه استن الرسول -ﷺ- سنة الجلوس إلى المسلمين ، وتعليمهم أمور دينهم ، وكثيرا من أمور دنياهم ، وفيه – أيضا جلس للقضاء ، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده ، ومنه خرج قادة الجيوش الإسلامية للجهاد ، بعد أن عقدت لهم الألوية .

ولأهمية وخطورة العلم فى حياة المسلمين يسر العلم وطلبه فى المساجد ، مع العبادة ، لأنه جزء منها يتقرب به إلى الله ، ويبتغى به وجهه ، ولقد عقدت حلقات العلم فى المساجد ، منذ أيام الإسلام الأولى ، فى المدينة المنورة

---

[١] مالك بن نبى : شروط النهضة ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م ، ص ٢ .

[١] راجع ناجى معروف : اصالة الحضارة العربية ، وكذا محمد على طنطاوى : مقدمات فى فهم الحضارة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ .

بالتحديد، ومن أقوال الرسول -ﷺ- " من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده " .

ومن هنا نشأ العلم في أحضان الدين ، ونشأت المدارس في صحون المساجد ، وبدأت الجامعات الإسلامية العريقة تحت سقوف الجوامع ، بل سمى كل منها جامعا ، فجامع الأزهر ، وجامع القرويين ، وجامع الزيتونة .. إلخ . وكانت هذه الجوامع أو الجامعات تدرس علوم الدين ، وعلوم الدنيا .. معا ، وكان كثير من العلماء التجريبيين هم فى الوقت نفسه علماء دين ، مثل القاضى ابن رشد الحفيد مؤلف " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " فى الفقه المقارن ، ومؤلف " الكليات فى الطب " ، ومثل الخوارزمى ، الذى ألف كتابه " الفريد " الذى أسسه به " علم الجبر " ، ليحل به مشكلات فى الوصايا والمواريث من أبواب الفقه [١] .

وقد اشتمل جامع القيروان على جناحين للتعليم ، أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وازدهرت مؤسسات التعليم ، ونشط البحث العلمى فى مختلف المجالات فى رحاب حضارة الإسلام ، كذلك نجد أن المسلمين أنشأوا المكتبات داخل المساجد ، وأن العلماء قد أوقفوا كتبهم عليها [٢] .

لقد أدت المساجد ما تؤديه الجامعات ومعاهد العلم والمدارس فى العصر الحاضر ، فكان مسجد قباء فى المدينة ، ومسجد المنصور فى بغداد ، والجامع الأموى بدمشق ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع القيروان بتونس ، وجامع

---

(١) يوسف القرضاوى : الرسول والعلم ، مرجع سابق ، ص ص ١٦ - ١٧ .

(٢) محمد فتحى عثمان : مرجع سابق ، ص ١١٤ .

القيرويين بالمغرب ، وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير فى صنعـــاء ، وغيرها من المساجد فى طول البلاد الإسلامية وعرضها ، كانت كلها منــارات للعلم والدين معا [١] .

ويبين لنا باحث آخر إقبال المسلمين الشديد على طلب العلم فى المســاجد حيث يذكر أنهم كانوا يجلسون فى حلقات ضم بعضها آلاف الطلاب ، وكــان " أبو الدرداء " من أوائل من عقد هذه الحلقات بالشام ، وقد بلغ عدد تلاميذه ألفــا وستمائه ونيف [٢] ..!!

هذا ولم تكن المســاجد فقــط للتفقــه فى الديــن وعلومــه ، وإنما أيضا " للترجمة " تلك التى كانت تتم فى العصر العباسى فى بيوت الحكمة العامــة ، والخاصة ، ودور العلم ، والمكتبات الخاصة ، ومكتبات المســاجد ، وخزائــن المراصد الفلكية ، والربط والمستشفيات ، والمدارس ، والجامعات فــى البــلاد الإسلامية كافة ، بل إن هذه المعاهد لم تكن بوجه عام للترجمة والتعريب فقط ، بل كانت فى كثير من الأحيان تتخذ أمــاكن للتــأليف والمطالعــة والانتســاخ والتوريق ، بالإضافة إلى خزن الكتب المترجمــة والمصنفــة ، والمصــورات الجغرافية والفلكية ، والخطوط المختلفة [٣] .

وتأسيسا على ما سبق يمكننا أن نتخيل مكتبات المساجد ، وقــد امتــلأت رفوفها بالكتب والمخطوطات والمصورات ، من كل لغة ، ومن كل لون ، ومن كل بلد ، كما يمكننا أن نتصور حال هذه المساجد وهى تعج بالآف المســلمين من طلاب العلم ، ما بين جالس فى حلقة يستمع لأستاذ ، أو يساله ، أو منكــب

---

[١] عبد الحليم منتصر ، مرجع سابق .

[٢] ناجى معروف ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

[٣] المرجع السابق .

علي كتاب أجنبى يترجمه ، أو باحث منقب غارق فى مخطوطة يحاول فهم مـا بها ، أو قارئ فى علوم الأقدمين بلغاتهم ... أليست هذه صورة رائعة نـادرة ، بلغت القمة فى العلم . والتعلم ، بفضل شرارة الدين التى أوقدت هذه الشـجرة المباركة فسطعت مصابيح العلم فى فروعها زاهية باهية رائعة .. !! .

هذا ولقد كان طلاب العلم والمعرفة يتنـاظرون ويتسـاجلون فـى هـذه المساجد ، وكان فقهاؤهم يبدعون فى هذا الجـو Scientific Atmosphere الذى نتحدث عن انتشاره اليوم فى لغرب ، والذى يصهر طلاب العلم فى بوتقة المعرفة ليخرجهم منها علماء متبحرين راسخى الأقدام وسعى الأفهام [1] .

والشئ العجيب فعلا أن نقرأ أن الكتب التى كانت بالملايين ، دون مبالغة، كانت هناك للقراءة والإطلاع ، ولم تكن هناك للزينة ولفت الأنظار ، والدليـل على ذلك أن الاستفادة منها كانت تتم على مدار ساعات الليل والنـهار ، دون توقف ، وكانت هناك " ورديات " تتناوب العمل فيها ، كى تواجه الإقبال العظيم من مجتمع المسلمين المقبلِ على العلم [2] والتفقه فيه ، وهو ما لا يحـدث فـى عالم المسلمين اليوم – للأسف الشديد .

ثالثا : بيوت الحكمة والمكتبات :

وهذه إحدى معالم الحضارة الإسلامية العظيمة ، ولقد ارتبطت فى أذهـان الكثيرين باعتبارها أماكن مخصصة للترجمة فقط ، بينما هى كانت تمثل مراكز ثقافية وعلمية متقدمة من الطراز الأول ، استفاد منها المسلمون الواعون ، فـى البحث والإطلاع والترجمة ، وفى هذا يقول " الدفاع " : كان بيت الحكمة مكتبة

---

[1] محمد عبد العليم موسى : ميسرات البحث العلمى عند المسلمين ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

[2] ناجى معروف ، مرجع سابق ، ص ص ٤٧٠ – ٤٧١ .

جامعة ، ومجمعا علميا وأدبيا ، ودارا للترجمة ، وهو أهم معهد تربـوى منـذ تأسيس مكتبة الإسكندرية فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد [١] .

ولقد كان إنشاء أول " بيت للحكمة House of Wisdom " فـى عـهد الخليفة المأمون ، ذلك الخليفة الواعى الذى مدّ بصره فـى الأمـة الإسـلامية باتساعها فوجد أنها محاطة بدول وحضارات مختلفة سـابقة علـى الحضـارة الإسلامية ، ووجد أنه لكى ينهض المسلمون فلابد من اطلاعهم على حضـارات السابقين ، من خلال الترجمة تحديدا ، ومن هنا كان اهتمامه بها عظيما ، حتـى قيل إنه كان يعطى وزن ما يترجم .. ذهبا .. !!

هذا وقد حوى " بيت الحكمة " الأول فى بغداد كتبا وضعت فى الأصـل بلغات أجنبية مختلفة ، من أهمها اليونانية والفارسـية والهنديـة والقبطيـة والآرامية [٢] .

ويبين لنا منتصر أن بيت الحكمة – هذا – كان أول مكتبة عامة فى العالم الإسلامى ، بل يقول إنه ربما كان أول جمعية علمية ، أو حتى جامعة إسلامية، يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس ، كما أن الطلاب كانوا يحضـرون إليـها للاستفادة والتزود من العلم والحكمة ، كذلك كان بيت الحكمة مركزا علميا شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها [٣] .

وعلى غرار بيت الحكمة فى بغداد ، أنشئت دار للحكمة فى القاهرة عـام ٣٤٥ هـ ، وقد حملت إليها الكتب من خزائن القصور ، وحملت إليها أيضـا

---

[١] على عبد الله الدفاع : الموجز فى التراث العلمى العربى الإسلامى ، جون وايلـى وأولاده ، نيويـورك ، ١٩٧٩ م ، ص ١٩ .

[٢] عبد الحليم منتصر ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

[٣] المرجع السابق .

كتب من خزائن الحاكم يقال أنها لم ير مثلها مجتمعا لأحد من الملوك قط ، وأجريت الأرزاق على من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء ، يقول " المقريزى " وأبيح دخولها لسائر الناس ، فوفدوا إليها على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر للقراءة ، ومنهم يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم ، كما أباح الحاكم المناظرة بين المترددين على دار الحكمة ، فكانوا يعقدون الاجتماعات والمناظرات ، وظلت هذه الدار مزدهرة حتى أوائل القرن السادس الهجرى [1] .

ويقدم فتحى عثمان لمحة ذكية حين يشير إلى أن " الحكم " ، صاحب الأندلس ، كان يبعث إلى بلدان المشرق من يشترى الكتب ، حال ظهورها ، وهذا أمر هام جدا فى تزويد المكتبات بالكتب والمطبوعات الحديثة ، وهو أمر تفتقده – الآن – كثير من دور الكتب فى عالمنا الإسلامى .

وكان يدير بيت الحكمة البغدادى مديرون وأمناء على الترجمة ، ومعهم كتاب حذاق ، كان كل من يشتغل فيه علماء ونساخون ، ومجلدون من مختلف الأديان والأجناس والمذاهب والثقافات ، ومعهم طائفة من الوراقية ، وهنا نلمح فكرة رائعة فى وصف الكاتب ، حين يقول بأن بيت الحكمة البغدادى قد وكل إلى عدد كبير من الجوارى والخدم للقيام بما يحتاج إليه العالم أو الباحث " حتى لا يتعلق قلبه ، ولا تتشوق نفسه إلى شيئ ، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصيّر له الوراقين ، وألزمه الأمناء والمنفقين ، فكان الوراقون يكتبون له حتى صنف الحدود [2] .

---

[1] أحمد على الملا : أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوربية ، دار الفكر ، بيروت (د . ت) ، ص ٦ .

[2] ناجى معروف ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ .

ونسأل نحن : أليست هذه هى " فكرة التفرغ العلمى " التى يتوق إليهـا كل باحث جاد ، بحيث توفر له حاجياته الأساسية ، ويتفرغ هو للبحث والتنقيب فى أمهات الكتب .. ؟ فما بالنا إذا كان يتاح له أن يجلس داخل بين من بيوت الحكمة ، تجلب إليه المراجع الحديثة ، فى كل لون وفن ، من شتى بقاع الأرض ، هل يكون له عذر بعد ذلك إذا لم ينتج الإنتاج العلمى الذى يتمشى مع كل هذه الظروف المواتية المحيطة به ، والميسرة لعمله ..؟؟

وننتقل الآن إلى دور الكتب الخاصة ، تلك التى أنشأها الأمراء والأثرياء، بل والعلماء ، لنرى معلما آخر من معالم اهتمام ذلك المجتمع المسلم الرائع .. بالعلم .. طلبا وتحصيلا ، وللعلم فإن هذا المظهر لا نراه الآن .. فى كثير من بلاد العالم المتقدم ، بل أكاد أقول جازما بأنه ليس موجودا على الإطلاق ، حيث أن الدول أو الحكومات هى التى تهتم بالقيام بهذا الدور فقط وتقوم به ، وأحيانا بعض المؤسسات الفخمة التى يمكن أن تكون لها مكتباتها الخاصة ، أما أن ينشئ الأثرياء والعلماء مكتبات كاملة .. على نفقاتهم الخاصة ، فهذا ما لم نسمع به ، أو ما لم نشاهده ، حتى فى أكثر الأمم المتقدمة اهتماما بالعلم والبحث العلمى ، وأعنى بها الولايات المتحدة الأمريكية .

رابعا : اهتمام الحكام والأمراء بالعلم ورجاله :

وقد بدأ هذا حين اهتم الرسول -ﷺ- بطلاب العلم حيث قال : مرحبا بطالب العلم ، وإن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ، ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب " ، وكذلك قال -ﷺ- : " سيأتيكم أقوام يطلبون العلم ، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم : مرحبا بوصية رسول الله -ﷺ- ، وأفتوهم ، وفى رواية " وأقنوهم " (أى ارضوهم وأعينوهم) .

وكان بلاط المأمون يموج بجمهرة عظيمة من رجال العلم والأدب والشعراء والأطباء والفلاسفة الذين استدعاهم المأمون من جهات متعددة من العالم المتمدين وقد شملهم جميعا بعنايته ، مهما اختلفت مشاربهم أو جنسياتهم . وكان هناك ما يعرف باسم " صالونات الأدب والعلم ، كما يطلق عليها منتصر ، وهى لطبقة معينة من مشاهير العلماء فى كل لون وفن ، وكانت تعقد جلسات علمية يحضرها الخليفة ، وقد توسعت بعد ذلك حين اهتم بها الأمراء والعظماء، واتخذ لها الأثاث الفاخر ، والرياش المناسب لرفاهية العصر الذى وجدت فيه، ولقد كان منها صالونات للأدب ، وأخرى للعلم ، وأخرى للفنون والموسيقى .. إلخ [1] .

ويذكر عبد الله الدفاع أن الخليفة العباسى " المعتضد بالله " كان يكثر مجالسة العلماء ، وأصحاب المواهب والكفاءات ، وكان يسهر طوال الليالى مستمعا لمناقشاتهم لبعض الابتكارات التى يقومون بها ، كما كان يقدم لهم الهدايا والمنح .

وقد ارتبط اسم خالد بن يزيد بن معاوية ، أو " حكيم بنى أمية " ، كما كان يسمى ، ارتبط اسمه بالعلم والعلماء وقد جمع منهم طوائف فى مجلسه ، وكان اهتمامه بالكيمياء عظيما ، كما كان يعتبر نفسه حاميا للعلم والعلماء ، كما كان فاضلا فى نفسه ، وله همة عالية ومحبة للعلوم، ويذكر عنه أنه كان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صنعة ، واستقدمهم حوله ، من كل مكان معروف .. من الإسكندرية والشام ، وأغدق عليهم المال ، وأجاب جميع مطالبهم .

---

(١) عبد الحليم منتصر ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

وفى الجناح الغربى من الامبراطورية الإسلامية الكبرى نجد أن حكام قرطبة لم يترددوا فى مباركة النشاط العلمى فوفروا الأمن والاستقرار للعلماء الذين وفدوا عليهم ، وأحاطوهم برعايتهم ، وغمروهم بعطاياهم . وقد كان هؤلاء الحكام على حظ كبير من الثقافة والعلم ، كما كانوا ينظمون الشعر ويشتركون مع الكتاب والشعراء وعلماء اللغة فى مجالس يجرى فيها نوع من المساجلات الأدبية [1] .

ونختتم هذا الجانب بنصيحة أحد الخلفاء لابنه فى رسالة هامة جاء فيها : واعلم أن مواقع العلماء هى مواقع السُرُج المتألقة ، والمصابيح المتعلقة ، وعلى قدر تعهدك تبذل الضياء ، وتجلو بنورها صور الأشياء .

وقيل لأحد الخلفاء هل بقيت لك بقية لم تنلها ، فقال بقيت واحدة هى أعلى من جميع ما نلته ، وأفخم من كل ما باشرته ، بل لم تقترب منها ، فضلا عن أن تساويها منحة أو مرتبة ، تلك هى أن أجلس مجالس العلماء .. أملى واشرح وأفيد ، وكان أبو الأسود الدؤلى يقول : ليس شئ أعز من العلم ، الملوك حكام الناس ، والعلماء حكام الملوك .

خامسا : مكانة العلماء فى المجتمع المسلم :

لقد احتل العلماء والفقهاء مكانة عظمى فى المجتمع المسلم ، فى صدر الإسلام ، وذلك للمعانى الرفيعة التى كانوا يمثلونها ، والتى رسخها الدين الإسلامى العظيم فى نفوس أبنائه ، مما انعكس على سلوكياتهم ، فى تعاملهم مع هؤلاء العلماء والفقهاء . يقول الشيخ القرضاوى : لقد تتابعت أحاديث النبى -ﷺ- وتكاثرت ، بعد آيات القرآن الكريم ، فى بيان فضل العلم ،

---

[1] السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٦٠ - ١٦١ .

ومنزلة العلماء .. عند الله ، ثم عند الناس ، فى الدنيا والأخرة ، ورفعت العلماء مكانا عليا ، لا يسعى إليه على قدم ، ولا يطارله على جناح إلا بواسطة العلم .

يقول الرسول -ﷺ- : " من يرد الله بن خيرا يفقهه فى الدين " ، ويقـول " من سلك طريقا يلتمس فيه علما ، سهّل الله به طريقـا إلى الجنة ، وما اجتمع قـوم فى بيت من بيـوت الله ، يتلون كتـاب الله ، ويتدارسـونه بينـهم ، إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السـكينة ، وغشيتهم الرحمـة ، وذكرهـم الله فيمن عنده " .

لقد وضع المجتمع الإسلامى المؤمن والواعى علماءه فى مكانهم الصحيح، وحفظ لهم كرامتهم وأعزّهم ، لأنه اعتز بهم ، وأجاب جميع مطالبـهم ، ومـا كانوا يطلبون أكثر مما يعينهم على أداء رسالتهم الخالدة ، فلم تكن الدنيا مبلـغ همهم ، ولا كانت مما يشغلهم كثيرا ، مما مكن من احترامهم عنـد الجميـع ، لأنهم اعتزوا بالله أولا ، ثم بعلمهم ثانيا .

سأل الحجاج خالد بن صفوان : من سيّد البصرة ؟ فقـال لـه : الحسـن البصرى ، فقال : كيف وهو مولى . ؟ أى ليس من قبائل العرب ذوى الحسب ، فقال : احتاج الناس إليه فى دينهم ، واستغنى عن الناس فى دنياهم ، ومـا رأيت أحدا من أشراف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول فى حلقتـه إليـه ، يستمع قول ، ويكتب علمه ، قال : هذا والله السؤدد [١] .

ومن مواقف العلماء التى احترموا فيها أنفسهم ، وهى كثيرة ، اشتد حـب الناس لهم ، وزادوهم تكريما على تكريم ، وفى هذا المجال تذكر قصـة ابـن الهيثم ، فى رده ما دفعه أحد الأمراء أجرا لتعليمه ، وقولته المشهورة " يكفينـى

---

[١] يوسف القرضاوى ، مرجع سابق ، ص ٦٩

قوت يوم " ، وقد كان يعيش من نسخ الكتب – وكذلك رد البيرونى ثلاثة جمال تنوء بأجمالها من نقود الفضة للسلطان ، وقوله " إنما يخدم العلم .. للعلم : ، وقولة البغدادى المشهورة : " إذا اشتهر المرء بعلمه وخلقه .. سعى إليه ، وجاءته الدنيا صاغرة ، وعرضه ودينه مصون " ، ولهذا روى فى الحديث : "من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله " [1] .

ولا ننسى ، قبل أن نختم هذا الجانب ، أن نقول بأن هؤلاء العلماء المسلمين الأقدمين لم يحتلوا هذه المكانة الرفيعة ، فى نفوس الحكام ، والخاصة، والعامة ، إلا لما امتازوا به من علم وخلق وأمانة وزهد ، وذلك لتمسكهم بالقيم التى كانوا يكتبونها ويعبّرون عنها ، فلقد كانت أقوالهم معبّرة تماما عن أفعالهم، كما كانت أفعالهم ترجمة حقيقية لكل ما كانوا يقولون .

لقد كان العلم ، بالنسبة لهم ، التزاما يجب الوفاء به ، وعهدا لا فكاك منه، فإذا تحدث أحدهم عن الأخلاق ، نجده وهو أول من يلتزم بهذه الأخلاق ، حتى وإن عانى فى سبيل ذلك ، وإذا كتب عن القناعة نكتشف أنه قد رفض هدايا من السلطان ، أو ذوى اليسار .. بالآلاف ، وإذا تحدث عن الإيمان والتمسك بكلمة الحق ، نجده وهو يرفع صوته ، وربما يدفع حياته .. الثمن ، وما قصة الإمام أحمد بن حنبل منا ببعيدة [2] .

وكلما اتسعت دائرة علم الإنسان ، كلما عظمت مسؤوليته ، فليس من علم مسألة كمن علم عشرا .. أو مائة ، وكما أن من كثر حسابه ، وطال سؤاله ،

---

(١) يوسف القرضاوى ، الرسول والعلم ، مرجع سابق ، ص ص ٦٩ – ٧٠ .

(٢) محمد عبد العليممرسى : ميسّرات البحث العلمى عند المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٧ هـ .

وعسر جوابه ، فكذلك من كثر علمه وتبحرت معارفه ، كانت مسئوليته أكبر ، وتبعقه أثقل [١] .

سادسا : صبر العلماء ، وقوة إراداتهم ، وتحملهم الشدائد :

إن طريق العلم ليس طريقا سهلا ولا ممهدا ، كما أنه ليس طريقا مفروشا بالورود ، إنه على العكس من ذلك ، طريق شاق .. طويل .. مضن .. يحتاج لرجال ذوى عزيمة ، وأفراد دربوا أنفسهم على الصبر وتحمل المشاق ، فتحصيله .. بداية .. يحتاج لإرادة تدفع صاحبها إلى الاستماع إلى العلماء والجلوس إليهم ، وإلى تأدب مطلوب فى حضرتهم ، ثم إلى مثابرة على القراءة من كل منهل عذب ، وعمل المقارنات بين كل ما يقرأ ، ولقد كان علماء المسلمين فى صدر الإسلام من هذا النوع من الرجال .

وهنا أيضا .. نجد أن المثل والنموذج جاءهم من كتاب الله – عز وجل – من القرآن العظيم ، وليس هناك مثل أعظم مما ضربه الله لعباده ، فى قصة نبى الله موسى – عليه السلام – ، وارتحاله فى طلب العلم عند الرجل الصالح المعروف " بالخضر " عليه السلام ، يقول الحق – تبارك وتعالى – ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا﴾ (الكهف / ٦٠) .

وقطع هو وفتاه ما قطعا من مفاوز ومسافات لا يعلمها إلا الله تعالى ، كان من أثرها ما عبّر عنه موسى – عليه السلام – بقوله لفتاه : ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ﴾ (الكهف / ٦٦) . ، وكان ما كان من عودتهما مرة أخرى قافلين إلى الموضع المنشود للقاء .

---

[١] يوسف القرضاوى ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

ويذكر لنا القرآن الكريم رقة الألفاظ ، وأدب الطلب ، حين يتقدم نبـي الله موسى وكليمه – عليه السلام – وهو يستأذن من سيتعلم منـه ﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت منه رشدا ﴾ (الكهف ٦٦) . ويأتي الأمر من الأستاذ .. المعلم .. بنص القرآن الكريم ﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ﴾ (الكهف / ٧٠) ، وكل مسلم قرأ القرآن يعرف باقي القصة ، وكيف كانت النهاية ، ولكن في تلك الخاتمة نجد الخضوع الكامل للأستاذ .. المعلم ، وهو يقول : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ ، وهو هنا يرد كل شيئ .. وكل علم .. إلى العلام القدير ، حتى يعلم التلميذ ، أو الطالب .. أن فوق كل ذي علم عليم .

وفي تاريخ أجدادنا المسلمين ، رواد العلم الأولين أمثلة رائعة على الصبر.. والحلم .. والتأدب في طلب العلم ، والجهاد والتحمل في سبيله ذكر ابن عبد البر وغيره ، أن ابا أيوب الأنصاري رحل من المدينة إلى مصر ، ليسمع من عقبة بن عامر حديثا سمعه من النبي -ﷺ- في ستر المسلم على المسلم ، فلما سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة وما حل راحلته " ، ومثل هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصاري ، فقد رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد [١] .

وقال الشعبي لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره قد ضاع . ورحلات المسلمين ، وبخاصة علماء الحديث ، في طلب العلم ، لا يعرف التاريخ لها نظيرا ، ومن طالع رحلات الأئمة مثل : الشافعي ، وابن حنبل ، والبخاري ، ومسلم .. وغيرهم ، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول في طلب العلم ، لقد بذلوا في طلبه النوم بالليل

---

[١] يوسف القرضاوي ، مرجع سابق ، ص ١٠١ .

والراحة بالنهار ، وتحملوا الشظف والفقر فى سبيله غير ضجرين ولا متبرمين، فقج تلقوا عن شيوخهم هذه الحكمة : لا ينال العلم براحة الجسم ، وكان الإمام مالك – رحمه الله – يقول : إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر [١] .

ولنا أن نقارن نحن ، فى هذه الأيام ، بين حال علمائنا ، وما يعيش فيه بعضهم من ترف ونعيم ، وبين إنتاجهم العلمى ، وإنتاج أجدادنا الغر الميامين ، فعلى الرغم من النعم الكثيرة التى أسبغها الله علينا ، من راحة كثيرة ، وأجهزة توفر لنا الإضاءة الكافية ، وتكيف الهواء من حولنا ، ومكتبات عامرة حولنا ، وطائرات نستخدمها عند السفر ، وسيارات .. وقطارات .. إلخ . إلا أن إنتاجنا العلمى .. لا أظن يقارن بما أنتج هؤلاء الرجال ، وبما قدموا للبشرية .

ولنقرأ ما يقوله الدفاع " المجريطى " الذى كان " يحب الأسفار ، حول العالم ، بحثا عن كبار العلماء ، للنقاش معهم ، والمداولة فى آخر ما توفر له من معلومات ، وما توصل إليه من أبحاث فى الرياضيات وعلم الفلك ، فسافر إلى بلاد المشرق (كان موطنه .. الأندلس) واتصل بعلماء العرب والمسلمين هناك ، والذين كانوا رواد الفكر والمعرفة ، ثم رجع إلى قرطبة ، وبنى مدرسة (انظروا ... !!) تتلمذ فيها عليه كثير من كبار علماء الرياضيات والفلك والطب والفلسفة والكيمياء والحيوان ، وكانت مدرسة " المجريطى " فى قرطبة عبارة عن معهد علمى يضم العلوم البحتة والتطبيقية (على غرار الجامعات التكنولوجية الحديثة) [٢] .

---

[١] المرجع السابق .

[٢] على عبد الله الدفاع : اسهام علماء العرب والمسلمين فى الكيمياء ، مرجع سابق ، ص ١٩٧ .

سابعا : كثرة الإنفاق على البحث العلمى :

لقد كان خلفاء المسلمين الأوائل واعين جدا بأهمية العلم ، وبالدور الخطير الذى يلعبه العلماء فى حياة الأمة ، ولذا لم يدخروا وسعا فى توفير " الجو العلمى " المناسب للإنتاج العلمى بكل ما يتطلبه ذلك من أموال تنفق على العلماء والباحثين والمترجمين ، وذلك لتأمين حاجياتهم الأساسية ، وتوفير سبل الراحة لهم ، بحيث يعمل الفرد منهم وهو لا يشغله شاغل سوى العمل العلمى والإبداع فيه ، بالإضافة إلى الأموال التى أنفقوها بسخاء عجيب ، على إقامة دور الحكمة .. والمكتبات الخاصة ، وعلى تزويدها بالكتب .. دوريا .. من كل مكان على ظهر الأرض ، وعلى الموظفين العاملين فيها .. بل والخدم ، وكذا على تزويدها بالأوراق والأقلام والأحبار ، كى يمدوا بها طلاب العلم والمعرفة دون أن يرهقوهم بشيئ .

ولما كانت هذه الأعمال تتطلب الاستمرار ، وعدم الانقطاع ، فقد أوقفوا عليها الكثير من الأراضى والأملاك والمزارع ، بحيث يعود ريعها على هذا الجانب الهام . يقول فتحى عثمان " ولنظام الوقف وتاريخه فى الإسلام دلالته الجلية على العناية بالعلم فى المجتمعات الإسلامية ، وبخاصة حين تقاعس الحاكمون المتأخرون ، خلال أوقات الضعف والتدهور عن النهوض بأعباء المرافق والخدمات العامة ، فرصدت الأوقاف لتمويل المساجد والمدارس ومكتباتها ، والمستشفيات ، والملاجئ ، وموارد المياه ، وسائر المؤسسات التى تحارب الجهالة والعوز والمرض [1] .

ولقد وقف أثرياء المسلمين أوقافا كثيرة على العلم والعلماء ، بشكل لافت للنظر حيث كان ينال الطلاب الكثير من هذه الأوقات على شكل جرايات

---

[1] محمد فتحى عثمان ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

وأطعمة من غير تمييز بين الطلاب على أساس الجنس أو اللغة ، وفى " العهد الأيوبى " كان كل تلميذ بمصر يلقى مسكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه ، وراتبا يقوم بجميع أحواله ، مما أتاح الفرصة لنبوغ مئات من العلماء ، توافروا على البحث والدرس ، وقد أنتجو إنتاجا علميا رائعا ، خلد على مر الزمان [١] .

ويذكر التاريخ أن نفقات التعليم كانت تدفع من خزانة الدولة ، وقد روى عن أحد الحكام أنه كان يقسم الخراج على ثلاثة ، ويجعل الثلث للتعليم [٢] . ولعلى هنا أوجه نظر القارئ الكريم إلى أن اليابان التى يضرب بها المثل فى مجال الاهتمام البالغ بالتعليم ، تضع فى ميزانيتها العامة ١٢,٥% لهذا التعليم ، أى ثمن (١/٨) الميزانية العامة ، وهو رقم محترم وكبير بالنسبة لكثير من الدول هذه الأيام ، ولكن عندما نقارنه بما كان يفعله المسلمون فى عصورهم الزاهرة نجد الفرق كبيرا جدا ولصالح المسلمين الذين كانوا يرصدون الثلث للتعليم ، أى ٣٣,٣% .. !!

وحينما نقرأ أن " المأمون " قد احتضن علامة المسلمين " الخوارزمى " ، حينما بان نبوغه واتضحت عبقريته ، وأنه وضع تحت أمره ، كما يقول الدفاع: المال .. والرجال ..والعدة .. والعتاد .. والإقامة .. والارتحال إلى أى بلد يشاء، طالما كان هدفه البحث والدرس ، فيما يشتاق إليه من رياضة وحساب وفلك [٣] ، أقول حينما نقرأ هذا يمكننا أن نفسره ونترجمه إلى أرقام بآلاف الدنانير ، هى اليوم .. بمثابة الملايين ،وكان الخلفاء يبذلونها عن طيب خاطر ،

---

[١] عبد الحليم منتصر ، مرجع سابق ، ص ٦٤ – ٦٥ .

[٢] على عبد الله الدفاع ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

[٣] المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

لأنهم كانوا على يقين من قيمة العلم وأهميته ، وبأنه ذو خطر عظيم فى شـؤون الأمة كلها .

بل إن هناك معلومة هامة وخطيرة فى تاريخنا الإسلامى العظيم ، وهـى أن العلماء المسلمين الواعين والحريصين على أمتهم الإسلامية قد علموا بـأن هناك عالما متميزا اسمه ليو Leo فى الامبراطورية البيزنطية ، وأنه لو حضر إلى عاصمة الخلافة الإسلامية " بغداد " وأقام بين علماء المسلمين هناك فسوف تكون الفائدة من ذلك كبيرة .

وكان الخليفـة المسلم الواعى عظيما فى فهمه ، هائـلا فـى اسـتجابته فأمر بالكتابة الفوريـة إلى امبراطـور الروم يطلب منـه الموافقـة علـى أن يحضر ذلك العـالم ليقيم فى بغداد ، كما عرض المأمون صلحا دائمـا بيـن الأمبراطور يتبين (!!) وكذا سوف يَدفع المسلمون مبالغ طائلة من المال نظـير أن يحضَر ذلك العالم إلى بغداد ن ونكمل القصة فنقول بأن الدولة البيزانطيـة رفضت العرض الإسلامى ، وذلك كما جاء فى رسالة علمية موثقة [١] .

ثامنا : تواضع العلماء المسلمين .. وعمق إيمانهم :

على الرغم من اعتزاز العلماء المسلمين بذواتهم ، وبعلمهم ، أمـام ذوى السلطان ، وعدم جريهم وراء المال والسلطة ، إلا أننا نجد أن الدين الإسـلامى العظيم قد غرس فى نفوسهم التواضع والإيمان العميق ، وعدم الغرور ، بحيث كانت هذه سمة من سماتهم يسرت لهم أمور البحث والتجريب ، وذلك لعلمـهم ، بل يقينهم أن فوق كل ذى علم عليم ، وليقينهم أيضا أنهم ما أوتوا من العلـم إلا قليلا .

---

(١) عبد الغنى عبود : فى رسالته للدكتوراه عن البحث العلمى بين مصـر والولايـات المتحـدة والاتحـاد السوفيتى، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، القاهرة .

يقول الشيخ ابن سينا " وكلما كنت أتحير فى مسألة ، أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط فى قياس ترددت إلى الجامع ، وصليت ، وابتهلت إلى مبدع الكون ، حتى فتح لى الغلق ، وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع إلى دارى بالليل ، وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة .. ومتى أخذنى النوم كنت أحلم بتلك المسألة بعينها ، حتى إن كثيرا من المسائل اتضح لى وجوهها فى المنام [١] .

وهذا نابغة علماء المسلمين ، جابر بن حيان ، يبين لنا هذا الجانب الإيمانى العظيم فى شخصيته ، كما يقول " موريس ب كروسلاند " فى كتابه (دراسة تاريخية فى لغة الكيمياء) يقول : كان جابر بن حيان يرد على تلاميذه – ناصحا – " يجب أن تدعوا الله تبارك وتعالى أن يعينكم على تجربتكم ،كما يلزم الصبر والمثابرة [٢] .

ولا غرو فى ذلك ، فالقرآن العظيم يقول : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وهؤلاء هم نتاج العلم الإسلامى الذى تربى أصحابه فى أحضان المساجد ، على هدى القرآن العظيم ، وفى هدى السّنة النبوية المطهرة ، فكان لابد وأن يخرج منهم هذا الصنف الرائع والنادر من العلماء الذين كانوا يخشون الله ، ويستشعرون عظم المسؤولية أمامه ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة ، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه المرتبة ، وعلى قدر المنزلة تكون المسؤولية [٣] .

---

[١] على عبد الله الدفاع ، مرجع سابق ، ص ١١٩ .

[٢] يوسف القرضاوى ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .

[٣] المرجع السابق .

ومن أخلاق العلماء التواضع ، فالعالم الحق لا يركبه الغرور ، ولا يستبد به العجب ، لأنه يدرك – عن يقين – أن العلم بحر لا شطآن له ، ولا يصل أحد إلى قراره ، وصدق الله العظيم ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (الإسراء/٨٥) كما أنه يعلم أن قافلة العلم والعلماء مديدة طويلة ، ضاربة فى أغوار الماضى ، موصولة بالحاضر ، ممتدة إلى آفاق المستقبل ، وهو (أى العالم المسلم) ليس إلا واحدا منها ، فلا ينبغى له أن يغمط الآخرين فضل سبقهم ، ولا أن ينكر جهد اللاحقين منهم ، ولعل فى قصة نبى الله وكليمه موسى – عليه السلام – العبرة.. كل العبرة ، لمن أراد أن يعرف معنى التواضع فى طلب العلم وفى تحصيله .

تاسعا : حرص علماء المسلمين على نشر العلم وإشاعة المعرفة :

وكانت هذه صفة من صفاتهم الملازمة لهم ، والتى التزموا بها ، بناء على تعاليم الدين الإسلامى العظيم ، وأيضا التزاما بأوامر الرسول المعلم – ﷺ – إن المجتمع الذى يوفر الظروف الملائمة للعلماء من أبنائه ينتظر منهم ألا يحبسوا العلم الذى يحصلونه فى صدورهم هم فقط ، لأن فى ذلك أنانية بالغة ، إنما يأمرنا الدين الإسلامى بإشاعة العلم والمعرفة بين الناس ، فلا خير يكتم فى صدور أصحابه ، ولو اعتبرنا العلم بمثابة درر غالية وثمينة فإن اكتنازها وحجبها عن الآخرين يصبح غير ذى فائدة ، اللهم إلا لصاحبها فقط .

لقد كان النبى – ﷺ – يحض أصحابه على تبليغ ما يسمعونه منه ، لينتفع به من بعدهم زمانا ، ومن وراءهم مكانا ، كما يقول الشيخ القرضاوى ، ففى حجة الوداع ألقى سيد الخلق أجمعين – ﷺ –

وفى حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبى -ﷺ- " بلغوا عنى ولو آيـة " (البخارى) ، وروى ابن مسعود مرفوعا " نضر الله امرؤ اسمع منا شيئا فبلغـه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع " (الترمذى) [١] .

وفى القرآن العظيم نقرأ : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تبوا وأصلحوا ، فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ (البقرة / ١٥٩ - ١٦٠) ، وكـذا نقـرأ ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه : ﴾ (آل عمـران /١٨٧) ، وروى أبو هريرة عن النبى -ﷺ- ، قال : " من سؤل عن علم فكتمه ألجم بلجام مـن نار" (أبو داود والترمذى) [٢] .

وإذا أخذنا المعانى العظيمة التى ارادها الله - سبحانه وتعالى - ، وما قاله الرسول -ﷺ- وتمثلناها جيدا ، فهمنا لماذا كان يسعى علماء المسلمين الأوائل فى نشر العلم والمعرفة على سائر أبناء الأمة الإسلامية ،وفهمنا تماما لماذا كان يحرص الواحد منهم على أن يصل علمه إلى أكبر عدد من أبناء أمته الإسلامية ،وليس عبثا بعد ذلك أن نقرأ أن بعض حلقات الدروس فى المساجد كان يزيـد عدد أفرادها عن ألف طالب يتحلقون حول أستاذ عالم يستمعون إليه ، ويشربون العلم من نبعه الصافى ، وإذا شاعت المعرفة هكذا بين الناس ، بالآلاف ، فإنـه يصبح طبيعيا أن ينتج من بين هذه الآلاف وأن يخرج عشرات وعشرات ، مـن أبناء المسلمين ، بل ومئات ومئات ، ممن ينضمون إلى القافلة المباركة .. قافلة العلم والبحث العلمى .

---

[١] المرجع السابق ، ص ص ٧٦ - ٧٧ .

[٢] المرجع السابق ، ص ٧٨

عاشرا : تكافؤ الفرص .. وحرية إبداء الرأى العلمى :

وهذه ميزة رائعة تمتع بها العرب – بعد دخولهم الإسلام – كما تمتع بها كل من شاركهم الدخول فى هذا الدين العظيم ، فالفرد المسلم يشعر أنه أخ لكل المسلمين ، وأن له من الحقوق ، وعليه من الواجبات ، مثلهم تماما ، يستوى فى ذلك السي القرشى ، والعبد الحبشى ، والغلام الفارسى ، وهذا هو مبدأ المساواة الذى أرساه الإسلام منذ البداية ، والذى عبر عنه حديث الرسول –ﷺ– لا فضل لعربى على عجمى .. إلا بالتقوى " .

ومبدأ المساواة هذا حين يسود .. وحين يطبق ، يدفع جميع أفراد المجتمع للعمل الذى يصبح وهو الفيصل بين الناس ، ومن هنا سمعنا عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – وهو يقول : أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا ، مشيرا إلى الصحابى الجليل .. بلال .. مؤذن الرسول –ﷺ–

إن هذه المساواة ، وهذا العدل بين الجميع كانا كنزا رائعا تفجر بين المسلمين بالخير ، ومن هنا ، وكما يقول الهاشمى " كان الإنسان فى المجتمع المسلم يجد طريق النبوغ مفتوحا أمامه ، لا يعيقه عن ولوجه عائق من لغة أو دين أو قومية ، أو فقر أو حطة نسب ، كما نجد العوائق توضح اليوم فى طريق النابغين الموهوبين ، فى كثير من الدول لأنهم ليسوا على دين النظام الحاكم ، أو من قومية أو جنسية ، أو قد يعقد بهم فقرهم أو حطة نسبهم عن الوصول إلى تحقيق الأمانى التى هفت إليها نفوسهم وتطلعت إليها مواهبهم وقدراتهم " (١) .

---

(١) محمد على الهاشمى : القيم الكبرى التى يقوم عليها المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية ، ضمن بحوث ندوة الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

ولعل بعض الأمثلة الواقعية ، من تاريخنا الإسلامى الرائع ، تبين هذا المعنى ، ذكر أن نافع بن عبد الحارث لقى أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – بعسفان ، وكان عمر ولاه على مكة فسأله : من استخلف على أرض الوادى ؟ فقال : ابن أبزى ، قال : ومن ابن أبزى ؟ قال : عالم بالفرائض (المواريث) ، قال عمر : أما إن نبيكم – ﷺ – قد قال : إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ، ويضع آخرين [١] .

وقال إبراهيم الحربى : " كان عطاء بن أبى رباح عبدا أسودا ، لامرأة من مكة ، قال : وجاء سليمان بن عبد الملك ، أمير المؤمنين إلى عطاء ، هو وابناه ، وجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انتقل إليهم ، فمازالوا يسالونه عن مناسك الحج ، وقد حول قفاه إليهم (!!) ، ثم قال سليمان (الخليفة) لولديه : قوما ، فقاما وهو يقول لهما : لاتنيافى طلب العلم ، فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود [٢] .

والقصة تحمل المعنيين اللذين أردناهما تماما ، فتكافؤ الفرص ، فى المجتمع المسلم ، أوصل عطاء بن رباح ، العبد الأسود ، إلى هذا المجلس الرفيع ، الذى جعل الخليفة وولديه يجلسون بين يديه مستمعين لما يبديه من علم وفضل ومعرفة .

كما أن حرية إبداء الرأى العلمى تتجلى هنا أيضا ، فقد أفتى الجميع بما عنده ، بمنتهى الثقة بالنفس ، لدرجة أنه لم يستدر إليهم بوجهه ، وإن كان هذا الموقف من هذا العالم المسلم فيه نظر ، فليس مطلوبا من العالم أن يدير ظهره للناس ، ولا أن يعاملهم بصلف وكبرياء ، ثم إن الخليفة قد استمع إليه ، وعرف

---

[١] يوسف القرضاوى ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

[٢] المرجع السابق ، ص ص ٣٣ – ٤٤ .

ما كان يريد السؤال عنه ، ومن ثم كانت نصيحته لولديه أن يطلبا العلـــم قـــدر استطاعتهما ، حتى لا يضطر إلى الوقوف مثل هذا الموقف ثانية ، ولم يـــأمر باعتقال ابن أبى رباح ، أو سجنه ، أو منعه من الجلوس فى مجلسه .

هذا هو الإسلام العظيم ، وهؤلاء هم العلماء المسلمون .. المبدعون ، دين يسّر لأهله العلم وطلبه ، ورجال آمنوا .. وفكروا .. وتعبوا .. وأنتجوا ، فكانت هذه الحضارة الإسلامية الرائعة التى نتحدث عنها اليـــوم منتشـــين فرحيـــن ، فحسب، وكان أحرى بنا أن نسير على هداهم ، فلن ينصلح آخر هذه الأمـــة .. إلا بما صلح به أولها ، كما جاء فى الأثر .

معوقات البحث العلمى فى الأمة العربية

وقبل أن ننهى هذا الفصل الخاص " بالأصل العلمى للتربيـــة " وبعـــد أن أشرنا إلى الميسرات التى وضعها أجدادنا المسلمون أمـــام العلمـــاء وطـــلاب المعرفة مما مكنهم من إنجار الحضارة الإسلامية الرائعة التى نتحدث ويتحـــدث عنها العالم إلى اليوم ، أقول قبل أن ننهى هذا الفصل ينبغى أن نجيـــب علـــى علامات الاستفهام الكبيرة والكثيرة التى هى لا شك تدور فى أذهـــان الأجيـــال الجديدة من أبناء الأمة الإسلامية ، والتى يمكن أن نلخصها ونوجزها فى سؤال واحد وهو : إذا كان هذا هو الإسلام وموقفه من العلم ، وإذا كانت لنا كل هـــذه المنجزات الحضارية الرائعة فى الماضى فماذا جرى لنا ، ولماذا أصبح حالنـــا هكذا فى ذيل دول العالم تخلفا وتقهقرا .. ؟؟

وللإجابة على هذا السؤال العويص نوجز ، فى عناوين رئيســـية فقـــط، أسباب هذا التخلف ، وقد سبق أن نشر لنا هذا البحث فى بدايـــة الثمانينـــات ، تحت عنوان "معوقات البحث العلمى فى الوطن العربى " ، ولمن أراد التفصيـــل

فيمكنه العودة إلى نفس الكتاب الذى يحمـــل العنوانيـــن معـــا ، أى ميســـرات الماضى.. ومعوقات الحاضر .

أما عناوين هذه المعوقات فهى كما يلى :

أولا : ضعف المرصود من الأموال للإنفاق على البحث العلمى .

ثانيا : عدم مشاركة المؤسسات العربية ، والشركات والأثرياء من الأفراد فـــى نفقات البحث العلمى .

ثالثا : قلة أعداد العلماء العاملين فى مجال البحث العلمى .

رابعا : ظروف العمل التى يعيش فيها العلماء والباحثون .

خامسا : عدم الاهتمام الكافى بحضور العلماء والباحثين المؤتمرات العلمية .

سادسا : التعقيدات البيرُوقراطية فى مجال الإدارة .

سابعا : عدم ملاءمة جو البحث العلمى الذى يساعد على نمو العلماء .

ثامنا : كثرة الأحمال الإدارية والأعباء التدريسية .

تاسعا : وضع العلماء والباحثين فى المجتمع .

عاشرا : الحرية السياسية ، وما يتبعها من حرية أكاديمية .

حادى عشر : نظام الترقيات العلمية .

ثانى عشر : مشكلات النشر فى البلاد العربية .

ثالث عشر : إزدياد حجم هجـــرة أصحاب الكفاءات العرب ، وعـــــدم توفـــر الفرص لتكوين قدرات علمية فى كل مجال .

رابع عشر : الافتقار إلى التعاون والتنسيق بين الأفكار العربية .

وعلى طريق العلم " والأصل العلمى للتربية " نقول :

إن المسلمين حين كانوا مؤمنين حقيقيين منفذين لأوامر ربهم ولمقتضيـــات دينهم تقدموا فى مجال العلم والبحث العلمى ، وابتكروا وطوروا كما لم تبتكـــر

وكما لم تخترع أمة من قبل فى تلك الفترة الزمنية المحدودة ، بحيث صارت الأمة الإسلامية هى المثل ، وهى النموذج ، ويكفى أن نتمعن فى حادثة بسيطة واحدة وقعت فى تلك الأيام ، وهى حادثة إرسال هارون الرشيد الخليفة المسلم المعتز بربه ودينه هدية إلى المبراطور " شارلمان " ، وكانت هذه الهدية عبارة عن "ساعة مائية " وقف أمامها " شارلمان " ومن فى بلاطه وقوف الحيرى المدهوشين المذهولين ، كما أوردت لنا كتب التاريخ .

إن هذا الأمر ينبغى أن نتمعن فيه ، وأن نتفكر إنه يدل على القجوة العلمية والتكنولوجية الأمة الإسلامية آنذاك والامبراطورية الرومانية ، فما كان عاديا بالنسبة للمسلمين . علما .. وابتكارا .. واختراعا .. وتنفيذا .. وتطبيقا ، كان بالنسبة للرومان مذهلا .. ومدهشا .. ومحيرا ، ولم يكن ذلك إلا بفضل الدين الإسلامى العظيم ، وما وجه إليه المسلمين من طلب العلم ، والحرص عليه، والسعى فى طريقه ، بلا هوادة ، وبلا توقف .

وننتقل الآن إلى واقعنا المعاصر الذى نعيشه الآن ، فأين هى المجتمعات الإسلامية من قضية العلم ، وقضية التطبيقات العلمية ، أين هم من قضايا التكنولوجيا والتقدم فى المخترعات والابتكارات .. ؟

إن الإجابة على كل هذه الأسئلة تكمن فى عبارة واحدة ، هى بعدنا عن الدين ، وعن تطبيق الشرع فى حياتنا ، فى بيوتنا ، ومدارسنا ، ومؤسساتنا كلها ولا يمكن أن نتقدم فى هذا الجانب ، كما فى أى جانب آخر إلا بعودتنا إلى هذا الدين العظيم .

إننا جميعا نحن أبناء الأمة الإسلامية ، نجلس فى قارب واحد ، هو قارب المستوردين المتلقين الذين لا هم لهم إلا استيراد ما تبدعه العقول فى الخارج ،

وهذا شيئ محزن ألا يكون همنا هو أن نربى أبناءنا على الاهتمام بقضايا البحث العلمى والاختراع فى الوقت الذى يعتبر هذا الجانب أساسيا ورئيسيا فى تربيتنا لأبنائنا .

إننا نعيش فى عصر جديد غريب علينا هو عصر " الانفجار المعرفى " الرهيب ، يقول " فرانك كيلسن " فى كتابه الحديث " ثورة الانفوميديا : " إن ثورة الوسائط المعلوماتية آتية وفى جعبتها عجائب تخرج عن نطاق الحصر ، فكما أذهلت السيارات والطائرات الأولى أجدادنا ، وأدهشنا الراديو والتليفزيون لدى ظهورهما ، ستقلب ثورة الوسائط المعلوماتية Infomedia Revolution حياتنا رأسا على عقب .

إن أعظم ثلاث قوى تكنولوجية على الساحة الآن : الحوسبة ، الاتصالات، والوسائط الإعلامية تكيف نفسها ، وتتواءم لتحقق صيغة ائتلافية جديدة فيما بينها ، تعرف باسم التقارب التكنولوجى Convergence ، ويحقق ذلك التقارب عائدا يفوق ٣٠ تيرليون دولار سنويا . ستبرز الوسائط المعلوماتية من خلال تلك الصناعة الجديدة ، التى تتنامى فى سرعة مذهلة ، كسلاح أساسى جديد للمنافسة فى القرن ٢١ .

سيظهر إلى الوجود جيل جديد من شركات تمتلك تكنولوجيا ثاقبة تدعم بدورها الوسائط المعلوماتية لتحقق نجاحا فلكيا ، بينما ستنام شركات أخرى مطمئنة لما بين أيديها الآن ، وعندما تصحو ستجد أن العالم قد تغير من حولها . إن ثورة الوسائط المعلوماتية تتحدانا على المستوى الشخصى ، فتثير قضايا أخلاقية جديدة ، وسوف تغير من أساليب حياتنا اليومية ، كما ستغير من الأسلوب الذى يتفاعل به أطفالنا مع الآخرين ، إن ثورة الوسائط المعلوماتية

تطرق أبوابنا بالفعل ، ولا تدع أمامنا سوى خيارات نشترك معها فى صعوبة واحدة .. النظرة المستقبلية [١] .

وطبقا لهذا الكلام السابق والخطير فإن القضية بالدرجة الأولى هى قضية التربية ، طالما أن الحديث عن المستقبل ، وعن الأطفال ، فكيف ننظر إلى أطفالنا ، وإلى تربيتهم فى ضوء هذا العصر الجديد ، عصر التفجر المعرفى ، وعصر المخترعات الرهيبة التى دخلت علينا فى مجالها .

بطبيعة الحال نحن نعرف ما عندنا ، فهذه الأبعاد التكنولوجية أبعد ما تكون عن مدارسنا ، وعن أولادنا ، حتى وإن ادعى البعض أن مدارسنا قد أدخلنا إليها أجهزة للكمبيوتر عديدة ، وإن كان هناك شك فى جدية استخدام هذه الأجهزة ، بل إن هناك من يقولون فى مجتمعنا المصرى أننا نعد معلمى الكمبيوتر ، وندربهم جيدا ، ولكن للأسف الشديد بعض الدفعات التى تخرّجت فى هذا المجال لم يسند إليها العمل الذى أعدت من أجله ، والذى دربت عليه .

أما عند الآخرين ، أى عند عالم المتقدمين ، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد نظروا إلى موضوع التربية نظرة جدية ، كما هى عادتهم فى كل ما يواجههم من مشكلات ، وعرفوا أن التربية هى الملجأ الأول والأخير لهم ، ومن هنا فرضوا الحلول من عندها ، ومن تحت مظلتها ، ولذلك نجد أنهم أدخلوا كل جديد فى هذا المجال ، مجال المعلومات ، إلى مدارسهم ، اعتبارا من المدرسة الابتدائية ، من الكمبيوتر إلى الانترنت ، ولم يدخلوها لمجرد أن تكون هناك أجهزة يتفرج عليها التلاميذ والطلاب ، وإنما لإتقانها

---

(١) فرانك كلسن : ثورة الأنفوميديا ، الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك ، ترجمة حسام الدين زكريا ، عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، العدد ٢٥٣ ، رمضان ١٤٢٠هـ - يناير ٢٠٠٠ .

والتدرب عليها ، بحيث أنهم حين يتخرجون إلى المجتمع يكونون متوافقين تماما مع ما فى ذلك المجتمع من تغيرات ، ومن إبداعات ، وليتنا نتمعن إلى ما فى الجدولين التاليين من حقائق ونسب وأرقام حتى نستبين وضع التربية عندهم فى الواجهة عند التعامل مع الجديد .

جدول رقم (١)

أعداد المدارس التى لها ارتباط بشبكات الأنترنت فى الولايات المتحدة الأمريكية [١]

النوع	عام ٩٦	عام ٩٧	عام ٩٨	عام ٩٩	ملاحظات
المدارس الأبتدائية النسبة للمدارس كلها	٧,٦٠٨ ١٤,٧%	٢١,٠٢٦ ٤٠,٣%	٣٤,١٩٥ ٦٤,٧%	٣٤,٨١٢ ٧٦,٤%	شبكات الانترنت هى أحدث الصيحات فى مجال الاتصالات العالمية .
المدارس المتوسطة للنسبة للمدارس كلها	٢,٧٠٧ ١٩,٥%	٥,٧٥٢ ٤٠,٨%	١٠,٨٨٨ ٧٥,٥%	١٢,١٢٧ ٧٦,٤%	نسب المدارس الى لها ارتباط بالانترنت عام ١٩٩٩ واضحة
المدارس الثانوية النسبة للمدارس كلها	٣,٧٣٦ ٢٢,١%	٨,٩٨٤ ٥٢,١%	١٣,٨٢٩ ٧٨,٦%	١٣,٩٠٠ ٧٨,٨%	ولا تحتاج لتعليق وهى متقاربة جدا ، فلا فرق عندهم بين تلميذ فى الابتدائى أو المتوسط أو الثانوى .

---

[1] Ilid .

جدول رقم (٢)
أعداد المدارس التى يستخدم طلابها الكمبيوتر
فى الولايات المتحدة الأمريكية [١]

النوع	عام ٩٦	عام ٩٧	عام ٩٨	عام ٩٩	ملاحظات
المدارس الأبتدائية	٨٢.٦٧٥	٨٤,٠٨٠	٥٨,٩٠٣	٨٦,١٩٧	تلاحظ أن أعداد المدارس تتزايد عاما بعد عام .
النسبة للمدارس كلها	%٩٩,١	%٩٨,٨	%٩٩,٦	%٩٨,٦	
المدارس المتوسطة	٥٠,٩٩٧	٥١,٩٧٤	٥٢,١٨٧	٥٢,٢٧٦	هذه الأرقام كلها لأعداد المدارس ، وليست لأعداد الطلاب .
للنسبة للمدارس كلها	%٩٩,١	%٩٨,٩	%٩٧,٧	%٩٧,٨	
المدارس الثانوية	١٦,٤٣٤	١٦,٦٠٩	١٧,٢٩٤	١٧,٣٠٧	
النسبة للمدارس كلها	%٨٩,١	%٩٨,٤	%٩٦,٤	%٩٧,١	

---

[١] The World Almanac & Book of Facts, 2000, Premedea Reference Inc., New Jersey, U. S. A.

الفصل الثانى عشر

التربيـــة .. والثقافـــة

الفصل الثانى عشر

التربية .. والثقافة

مدخـــل :

أصبح من المسلم به لدى علماء التربية ، وكما سبق القول ، أن التربيـــة عنصر منهم من عناصر الحياة ، بل إنها أهم عنصر فى تلك الحياة ، بـــل إن بعض علماء التربية ذوى الشهرة الواسعة ، أمثال " جون ديـــوى " الفيلســوف التربوى الكبير ، وصاحب الفكر التربوى الواسع والعريض ، والذى تشـــكلت أجيال من أبناء الأمة الأمريكية على أساس افكاره التربوية النيرة ، بل والـــذى استدعته اليابان فى فترة نهضتها كى تستفيد من نظرياته وخبراته ، هذا المفكـر يقول : " إن التربية هى الحياة ذاتها " ، لأنه لا يمكن الفصل بين وجهى العملـة الواحدة ، فمعنى وجود الحياة يحمل بالضرورة فى ثنايـــاه وجـــود التربيـــة ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن توجد تربية بدون مجتمع ، أو بدون حيـــاة ، وقـــد سبقت الإشارة لأفكار " ديوى " فى ثنايا الفصل الذى كتب عن التربية فى هـــذا الكتاب ، ولقد سار عدد من فلاسفة التربية على منهاج " ديوى " فكتب " جولـــد ستين Goldstein " مبيناً أن التربية تدخل فى صميم نسيج المجتمع Its Fiber فهى ليست لوناً خارجيا يطلى به المجتمع ، ولكنها جزء منه لا يمكـــن عزلـــها عنه ، كما لا يمكن فصله وإبعاده عنها " [١] .

ولقد صدق من كتب إن " التربية مخ الحضارة " ، قل أو قلبها ، وهى مخ حياتنا ، وأضف أعماق قلبها .. إن التربية إذا صلحت صلحت أمور حياتنا كلها .. ومن الحق أن نقولها ، ومن الواجب ألا ننطلق لحل مشاكلنا إلا ونحن تحـــت

---

[١] Wilim Goldstein : Controversial Issues in Our Schools. Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington. Ind .. 1980.

رايتها ، فبها تتصلح كل أمورنا ، ودون أى اتهام بالمبالغة ، فى البيت ، وفـــى المدرسة ، فى الشارع ، وفى المؤسسة ، فى الملعب .. كما فى المصنع ، فـــى أمورنا الداخلية ، وعلى الأطراف عند الحدود ، فى السلم ، كما فى الحرب .

التربية تصلح كل ما نشكو منه ، أو نعتذر عنه ، أو نخجل من إبدائه ، أو نود بناءه فلا نقدر عليه . تقدم لنا حكمة " الماضى " ، وتعالج مدى ثقتنا فـــى " الحاضر " . كما أنها تهدئ مخاوفنا التى تؤرقنا عن " المستقبل " . التربيـــة .. باختصار .. معناها غرس الثقة ، واستمرار القدرة ، والتأكد من اليقين بالنجـاح والانتصار [١] .

ورغم ما فى الأسلوب السابق من نبرة أدبية إلا أن الألفاظ عبرت بـــالفعل عن فهم عميق للتربية ، واستنتاج سليم لوظيفتها فى المجتمع الذى تعمل فيه وله ، ولو أن مؤسساتنا التربوية وعت هذه الأبعاد – فعلا – فى تربيتها ، ونفذتـــها فى عملياتها لاختلفت صور الحياة على أرضنا ، كما حدث من قبل حين كنـــا متقدمين ، وكانت الحضارة الإسلامية حضارة رائعة ، وحين كـــان الإنســان المسلم خريج " مدرسة الإسلام العظمى " يمثل القدوة والنموذج للبشـــر .. فـــى إيمانه ويقينه ، فى علمه وعمله ، فى أخلاقياته وتعاملاته مـــع أفراد مجتمعـــه من المسلمين ، بل ومع غير المسلمين كذلك .

إذا كانت هذه هى التربية فى أهميتها وخطورتها .. بالنسبة للفـــرد وكـــذا بالنسبة للمجتمع ، بالنسب للفرد فى طفولته ورعايته وتنشئته ، بل وحتى بالنسبة لهذا الطفل قبل مولده ، بل وحتى قبل أن تحمل أمه فيه ، بل – وأكثر من ذلك–

---

(١) محمد الأحمد الرشيد : احفظوا آية واحدة وطبقوها .. احفظوا حديثا واحدا وطبقوه ، مجلة رسالة الخليـــج العربى ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، العدد ٨ ، السنة الخامســـة ، الريـــاض ، ١٤٠٦ هــــ / ١٩٨٦م ، من كلمة العدد .

قبل أن يتزوجها أبوه ، حيث علمنا المربى الأعظم والأسمى -ﷺ- بأن نتخير لنطفنا ، لأن العرق دساس ، فكان بهذا أول من نبه بنى الإنسان ، وعلمهم أن الصفات البشرية تنتقل وتتوارث من فرد إلى فرد ، ومن جيل إلى آخر ، ولا أظنه -ﷺ- كان يقصد الصفات الجنسية الظاهرة والواضحة التى يتحدث عنها علماء الأجناس والسلالات البشرية فى كتب الجغرافيا البشرية لأن الله - جلا وعلا - - لا ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا ، كما جاء فى الأثر ، وإنما كان -ﷺ- يعنى الاهتمام بالبيئة التربوية التى نشأت فيها الفتاة .. أم المستقبل ، وبالخلية الأولى للمجتمع .. أى الأسرة ، الأسرة التى يختار الإنسان منها شريكة حياته ، ومن ثمّ الأسرة التى هى ى علم الغيب ، والتى ستتكون فيما ، بعد بإذن الله .

وحول هذا المعنى يقول " سويد " : " إن خير ما تنكح عليه المرأة دينها وصلاحها وتقواها وإنابتها إلى ربها تعالى ، مثل هذه تقر بها العين ، وتؤتمن على نفسها ومال زوجها ، وتربية أبنائهما ، كى تغذيهم بالإيمان مع الطعام ، وكى تصب فيهم أحسن المبادئ مع اللبن ، وكى تسمعهم من ذكر الله تعالى ، ومن الصلاة على نبيه -ﷺ- ما يشربهم التقوى، وما يركز فيهم حب الإسلام إلى أن يموتوا ، والمرء يشيب على ما شب عليه ، وإن صفات الوالدين لتنحدر إلى الأولاد [١] .

ويمضى الكاتب السابق موضحا رأيه قائلا : (وكثيراً ما تظهر ملكة التقوى فى الولد تبعاً لأبويه ، أو لأحدهما ، أو للعم أو للخال . وقد ورد الإرشاد النبوى منبهاً إلى هذا فيما رواه " ابن عدى " و " ابن عساكر " عن " عائشة "

---

[١] محمد نور سويد : منهج التربية النبوية للطفل ، مكتبة المنار الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، ص ص ٢٩ - ٣٠ .

رضى الله عنها ، عن سيدنا رسول الله -ﷺ- قال : " تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن " [١] .

ويخرج الطفل إلى الحياة – فى المجتمع المسلم الحق – فتتلقفه التربية الإسلامية الرائعة المأخوذة عن خير معلم أرسل لهداية البشرية -ﷺ- فتتعامل مع كل جوارحه منذ اللحظة الأولى من ميلاده ، فيؤذن فى أذنه اليمنى ، ويسمع إقامة الصلاة فى اليسرى ، وفى ذلك رمز حسى ملموس للمهمة التى جاء من أجلها إلى الوجود ، ألا وهى عبادة الله – سبحانه وتعالى – وتلبية النداء لتلك العبادة ، وقد فعل الرسول -ﷺ- ، ذلك للحسن بن علىّ – رضى الله عنه –[٢] .

ويسرى اهتمام التربية الإسلامية العظيمة والرائعة بلبنة المجتمع الأولى ، ألا وهى الطفل ، فتهتم به بعد ذلك ، اعتبارا من تسميته باسم طيب يعتز به ويستريح عندما ينادى به ، ومروراً بحقه فى النسب والملاطفة والمداعبة ، والرضاعة الطبيعية ، وصولاً إلى حقه فى التعليم وحسن التربية والتوجيه ، منذ نعومة أظفاره .

إن توجيه الطفل يبدأ منذ نعومة أظافره ، فلا مجال للأب أن يسوّف أو يؤخر ساعة التعليم إلى أن يكبر الولد ، ومن هذا المنطلق المهم جاءت السنة النبوية المطهرة بالتوجيهات للآباء ، بأن يلتفتوا إلى أبنائهم ، وأن يحسنوا تعليمهم وتأديبهم ، فقد روى عن رسول الله -ﷺ- قال : " لأن يؤدب الرجل

---

[١] المرجع السابق .

[٢] عبد المجيد صالح : حقوق الطفل السملم بين الشريعة والقانون ، ضمن بحوث ندوة ثقافة الطفل المسلم ، المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعوم ، البحرين ، ١٩٩٠م ، ص ١٣ .

ولده خير من أن يتصدق بصاع " . كما قال أيضا : " ما نحل والد ولـــدا مـــن نحل أفضل من أدب حسن " (رواه الترمذى) [1] .

ويستمر الاهتمام بلبنات المجتمع ، ونعنـــى بـــهم الأطفـــال الصغـــار ، ويزداد ذلك الاهتمام حين تتدخل المجتمعات بثقلـــها فـــى هـــذا الأمـــر ، ولا نترك التنشئة فى يد الأسرة فقـــط ، حيـــث أنشـــأت المـــدارس التـــى وثقـــت فيها، وعهدت إليها بأمر تنشـــئة الأطفـــال والشـــباب الصغـــار وتربيتـــهم ، بالإضافة إلى مؤسسات أخرى بجوار المدارس ، مثـــل الجامعـــات ووســـائل الإعلام المختلفة ، والأندية والمكتبـــات وغيرهـــا .

وإذا كانت التربية مهمـــة ، بـــهذا الشـــكل ، بالنســـبة للمجتمـــع علـــى أساس أنها عملية مرادفة للحياة التى تجرى داخـــل ذلـــك المجتمـــع ، وعلـــى أساس طبيعة عملها فى تشكيل شـــخصيات أفـــراده ، وبنـــاء مقومـــات تلـــك الشخصيات فى نطاق الأطر الدينية القيميـــة التـــى وضعـــها ذلـــك المجتمـــع لنفسه ، وضمن المعـــايير التـــى ارتضاهـــا العقـــلاء والحكمـــاء فـــى ذلـــك المجتمع ، بحيث يخرجون الأجيال الناشـــئة علـــى أساســـها ، حتـــى يكـــون التفاعل بين أفراد ذلك المجتمع ، وكذا بيـــن جماعاتـــه ســـهلا هينـــا لينـــا ، يبتعد عن الصراعات والاحتكاكـــات .

إذا كان الأمر كذلك فإن وظيفة مهمة مـــن وظـــائف التربيـــة هـــى أن تعد الأفراد للحياة داخل المجتمع ، بحيث يعـــرف كـــل منـــهم حـــدود أدواره التى عليه أن يلعبـــها ، وبحيـــث يعـــرف فـــى الوقـــت نفســـه حـــدود أدوار الآخريـــن .

---

[1] عدنان صالح باحارث : مسؤولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة ، دار المجتمـــع للنشـــر والتوزيع ، جدة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م ، ص ٨٢ .

كذلك فإن التربية تعتبر قوة متحركة (ديناميكية) تدفع بالمجتمع دوماً إلى الأمام ، وتعمل على تغييره وعلى تشكيل المؤسسات العاملة فيه ، كما أنها فـي الوقت نفسه تعكس حركة القوى الاجتماعية الأخرى المؤثـرة والعاملـة فـي المجتمع ..

إذا كانت هذه هى أهمية التربية ، أو بعض أهميتها ، وإذا كانت هذه هـى خطورة التربية ، وما يمكن أن تقوم به فى حياة المجتمع ، أو بعض خطورتها، فما علاقتها بالثقافة داخل المجتمع .. ؟؟

إن الإجابة على هذا السؤال سوف تكون محور الحديث خلال صفحـات هذا الفصل إن شاء الله ، خاصة إذا أبقينا فى أذهاننا أن المجتمعات الواعية هى التى تلجأ دوماً إلى التربية تستلهمها الحلول الناجعة لمشكلاتها ، وهـى التـى تعتصم بتلك التربية عند حدوث الطوفان وعند الأزمات والكوارث والمشكلات، وما خاب سعى أمة لجأت إلى التربية .. والتاريخ الإنسانى مليئ بالأمثلة لمـن أراد أن يعتبر .

العلاقة بين التربية والثقافة :

لو حاولنا فى عودة سريعة ، أن نتذكر بعض الأمور التى أوردناها سـابقاً عن الثقافة فى أحد فصول هذا الكتاب (*)، لأمكننا أن نربط بينها وبين التربيـة فى يسر وسهولة ، إن شاء الله . وهذه الأمور المتعلقة بالثقافة تتمثل فى النقـاط التالية :

(*) كتاب : " المنظور الإسلامى للثقافة والتربية " ، والذى أخذ منه هذا الفصل ، وقد سبقت الإشارة إليـه كأحد مراجع هذه الدراسة .

- إن الفرد عمره قصير ، بينما المجتمع أطول عمراً وأبقى ، وأن الثقافة تسير مع المجتمع ما بقيت الحياة تدب على أرضه ، وهذه الثقافة هى آخر ما ينزع منهما معا .. أى من الفرد ومن المجتمع .

- إن التربية هى الوسيلة الأساسية لاكتساب الثقافة داخل المجتمع ، وهى كذلك ، الوسيلة المعينة على تمثل الثقافة وهضمها .. وكذا هى سبب الحفاظ عليها واستمرارها .

- بما أن الثقافة ديناميكية متحركة فإن التربية ينبغى أن تكون كذلك .

- إن الثقافة لا تقتصر على طائفة من طوائف المجتمع ، كما أنها ليست حكراً على جماعة من جماعاته ، وهكذا ينبغى أن تكون التربية ، خاصة إذا فهمناها فى معناها الشامل الذى تضطلع بمسؤولياته مؤسسات المجتمع المهتمة بالتربية والتنشئة الاجتماعية .

- الجانب الروحى فى الثقافة الإسلامية هو الأساس ، والتربية – فى المجتمع المسلم – مطالبة بالتركيز عليه ، بل وبالبدء ، فهو أصلُ البناء وركيزته الأولى ، وينبغى أن تكون التربية هى أحجار الزوايا فى كل ركن من أركان البناء ، بناء الفرد .. وبناء المجتمع .

- القيم الإسلامية مطلب رئيسى ينبغى التركيز عليه فى البناء التربوى للمجتمع المسلم ، وهى كثيرة ومتنوعة ، فمن الوفاء بالعهد ،إلى التحلى بالصبر ، ومن احترام الكبير ، إلى العطف على الصغير ، ومن طاعة الوالدين ، والإحسان إليهما ، إلى العناية بالأسرة والإخلاص لها ، ومن رعاية الجار والصديق ، إلى الاهتمام بمجتمع المسلمين عامة .. إلخ .

- الثقافة تنمو وتتراكم داخل المجتمع ، بحكم خبرات الحياة فيه ، وبحكم احتكاكاته ، على مر السنين ، مع ظروف الحياة ، ومع تعدد أنواع المناشط فيه ، وكذا بحكم تعاملاته مع غيره من المجتمعات .. أفرادا وجماعات ، والتربية ذات دور أساسى فى حسن الانتقاء وجودة الاختيار من بين كم الخبرات الهائل والمتراكم دوما ، كى تقدمها للناشئة من أبناء المجتمع .

الربط المحدود والقاصر بين الثقافة والتربية :

هذا ، ولقد حاول عدد من التربويين أن يربطوا بين الثقافة والتربية ، ولكن ربطهم ، فى محصلته النهائية ، جاء مركزا على العلاقة بين الثقافة والتربية .. كما تمثلها المدرسة فقط ، واقتصر هذا الربط على ما ينبغى أن تقوم به المدرسة تجاه الثقافة بمكوناتها الثلاثة : العموميات والخصوصيات والمتغيرات ، وكيف أن التربية (المدرسة) ينبغى أن تؤكد على " العموميات "، وأن تعمل على شيوعها بين ابناء المجتمع الواحد بحيث تعمل على تماسك البناء الاجتماعى وعلى قوة ترابطه وتلاحمه مع بعضه البعض ، بينما يأتى التأكيد على " الخصوصيات " من خلال دورها فى إعداد طوائف من أبناء الأمة لتولى مسؤوليات متخصصة ، يقوم فيها ابناء كل طائفة بسد احتياجات المجتمع من التخصصات المطلوبة ، وأخيرا فإن التربية (المدرسة) ينبغى أن يكون لها موقف من " المتغيرات " موقف ناقد واعى ، بحيث تقبل منها ما يتمشى مع فكر الأمة ، ومع توجهاتها ، وبالدرجة الأولى مع عقيدتها وقيمها ومثلها العليا ، بينما ترفض وتؤكد رفضها لكل " متغيرة " تحسب أنها قد تمس هذه الجوانب المهمة من قريب أو بعيد .

ولنقرأ معا بعض ما كتبه عدد من التربويين فى هذا المجال ، والذى يؤكد المعنى السابق حول العلاقة بين الثقافة والتربية : " إن الثقافة المتكاملة قد

أصبحت موضوع التعليم (أى أنها من صميم عمل المدرسة .. ولذا جاء الحديث عن المدرسة وليس عن التربية) فى عصرنا الحاضر بغرض تخريج الفرد المتكامل ، عقلاً ونفسا ويداً وجسماً ، وتتدرج هذه الثقافة فى مستوياتها ونوعياتها ، تبعاً لطبيعة المرحلة التى يمر بها المتعلم ، فالمرحلة الإبتدائية تقدم ثقافة عامة أولية لكل الأطفال ، ثم تتعمق نوعاً فى المرحلة التعليمية الوسطى (الإعدادية) ، ثم تتعمق أكثر فى المرحلة الثانوية ، مع وجود نوع من التخصص المتسع فى شعب دراسية رئيسية ، ثم تتعمق كثيراً مع التخصص المهنى والدقيق فى المرحلة الجامعية " [1] .

وهكذا نرى الربط حتى بين مراحل التعليم المختلفة وبين عموميات الثقافة وخصوصياتها والمتغيرات ، مما يؤكد على الفكرة التى سبق وبيّناها ، وهى قصر قضية التربية – فى التعامل مع الثقافة – على ما تقوم به المدرسة ، وبيان دور التربية المدرسية فى التعامل مع الثقافة بمكوناتها .

إن خطورة هذا التصور – فى رأينا – تكمن فى إهمال أدوار المؤسسات التربوية الأخرى الفاعلة فى المجتمع كالأسرة ، والمسجد ، والنادى الأدبى ، والنادى الرياضى ، والمكتبة العامة ، والمكتبة المدرسية .. إلخ ، وكذا فى إهمال التعامل مع الثقافة بشيئ من العمق والوعى . وهذا التناول فى حقيقة الأمر يغمط " التربية " حقها من جانب ، ويسّطح التعامل مع " الثقافة " من جانب آخر، وكلاهما .. أى " الثقافة " و " التربية " لا ينبغى التعامل معها بهذه البساطة ، ولا بهذا التسطيح ، لخطورة موقعهما من المجتمع ، ومن مسيرة الحياة فيه ، بل ومن التأثير فى حاضره ، وكذا فى رسم صورة مستقبله .

---

[1] محمود قمبر وآخران : دراسات فى أصول التربية ، دار الثقافة ، الدوحة ، قطر ، ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م، ص ١٤٣ .

العلاقة بين الثقافة والتربية بمعنيهما الشاملين الواجبين :

وبالفهم الشامل للثقافة يمكننا أن نلخص العلاقة بينهما فى النقاط التالية :

أولا : دور المؤسسات التربوية .. جميعها :

حينما نقول : إن الثقافة " مرادفة للشخصية فإننا ينبغى أن نؤكد على دور مؤسسات المجتمع التربوية كلها (الأسرة – المسجد – المدرسة – وسائل الإعلام – الأندية الأدبية والثقافية والرياضية – المكتبات العامة – بالإضافة إلى كل مؤسسة اجتماعية يمكن أن يكون لها إسهام تربوى من أى نوع) فى بناء هذه الشخصية ، ومنذ اللحظة الأولى التى يتفتح فيها الطفل على أمور هذه الحياة .

إن الأسرة ، على سبيل المثال ، مطالبة بأن تغرس " ثقافة المجتمع " فى شخصية الطفل ، بكل ما فيها من قيم أخلاقية ، ومعايير اجتماعية ، وعادات طيبة، بحيث يعرف – منذ بدايات حياته الأولى – معنى الحلال والحرام ، ومعنى الصواب والخطأ ، ومعنى ما هو جميل وطيب ونافع ومفيد ، ومعنى ما هو عكس ذلك ، وأن يكون تعريف الطفل بتلك الأمور عن طريق القدوة الحسنة فى حياته ، وبواسطة خبرات حية محسوسة ، وليس عن طريق مجرد الكلام الذى قد لا يؤتى أكله إذا لم تصاحبه مواقف واقعية حية وخبرات عملية ملموسة، يحس بفائدتها فى حياته إذا كانت طيبة ، وبوقعها المؤلم ومرارتها الفعلية ، إذا كانت غير ذلك .

وفى الوقت ذاته الذى تفعل فيه الأسرة ذلك فإن وسائل الإعلام المختلفة ، وخاصة التليفزيون ، مطالبة بأن تظهر كل ذلك فى برامجها وتمثيلياتها ، بحيث لا يتعارض ما يذاع وما يبث مع ما تقوم به الأسرة ، تجنبا لنشوء أنواع من التعارض والصراعات التى قد تنشأ بين ما تقدمه المؤسستان التربويتان، نتيجة

اختلاف " الرسالة " التى يود كل منهما أن يوصلها للأجيال الناشئة أو الصاعدة من أبناء المجتمع ، والتى هى رصيد الأمة ، أى أمة ، فى حياتها المستقبلة (*) .

إن غرس بذور الثقافة .. ثقافة المجتمع فى نفسيات وشخصيات وعقول وأرواح الناشئة ، تبدأ من هنا ، نقصد من بدايات مرحلة الطفولة ، ويستمر الغرس ، وتستمر العناية مع الفرد طوال مراحل عمره ، ولكن مرحلتى الطفولة والمراهقة المبكرة تعتبران من أحرج المراحل فى حياة الكائن البشرى ، وببساطة شديدة لأن الطفل والمراهق الصغير يكونان فى مرحلة التلقى غير الناضج وغير الواعى ، ومن هنا تأتى خطورة ما يلقى فى نفوس أصحابها من بذور ، ومن هنا – كذلك – تأتى مسؤولية القائمين على أمر التربية فيهما ، حيث يتم وضع اللبنات الأولى فى بناء الشخصية فى هذه المراحل .

ونموذج نبينا محمد -ﷺ- فى تعامله مع الأطفال ، وفى تربيته لهم ، وفى توجيه المسلمين لتلك التربية ينبغى أن يكون النموذج الذى نقتدى به نحن التربويين ، والذى ينبغى أن نقدمه لكل مؤسسات المجتمع المهتمة بأمر تربية الناشئة ، وعلى رأسها الأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام ، نقدمه للمسؤولين فيها جميعا كى يضعوه أما ناظريهم ، وهم يحاولون بناء شخصيات الأطفال والمراهقين .

نماذج تربوية من حياة الرسول -ﷺ- :

إن الطفل يحتاج ، من أجل نمو شخصيته نموا متكاملا متناسقا ، إلى الفهم، وقد كان رسول الله -ﷺ- أقرب ما يكون ، وأحب ما يكون إلى قلوب

(*) يمكن .. لمن أراد مراجعة كتاب " التليفزيون وتربية الأطفال " ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م ، وهو من ترجمة المؤلف .

الأطفال والمراهقين الصغار لدرجة أنهم كانوا أسرع من حوله من أهله استقبالا له عند عوته من أسفاره ، كما يقول " عباس العقاد " - رحمه الله - والأطفال لا يفعلون ذلك إلا إذا كانوا يشعرون أن صاحب الرسالة -ﷺ- كان يتفهمهم ، ويشعر بهم ، ويعرف كذلك مطالبهم ، بل ويستجيب لحاجاتهم ، وبألفاظه يقول العقاد : " كان -ﷺ- أرحم الناس بالصبيان والعيال ، وأنه كان إذا قدم من سفر تُلقى بصبيان أهل بيته " (١) .

والمتمعن فى العبارة التى أوردها " العقاد" - رحمه الله - وهو المعروف بانتقائه للألفاظ ، واختياره للعبارات ، يفهم أن الصبيان والأطفال ، من أهل بيت النبى -ﷺ- كانوا هم أول الذين يهرعون إليه عند عودته من أسفاره ، ومعروف أن الأطفال فى سنهم الباكرة يعيشون ويتصرفون على الفطرة ، وأنهم يسلكون بطبيعتهم .. دون تصنع أو افتعال ، ومن هنا فإن اندفاعهم نحو الحبيب الغائب.. العائد من السفر ، وهو القريب من نفوسهم ، يبين ويوضح مدى عمق الصلة التى كانت تربطهم به ، وتقربهم إليه ، وتقربه هو -ﷺ- إليهم ، وكل ذلك رغم مشاغله الهائلة فى أمور الدعوة والتبليغ ، وفى رعاية شؤون المسلمين ، لأن كل ذلك ما كان يصرفه عن متابعتهم ومداعبتهم ورعايتهم ، بل والسؤال عن أحوالهم ، وما يشغل بالهم ، حتى إنه " كان يواسى فى موت طائر (!!!) يلهو به أخو خادمه .. !! " (٢) .

وبالنسبة للشباب الصغار فإن تنمية شخصياتهم ينبغى أن يركز عليها من خلال التربية السليمة التى تركز على مطالبهم ، فى إطار قيم المجتمع المسلم الذى يعيشون فيه ، وهؤلاء الشباب ينبغى أن يركز

---

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٣ .

فى تربيتهم على " المثل " وعلى " النموذج " . وليس هناك أروع ولا أعظم من النموذج الذى كان يمثله رسول الله -ﷺ- بالنسبة لأصحابه ، من خلال تعامله مع الشباب منهم ، وكيف كان يعاملهم ، ويثق فيهم وفى قدراتهم ، بل وكيف كان يوليهم أعظم المسؤوليات بالنسبة لنشر الدعوة ، فى السلم والحرب .

إن مناهج مدارسنا ، وبرامج ومسلسلات وسائل إعلامنا ، وكذا خطب الأئمة فى مساجدنا ، ولقاءات علمائنا ومفكرينا وأدبائنا فى نوادينا ، ينبغى أن تركز على إظهار هذه النماذج الشابة التى ربيت فى أحضان الدعوة الإسلامية ، على يد خير من علم وربى ، بل وأشرف ووجه مجتمعا بأكمله -ﷺ- وكان من نتيجة هذه التربية المحمدية الرائعة أن خرجت للعالم أمة - لم يظهر لها مثيل فى تاريخ الأمم والشعوب ، ويكفى أن أتاها الثناء من ربها - جل وعلا - من فوق سبع سموات : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ صدق الله العظيم . (آل عمران / ١١٠) .

إن شبابنا ينبغى أن تنمى شخصياتهم فى ضوء شخصيات الشباب المسلم الذى كان دعامة هائلة من دعامات الإسلام الأولى ، ورسم هذه الشخصيات من جديد فى كل مؤسساتنا التربوية مطلب أساسى لا ينبغى التنازل عنه ، أو التفريط فيه ، ونماذج الصحابة من الشباب الذين كانوا حول رسول الله -ﷺ- كثيرة ، وبلا حصر ، ولكن يمكن الإشارة إلى بعضهم من أمثال : مصعب بن عمير ، عبد الله بن عمر ، على بن أبى طالب ، معاذ بن جبل ، عمار بن ياسر، زيد بن حارثة ، جعفر بن أبى

طالب ، عبد الله بن أبى رواحة ، خالد بن الوليد، أسامة بن زيد ، وغيرهم كثير كثير (*) .

ثانيا : التربية والتأكيد على النواحى الروحية والفكرية والعاطفية :

عندما نقول عن " الثقافة " أنها تشتمل على النواحي الروحية والفكرية والعاطفية ، بجانب النواحي المادية ، فإن ذلك ينبغي أن يكون واضحا لدى مؤسساتنا التربوية كلها ، بحيث تؤكد عليه في تربيتها للأطفال وللشباب الصغار، خاصة وأن موجات المادية التى طغت على كثير من أركان المعمورة بدأت تنساح فى بلاد المسلمين بحيث صارت حسابات البنوك ، واقتناء الماديات، والإكثار من الشراء ، خاصة فى دول الوفورات المادية ، بل وفى وطننا مصر كذلك ، صارت وكأنها أصبحت أهدافا لذاتها .

إن مطالب اقتناء السيارات ، وتغيير موديلاتها كل عام ، وهى سيارات من أنواع خاصة ، وموديلات مترفة تدفع فيها كميات هائلة من الأموال ، لشباب صغار لم يعرفوا بعد كيف يقفون على أقدامهم ، لا يخدم بنا شخصياتهم ، ولا يقدم للمجتمع شبابا يتحملون المسؤولية ، أو يستشعرون معنى العمل ، أو معنى الواجب ، لأنهم سوف يتعودون على المطالبة بما يتصورون أنه حق لهم نشئوا

(*) من أراد الاستزادة حول هذا الموضوع يمكنه الرجوع لكثير من الكتب التى تناولت صحابة رسول الله -ﷺ- ومنها :

(١) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ، دار الفكر ، بيروت ، (بدون تاريخ) .

(٢) عبد الرحمن عميرة : رجال أنزل الله فيهم قرآنا (سلسلة من سبعة أجزاء) ، دار اللواء ، الرياض ، ١٣٩٨هـ .

(٣) أعلام المسلمين (وهى لعدد من المؤلفين ، وصدرت وبها عدد من الصحابة) ، دار القلم ، دمشق ، بيروت. (د . ت)

على أساسه ، وهذا النمط من الشباب لا يخدم أمته ، ولا يصلح لبناء مجتمعـه ، ولا حتى لفهم قضاياه ، وهو يفهم – قطعا – مشكلات ذلك المجتمع .

إن مجتمعا يخرّج أنماطا من الشباب الصغار لا يكون همهم إلا الإنفـاق والبذخ والاقتناء والإسراف ، هذا المجتمع يقتله الترف قبل أن يفكر فى تحقيـق أمانيه فى البناء والتنمية والتعمير ، خاصة حينما يكبر هؤلاء الشباب والأطفال ، وحينما يتولون مسؤولية العمل فى مؤسسات مجتمعهم .

ولقد خبرنا مجتمعات من أغنى وأثرى ما يمكن ، ولكن الكبار فيها كـانوا واعين لهذا البعد المادى الخطير فلم يتيحوا لأبنائهم أن يغترفوا منه كيفما شاءوا، وإنما دربوهم على العمل ، وربوهـم على تقدير قيمـة ذلـك العمـل ، منـذ الصغر ، بحيث أن الشباب الصغار كانوا يعملون فى مزرعة من مزارع آبائهم، أو فى بعض مصانعهم ، مثلهم تماما – مثل أى عامل صغير ، يحضرون فـى المواعيد منضبطين ، وهم كذلك ينصرفون منضبطيـن ، ولا يتقـاضون مـن الأجور إلا مثل ما يتقاضاه العامل العادى تماما ، ولقد حُمدت تلك التربية خاصة حينما تولى هؤلاء الأبناء أمر تلك الثروات الهائلة ، سواء فى حياة آبائـهم ، أو بعد مماتهم ، لأنهم عرفوا كيف يحافظون عليها ، وكيف يديرونها بحكمة وحنكة وذكاء .

ومن جانب آخر فإن مؤسساتنا التربوية – كلها – مطالبة بأن تغرس فـى نفوس الناشئة أنه ليس بالمال وحده يحيا الإنسان ، وأن هناك النواحى الروحيـة والفكرية والعاطفية ، تلك التى تربط الإنسان بربه ، والتى تربطه – بعد ذلـك – بأفراد مجتمعه من حوله ، بل إن المال قد يفرق الناس عن بعضهم ، بل وأكـثر من ذلك أنه قد يدفعهم للتقاتل والتناحر فيما بينـهم ، ولكـن الحـب فـى الله ، والعاطفة الجياشة الصادقة ، والمودة الخالصة ، والرحمة المتبادلة ، والإحسـاس

بالمشاركة ، والتفكير والاهتمام بمشكلات الآخرين ، ومحاولة العمل على مساعدتهم في حلها ، أو على الأقل إيجاد الطرق والوسائل الكفيلة بحلها .. إلخ كل ذلك يوثق عرى المجتمع ، ويجعل أفراده متحابين متقاربين ، وصدق الحق تبارك وتعالى إذ يقول : ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ .

ومن هنا فإن المؤسسات التربوية في مجتمعاتنا مطالبة بأن تنهل من هذا النبع العظيم ، نبع التربية الإسلامية التي قدم لنا فيها سيد الخلق أجمعين محمد ابن عبد الله -ﷺ- خير النماذج وأجلها وأروعها . إن الله -سبحانه وتعالى- حين بعث محمدا -ﷺ- لم يرسل معه جبالا من ذهب ، ولا خزائن من مال ، ولا آباراً من بترول ، ولا أرصدة بالبلايين ، وإنما هو -سبحانه وتعالى- أرسله ومعه رسالة هي في أول أمرها ومنتهاه " رحمة للعالمين " وبنص الآية الكريمة : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

ومن هنا كذلك فإن تربيتنا ، لكي تخدم ثقافتنا ، ينبغي أن تركز على هذا البعد المهم ، وأن تعطيه حقه ، من الأسرة .. في نصائح الوالدين وتوجيهاتهما ، وضربهما الأمثلة الطيبة أمام أولادهما ، إلى المدرسة في مناهجها وبرامجها وخطط تعليمها ، إلى أوجه نشاطها الصفية وغير الصفية ، إلى معاملات المعلمين ، وكذا أفراد الإدارة المدرسية كلها ، مع أبنائهم الطلاب ، إلى تعاملات الطلاب فيما بينهم ، داخل الصف الدراسي .. وخارجه ، في أفنية المدارس ، وفي المخيمات التربوية والمعسكرات وغيرها ، إلى وسائل الإعلام في برامجها وأفلامها وتمثيلياتها ومسلسلاتها ومقابلاتها وحواراتها مع أهل العلم والفكر والفن والسياسة والاقتصاد ، إلى المسجد في خطبه ومواعظه ، ولقاءات المسلمين فيها

مع الأئمة ، ومع بعضهم البعض لمناقشة مشكلات المجتمع المحيط بالمسجد ومشكلات الوطن ، بل ومشكلات الأمة الإسلامية عامة .. إلخ .

والأمثلة ، كما سبق القول ، ينبغى أن تؤخذ وأن تضرب من خير مجتمع ظهر على وجه الأرض ، والذى يصلح نموذجا حيا رائعا يقتدى به للبشرية جميعا ، ألا وهو مجتمع الصحابة العظام الذين رباهم خير معلم ، وأشرف مجتمع أخرج للناس ، عليهم رضوان الله أجمعين . إن فى قصصهم ومواقفهم ، فى جميع مناحى الحياة ، نماذج رائعة للتربية التى نريدها لمجتمعاتنا الإسلامية، بل إن هذه النماذج لأكثر من رائعة ، ويكفينا أن نشير من بعيد إلى " مجتمع المدينة المنورة " حين جاءها الرسول -ﷺ- والمهاجرون معه ، وقد تركوا وراءهم فى مكة كل ما كانوا يملكون من متاع الدنيا الزائل ، بل إن بعضهم قد ترك كثيرا من أهله وأحبائه ، وآثر أن يفر بدينه حتى لا يفتنه الذين كفروا ، أو يردوه عن الإسلام .

وحين وصلوا إلى إخوانهم فى الدين ، فى المدينة المنورة حدث شيئ لم يقع قبل ذلك فى أمة من الأمم ، على مر عصور التاريخ ، كما أنه لم يقع بعد ذلك فى أى أمة من الأمم ، غنية كانت أو فقيرة ، غربية كانت أو شرقية ، متقدمة كانت أو متخلفة ، فبكلمات قلائل من سيد الخلق أجمعين -ﷺ- ذابت الفروق بين الجميع ، بين مهاجر وأنصارى ، بين وافد وصاحب دار ، بين غنى وفقير ، بين سيد وعبد ، بين ابيض واسود ، فإذا الجميع إخوة متحابون فى الله ، يجمعهم رباط العقيدة المقدسة فيذيب كل ما بينهم من فروق .

يطلب منهم المصطفى -ﷺ- أن يتآخوا فى الإسلام ، فيأخذ كل أنصارى من المدينة مهاجرا من مكة يتقاسم معه كل ما يملك ، حتى إن بعضهم يريد أن يتنازل لأخيه عن أخص خصوصياته ، ولعمرى إن اقوى القوى فى العالم لا

يمكنها أن ترغم الإنسان على أن يتنازل عن ممتلكاته لشخص آخر ، بل إن روسيا الشيوعية فى بداية فرضها للنظام الشيوعى على مجتمعات روسيا اضطرت لضرب ملايين منهم بالرصاص ، بل وأحرقتهم وأحرقت معهم مزارعهم وقراهم حتى يوافقوا على نظام " المزارع الجماعية " التى تشرف عليها الدولة ، ولقد قاوموا بكل ما وسعتهم حيلهم حتى إن بعضهم قد سمم الحيوانات ، وأحرق المزارع والمحصولات التى كان يمتلكها حتى لا تأخذها منه الدولة عنوة .. !!

أما هنا فى " المدينة المنورة " ، وحيث المجتمع المؤيد من السماء ، والرسول المبتعث رحمة للعالمين ، فما كانت إلا كليمات قالها النبى المرسل والهادى البشير -ﷺ- ويقينا فإنه قالها فى المسجد ، محور نشاط المسلمين فى عهدهم الجديد بعد الهجرة ، فإذا كل صحابى أنصارى يخرج من المسجد ، وفى يده صاحب مهاجر يتجه به إلى منزله ، وهو فى قمة السعادة أن مكنه الله – جلت قدرته – ورسوله -ﷺ- وينفذ أمر السماء ن وتصبح المدينة فى اليوم التالى فإذا مجتمعها أفراده قلوبهم ملتفة حول بعضهم ، ونفوسهم راضية سعيدة بنعمة الإيمان ، وما كان عجبا بعد ذلك أن تتنزل الآيات القرآنية الرائعة من فوق سبع سموات تطريهم وتمتدح أفعالهم وأخلاقهم ، حيث اختفت قيمة "المادة " بكل ما تعنيه من بينهم ، وحل محلها الإخاء والحب والود ، والصفاء ، وصار الواحد منهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه .. قولا وعملا .. لا شعارات، وأقوالا ، ولنقرأ قول الله عز وجل ، وهو أصدق القائلين : : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب ، للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ،

وينصرون الله ورسوله ، أولئك هـم الصادقون ، والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهـم يحبون من هاجر إليهـم ، ولا يجدون في صدورهـم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهـم ، ولو كان بهـم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هـم المفلحون ﴾ (الحشـر / ٧ - ٩) وصدق الله العظيم .

ثالثا : التربية .. وماذا يبقى مع الفرد حتى آخر لحظة في عمره :

حينما يقال إن الفرد زائل . وأن المجتمع أطول عمراً ، وأن الثقافة تبقى مع المجتمع ، وأنها آخر ما ينتزع من الفرد والمجتمع فإننا - نحن التربويين - ينبغي أن نؤكد على أن الجانب الديني والروحي والقيمي هو الذي يعنينا في هذا المجال ، فكل الجوانب المادية في الثقافة ، مهما كانت قيمتها ، لا تساوي شيئا في نظر الإنسان عند مواجهته الموت ، ولكن تبقى العقيدة التي يفتديها المؤمنون بأرواحهم ، والتي يستشهدون في سبيل الله من أجل بقائها وإعلانها ، بل ومن أجل تمكينها في الأرض .

إن التربية ، من خلال جميع مؤسساتها ، ينبغي أن تؤكد على هذه المعاني، فلا قيمة لمجتمع بلا عقيدة ، ولهذا أكدت سنة المصطفى -ﷺ- على فريضة الجهاد ، تلك التي أكد عليها المولى - عز وجل - في محكم آياته : ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ ، كما نص - سبحانه وتعالى - على أن يتمسك المسلمون بدينهم ، بحيث لا يتركون هذه الحياة ، بمادياتها وزخالافها ، إلا وهم.. مسلمون : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتـم مسلمون ﴾ ، وليس هناك أعظم من هذا الأمر في طلب الاستمساك بالدين الإسلامي الحنيف ، وبالحرص عليه ، بل وبالعض عليه بالنواجذ ، حتى آخر لحظة من عمر الإنسان ، حتى عند مواجهته الموت .

إن التاريخ يحدثنا عن شعوب ومجتمعات ، وأمم وامبراطوريات سابقة ، زالت من التاريخ ، من قوم نوح إلى قوم لوط ، ومن فراعنة مصر إلى حكام اليونان ، ومن أباطرة الرومان إلى مجوس فارس ، وقد زالوا جميعا من الوجود، وأصبحوا عبرا لغيرهم لأنهم استمسكوا بالدنيا وبكل متاعها الزائل ، وماتوا وهم يدافعون عن ممتلكاتهم وكنوزهم وزخارف دنياهم ، وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية لم تسكن من بعدهم ﴾ وأيضا قال : ﴿كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فاكهين ﴾ .

والعبرة والعظة التى ينبغى أن نركز عليها فى تربيتنا لأجيالنا الصاعدة هى أن هذه الجوانب المادية من حياة الأمم والشعوب زائلة ومتروكة ، بل إن أصحابها إذا لم يستخدموها فيما يفيد عقيدتهم ودينهم ، فإنه سوف يأتى من يرثها منهم ويستفيد منها : ﴿ كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ .

وفى عصرنا الحاضر فإن هناك مجتمعات أوغلت كثيرا فى الجوانب المادية بحيث أصبحت وهى محور حياتهم .. أفرادا ومجتمعات ، وصار الحساب الوحيد عند بعضهم هو حساب العناصر المادية ، من دخول الأفراد ، ومدى ارتفاعها ، إلى استهلاك هؤلاء الأفراد للطاقة ، إلى أكلهم لكميات معينة من البروتينات على مدار أيام العام ، إلى شبكات الطرقات التى يستخدمونها ، وكم هو نصيب الفرد من عدد الكيلومترات المرصوفة منها .. إلخ .

ولقد نسى هؤلاء الحاسبون أن هناك أمورا أخرى أعز وأهم وأغلى فى حياة البشر من مجرد حساب عناصر المادة واستهلاكها . لقد نسوا وغاب عنهم الجانب الروحى ، وهو عنصر اساسى ومؤثر فى نفسية الإنسان ، وفى بناء شخصيته ، ولذلك خرجت كتابات عديدة لتبين أن أفراد أرقى المجتمعات على

وجه الأرض ، وهم – أهل السويد – ليسوا بالضرورة أسعد البشر ، وقد دعمت هذه الكتابات بالإحصاءات الموثقة التى تبين أن أعلى نسب الانتحار فى العالم .. توجد هناك ، أى فى السويد ، على الرغم من المستويات المادية الرفيعة المتقدمة التى يتمتع بها المواطنون هناك .

كذلك فإنه لا يغيب عنا مقالة السيناتور الأمريكى " وليم فولبرايت " رئيس لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس الأمريكى لعدة دورات متتالية ، وأحد أشهر حكماء المجتمع الأمريكى ، حين نطق الرجل بالحكمة ، فى يوم مشهودمن أيام شهر يوليو عام ١٩٦٩م ، وذلك حين نجح الأمريكيون فى وضع أول إنسان على سطح القمر ، فى سابقة علمية وتكنولوجية ، لم تلحق من بعدهم حتى يومنا هذا ، وقد جن الأمريكيون من الفرح لنصرهم هذا ، وهم يرون علم وطنهم يغرس متفردا فوق تربة القمر ، كما فرح معهم عدد هائل من أفراد مجتمعات دول أوروبا الغربية المشايعة لهم ، ولكن الرجل الحكيم – فولبرايت – لم يغوه هذا النصر " العلمى " و " التكنولوجى " الذى حققه قومه فى مجال الفضاء ، وإنما عاد ببصره فورا إلى حقائق الحياة على سطح الأرض الأمريكية ، قائلا قولته المشهورة " حقا .. لقد وضعنا رجلا على سطح القمر ، ولكن أقدامنا مازالت مغروسة فى الوحل " .. !!

وعلى وجه اليقين فإن الرجل المسؤول كان يعى تماما كم وحجم المشكلات والمآسى التى يعانى منها مجتمعه ، على الرغم من ثرائه وغناه والتى تتراكم إحصاءاتها على رفوف " مكتبة الكونجرس " ، أشهر مكتبات العالم وأضخمها ، وكانت تلك الإحصاءات ، ولازالت ، تتحدث عن مشكلات مجتمعية كبرى ، ومآسى أخلاقية بلا عدد ، وجميعها لا يمكن غض الطرف عنها ، أو المرور عليها مر الكرام ، فمن اتساع انتشار الجريمة المباشرة بالسلاح (القتل

العمد) إلى الاغتصاب ، ومن الخطف إلى السرقات ، ومن شيوع إلقاء الأطفال اللقطاء في الشوارع ، نتيجة للعلاقات غير السوية ، إلى انتشار الشذوذ ، ومن الاعتداءات على كبار السن ، حتى الوالدين .. بل وحتى الأجداد (!!!) .. إلى غير ذلك في سلاسل لا تنتهي من المآسي والمشكلات التي يعاني منها مجتمع هو في نظر كثيرين أقوى المجتمعات التي ظهرت على وجه الأرض في التاريخ البشري ، ولكن .. غابت الروح .. وغاب الإيمان ، فاختلت الموازين ، وتلك هي طبائع الأمور ، وتلك هي أيضا – الحكمة البالغة التي علينا أن نعيها ، وأن نربي أبناءنا عليها ، وهي أنه ليس بالمادة وحدها يحيا الإنسان .

إن هذه الأوضاع ينبغي أن تكون دافعا لنا نحن التربويين في أن نعيد النظر في مناهجنا وخططنا الدراسية ، وفي كل برامجنا التعليمية لنؤكد على الجوانب الروحية والقيمية والأخلاقية حتى تدخل في نسيج شخصيات أبنائنا من الأجيال الصاعدة بحيث يشبون وهم متمسكون بها ، حريصون عليها ، وأعون لأهميتها في حياتهم وحياة مجتمعهم .

هذا في المدارس ، وفي باقي المؤسسات التربوية الأخرى التي ذكرناها من قبل حيث ينبغي أن يركز على هذه الجوانب – الروحية والقيمية والأخلاقية – بحيث تكون هي المحور الأساسي في عملها ، وفي تربيتها للناشئة ولأفراد المجتمع كله ، ويكفي أن نفكر في وسائل الإعلام وما يمكن أن يقدم فيها، ومن خلالها ، بهذا الخصوص .

رابعا : ينبغي أن تكون التربية في مثل ديناميكية الثقافة :

الثقافة – حقا – ديناميكية متحركة ، وقد كتب عنها المتخصصون في شؤون التربية والمجتمع ، وبجانبهم أيضا المهتمون والمفكرون ، وبما أن التربية هي الوسيلة الأولى والأخيرة لإكساب أبناء المجتمع عناصر ثقافتهم فإن هذه

التربية لا ينبغى أن تتخلف عن ركب الثقافة المتحـرك دومـا ، بـل والفـوار بالحركة فى كثير من الأحوال ، وخاصة فى هذه الأيام التى تواجه فيها الثقافـة العربية والإسلامية تحديات كبرى من الوافدات الثقافية الأجنبية ، وخاصة مـا تبثه القنوات الفضائية التى أخذت تتكاثر فى المنطقة العربية كلها .

إن هناك الكثير من المتغيرات Alternatives التى بدأت تغزو منطقتنـا العربية ، والتى كانت تعتبر منطقة ذات خصوصية نوعية حيث احتفـظ أهلـها بخصائصهم الثقافية ، داخل مجتمعاتهم ، لمئات من السنين ، وبالذات فى قلـب الجزيرة العربية ، ولكن هبوط ثروة البترول بشـكلها المفـاجئ الـذى حـدث بالمنطقة ، وخاصة بعد حرب رمضان المجيدة ، عـام ١٣٩٣هـ (أكتوبـر ١٩٧٣م) أدار عقول الكثيرن من أبنائها ، كما أنه جذب إليها الكثير من حيتـان العالم الاقتصادية والسياسية والإعلامية ، والعقلاء المخلصون فى عالمنا العربى الإسلامى لا يمكنهم أن يتغافلوا عن ذلك الأثر الخطير ، أو يغضوا الطرف عنه.

ومن المعروف أن المتغيرات هى وسائل نمو الثقافات المختلفة ، خاصـة إذا أثبتت هذه المتغيرات أنها يمكن أن تعمل لصالح أصحاب الثقافة التى تصـل إليها ، وبعض هذه " المتغيرات " قيد يتحول إلى " خصوصيـات " ، والبعـض الآخر قد يصبح من " العموميات " (*) ، ولكن المشكلة تتضح إذا علمنا أن بعض هذه " المتغيرات " التى وفدت إلى منطقة الخليج العربية ليست فى صالح تلـك المنطقة ، ولا فى صالح أهلها ، ولعلنا فقط نذكر بالمدارس الأجنبية المنتشرة فى بعض دول الخليج العربية ، وقد سبقت الإشارة إليها من قبل .

كذلك هناك القنوات الفضائية العديدة الى انتشرت أجهزة استقبالها فـوق أسطح العمارات والفيلات فى أنحاء كثيرة من مدن الخليج ، ثم إن الإسراف قـد

(*) سبق شرح هذه المعانى فى أحد فصول هذا الكتاب .

أصبح علامة دالة على تصرفات أعداد ليست بالقليلة من أبناء الخليج ، خاصة من بين فئات الشباب الذين قد لا يقدرون النعمة التى أرسلها الله لهم حق قدرها، ثم إن هناك قضية السفر للخارج طلبا للسياحة والمتعة وتضييع الوقت ، ويضاف إلى ذلك عودة بعض الشباب من الخارج وهم يحملون معهم بذور تقليد لمجتمعات أخرى تختلف عنا فى الكثير من قيمنا ، بل وتتصادم عقائدهم مع عقيدتنا الإسلامية .

والعبرة المهمة هنا هى فى موقف التربية من تلك الديناميكية المتحركة للثقافة والتربية – كما سبق وأكدنا مراراً خلال هذه الدراسة – بمؤسساتها كلها، فلا يعقل أن تظل مدارسنا ، بمناهجها ومقرراتها ، وطرق تدريسها ، وأوجه النشاط فيها ، تعمل بأساليبها القديمة التى كانت سائدة منذ أكثر من عقود ثلاثة ، وكأن شيئا لم يكن .. !! وأنه لم يحدث من حولها أى تغير .. !!

إن المناهج التى تدرس للأطفال والشباب ينبغى أن يعاد النظر فيها جذريا فى كل شيئ ، من الأهداف إلى المحتوى ، ومن طرق التدريس إلى التقويم ، ومن التخطيط التربوى إلى النشاط بأوجهه المختلفة .. الصفية وغير الصفية ، وذلك من منطلق أن ما كان يدرس لأجيال سابقة (منذ أكثر من ثلاثين عاما وربما أكثر) لا يمكن أن يصلح ، كما هو دون أدنى تغيير ، رغم اختلاف الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من حول المدرسة :

ثم إن مؤسساتنا الإعلامية ينبغى عليها أن تكون واعية لهذا البعد الخطير، أى بعد ديناميكية بالثقافة وحركتها السريعة ، كما أن عليها أن تعيد النظر فيما تقدمه لأبناء أمتها ، واضعة فى اعتبارها أن تقليد الإعلام فى مجتمعات أخرى مختلفة عنا ليس هو المطلوب ، وإنما المطلوب الذى يجب أن يؤكد عليه هو أن كل تطوير أو تجديد ينبغى أن يصب فى قضية أساسية لا يختلف عليها أحد ، ألا

وهى قضية الهوية ، أى هوية المجتمع الذى تنتسب إليه هذه المؤسسات الإعلامية ، والتى تعمل على تربية الأجيال الناشئة والشابة من أبناء ذلك المجتمع .

إن بعض القنوات الفضائية التى تبث فى منطقتنا – القنوات العربية للأسف الشديد – حسبت أن التغيير يكمن فى مجاراة إعلام " الآخرين " الذين يختلفون عنا فى الجذور ، وخاصة القنوات الغربية المبتذلة ، فجاءت لمشاهديها بمسخ من الأفلام والبرامج والمسلسلات والتمثيليات لا تقل فى انحرافها وتفاهتها عما يبث من الغرب ، وأحيانا من الشرق ، عن قصد وسبق إصرار ، وتلك كارثة تربوية ، وسقطه إعلامية خطيرة لا ينبغى السكوت عليها، أو تركها تمر هكذا دون تنبيه أوتحذير .

ثم إن أئمة المساجد فى مجتمعاتنا عليهم أن يعوا بُعد الديناميكية والحركة فى هذه المجتمعات ، ومن ثم عليهم أن يتعاملوا فى خطبهم ومواعظهم مع التغيرات المختلفة التى تجرى من حول المساجد ، بحيث يبنون موقف الإسلام العظيم من هذه المتغيرات ، وكذا موقفه الفعال والإيجابى من المشكلات الناجمة عنها ، حيث أنه من غير المناسب أن يذهب الشباب إلى المساجد ليجدوا بعض أئمتها وهم يخطبون من ورق أصفر عفا عليه وعلى موضوعاته الزمان ، كما أن هذا البعض من الأئمة والخطباء يتعاملون مع أمور الحياة الحاضرة بمنطق عجيب يفترض أن هذه الحياة ثابتة لا تتغير .

إن الدين الإسلامى الرائع أنزل لكل الناس : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ (النساء /) ، كما أنه أنزل لكل الأزمنة والعصور ، ولذا ، فإن علماء الدين وأئمة المساجد وخطباءها مطالبون بالإقبال على متغيرات الحياة وعلى مشكلاتها، يدققون فيها بوعى ، ويفحصون عواملها بدقة ، بل ويضعونها تحت

ميكروسكوب العلم الشرعى الأصولى ، ليروا موقف الإسلام منها ، ولبينوا للناس ، وخاصة الشباب منهم ، مواضع الحلال والحرام فيها ، وهم حينما يعلون ذلك ينبغى أن تكون الحكمة التى تقول " حيث لا أوجد أنا يوجد عدوى" نصب أعينهم ، وأمام ناظريهم .

إن معنى ذلك أنه إذا لم ينزلوا هم إلى ميدان الحياة الواقعية ، وإذا لم ينتبهوا إلى ما يجرى فيها من تغيرات ، وإلى ما يقع فيها من أحداث ومن تغير، وإذا لم يتدخلوا – بإيجابية – ليقودوا الشباب إلى السبل الصحيحة ، وإذا لم يجاهدوا فى فهم الشباب ، وفهم مشكلاتهم .. إذا لم يفعلوا كل ذلك فإن هناك الكثيرين من شياطين الإنس الذين سيحتلون مواقع القيادة فى كثير من المؤسسات الاجتماعية الحساسة ، وبعض هؤلاء الشياطين من خارج مجتمعاتنا ، وبعضهم الآخر من داخلها ، حيث يتسمّون بأسمائنا ، ويلبسون ملابسنا ، ويأكلون طعامنا، ولكنهم – فى حقيقة الأمر – أخطر على أبنائنا ، وعلى مستقبل أمتنا من أعدائنا الذين نعرفهم جهاراً نهاراً .

خامسا : التربية وقيم المجتمع :

إذا كان لكل ثقافة ركائز خاصة تتميز بها على غيرها من الثقافات ، فإن من أهم ركائز الثقافة الإسلامية التى يعتد بها المجتمع العربى ركيزة القيم ، أو منظومة القيم التى يعتز بها كل مسلم غيور على دينه وعلى أمته .

وتلك المنظومة من القيم وصلت إلينا من أجيال السلف الصالح الذين ساروا على هدى النور الذى انتقل إليهم عبر : ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، منذ غرس فيهم معلم البشرية الأسمى ، محمد بن عبد الله – ﷺ – هذه القيم .

لقد غرسها فيهم قولا حكيما ، وفعلا ممارسا فى حياته التى كانت كل لحظة فيها دروسا تربوية عملية انتقلت منه -ﷺ- إلى أفراد جيل الصحابة العظام ، بخاصية " انتقال أثر التعليم أو التدريب " التى يحدثنا بها علماء النفس ، فصارت مواقفه -ﷺ- مصابيح تربوية مشعة أضاءت الطريق لأجيال من الصحابة الكرام - رضى الله عنهم أجمعين - وعن التابعين وتابيعهم ، أولئك الذين غيّروا الدنيا من حولهم ، بعد أن تغيروا هم من الداخل ، بفعل تربية المعلم الأسمى -ﷺ- تلك التربية التى نزل منهجها من فوق سبع سماوات ، فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .. وصدق الله العظيم .

والقيم التى يفترض أن تسود الثقافة فى المجتمع العربى المسلم ، والتى ينبغى أن تقوم التربية بغرسها وتعميقها فى نفوس وشخصيات الأطفال والشباب كثيرة جدا ، ويمكن فقط أن نشير إلى بعضها من بعيد ، فليس القصد هو الحصر والعد ، وإنما المقصود هو التذكير بها فقط ، وبما تمثله ، وبأهمية دور التربية ، بمؤسساتها كلها فى رعايتها بعد غرسها ، وفى العمل على التمكين منها .

إن المؤسسات التربوية فى مجتمعنا العربى المسلم ينبغى أن تولى عنايتها الكبرى لقيم مثل " الأخوة فى الله " بين أبناء المجتمع الواحد .. المجتمع الكبير ، ونعنى به مجتمع المسلمين ، وأن يترجم ذلك فى سلوكيات الأطفال والشباب الصغار .. عمليا فى جميع مراحل التعليم ، كما ينبغى أن يتضح فى الكتابات الصحفية ، وفى مقالات وقصص الكتاب والمفكرين ، علاوة على برامج القنوات التليفزيونية وأفلامها ومسلسلاتها .

هذا وإن أقرب الناس الذين ينبغى أن تتضح هذه الأخوة فى معاملاتهم هم الجيران ، وذلك من واقع غرس الرسول -ﷺ- حيث كان دائم التذكير

لأصحابه بما للجار عليهم من حقوق ، قولا وعملا ، حيث نقلت عنه " السيدة عائشة " – رضى الله عنها – قوله " مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .

وقيم " الصدق " ، و " الإخلاص " ، و " الأمانة " ، و " الوفاء بالعهد " ، و " الحرص على المواعيد " ، و " إتقان العمل " ، و " احترام كبار السن " ، وتوقيرهم ، وكذا " حب الصغار " والعطف عليهم ، و " تفضيل الصالح العام " على المنفعة الشخصية ، و " طلب العلم " ، و " الحرص على الوقت " ، و " احترام الذات " وأيضا " احترام الآخرين " .. كل أولئك وغيرها كثير ينبغى أن تتخذ منها التربية محاور أساسية لدروسها وبرامجها ، فى مجال الأسرة وتنشئتها لأطفالها ، وفى المدرسة وعنايتها ورعايتها لطلابها ، ووسائل الإعلام المختلفة فى توجهاتها لمشاهديها وقرائها ومستمعيها ، بالإضافة لرواد المساجد والذين ينبغى أن يركز لهم هذا الجانب القيمى فى خطب ومواعظ الأئمة الوعاظ .

وللعلم فإننا لا نقصد هنا مجرد الحديث عن هذه القيم ، وذكرها وعدها ، وإنما المطلوب هو نماذج حية طيبة تضرب لهم ، وأمثلة تذكرهم ، أمثلة من الماضى التليد تبين لهم كيف كان جيل الصحابة العظام يسلك ويتصرف ، رضوان الله عليهم أجمعين ، بناء على القيم التى تعلموها ودربوا عليها على يدى المعلم الأسمى – ﷺ – ومواقف عملية أثرت فى حياة الأمة الإسلامية لما استمسك بها أصحابها .

ورجال التربية جميعا .. من معلمين .. وآباء وأمهات .. وإعلاميين .. وكتاب ومفكرين .. وأئمة ووعاظ عليهم أن يعودوا لتراث الأمة الإسلامية الرائع

والمثمر فى هذا المجال ، وسيرة الرسول -ﷺ- ومن بعده الخلفاء الراشدون ، ومن سار على هديهم ، فيها الكفاية ويزيد .

أذكر أنى كتبت فى بحث لى عبارات لعلها تكون مفيدة فى مجالنا هذا الذى عنه نتحدث " إننا نسمع عن الحكماء .. عبر التاريخ .. فى شعوب العالم المختلفة ، باعتبارهم عملة نادرة ، لا يجود الزمان بمثلها إلا قليلا ، وقد تمر أجيال بأكملها لا يولد فيها واحد من هؤلاء الحكماء ، ولكن أن تكون هناك مدرسة أو جامعة تخرّج هؤلاء الحكماء .. فهذا هو الجديد .. وهو المعجز ، والذى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال مدرسة الإسلام العظمى ، ولذا فلم يكن غريبا أن يحفل الجيل الأول .. والرعيل الممتاز ، من صحابة الرسول -ﷺ- بالحكماء الذين تخرجوا من جامعة الإسلام الرائعة والمتميزة ، فى كل مجال ، فى العلم وبحوره الواسعة والعميقة ، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - نموذج لا يدانى لهؤلاء الحكماء الذين تعلموا العلم وأشربوه على يد خير الأنام -ﷺ- ومن وراءه " على " - رضى الله عنه - طابور طويل من العلماء والحكماء ، رواة الأحاديث النبوية الشريفة ، وحفظة القرآن الكريم ، والمفسرين والمحققين المدققين الذين لم يجد الزمان بمثلهم .

وفى مجال الحكمة .. والحصافة .. وبعد النظر والثبات فى الأمر ، حين تهب العواصف الهوجاء ، وتدلهم الخطوب ، وتحتاج الأمة لحكيم عاقل يقبض بيد قوية ثابتة على دفة المركب ، ويسيّرها وسط العواصف العاتية ، ووسط بحار الظلمات الرهيبة والمرعبة ، هل هناك من جامعة استطاعت أن تخرّج حكيما مثل " أبى بكر " - رضى الله عنه - ذلك الصحابى الرائع ، صاحب الفكر الثاقب، والنظر البعيد.. ذلك الذى أنقذ الأمة الإسلامية الوليدة من أخطر ما واجهها ، بعد وفاة صاحب الرسالة ، وغيابه تحت الثرى -ﷺ-؟؟

وهل هناك جامعة ، فى أى مكان فى الدنيا ، يمكنها أن تأمل من جيل بأكمله ، من خريجيها ، مهما كان عددهم ، ومهما كانت نوعياتهم ، أن يقودوا أمة بأكملها ، وأن يسوسوا أمورها فى سياسة داخلية وخارجية ، فى سلم وفى حرب، فى رعاية مصالحها الاقتصادية ، وفى السهر على مواجهة وعلاج مشكلاتها الاجتماعية ، فى نشر عدل ندر أن جاد الزمان بمثله ، وفى حسم مع الأمراء والقادة والولاة ، قبل الأفراد العاديين ، فى إنشاء دواوين ، وفى رعاية أرامل وأيتام ، فى بكاء الليل ،.. خشية الرحمن ، وفى تعب وكد بالنهار ، حرصا على مصالح المسلمين .. كما كان يفعل " عمر بن الخطاب " الفاروق - رضى الله عنه - .. ؟؟

والأمثلة التى يمكن أن يتوقف عندها الإنسان ، يحاول أن يحصى عظماء الرجال ، من الصحابة الأطهار ، الذين تربوا على يد المصطفى ﷺ - قد لا يمكن حصرهم وعدهم وتصنيفهم ، كل فى مجاله الذى أبدع فيه ، ولكن يكفى أنهم غيروا وجه الحياة .. فى جزيرة العرب .. ثم انتقلوا بهذا التغيير إلى الامبراطوريات التى كانت معروفة آنذاك.. فغيروها هى الأخرى ، وكانت كتائبهم مكونة من المجاهدين المسلمين الذيى باعوا أنفسهم لله ، ليشتروا بها الحياة الآخرة ، وكان على رأس هذه الكتائب والجيوش قادة عظماء ، تخرجوا من جامعة الإسلام العظيمة ، وتربوا على يد أعظم قائد ، فكان الرجل منهم ، فى حد ذاته ، جيشا .. فى قلبه .. وشجاعته .. وبأسه .. وقوته .. وبراعته وحيلته ، والذين يريدون معرفة هذه النوعية من الخريجين العسكريين لهذه الجامعة الأم ، فليقرأوا عبقرية " خالد بن الوليد " ، وبراعة " سعد بن أبى وقاص " وشجاعة " الزبير بن العوام " ، وحماس " أسامة بن زيد " .. القائد .. الشاب ، بل القائد الذى كان فى مستهل الشباب .

ولقد اقتبسنا هذه النماذج الإسلامية الرائعة لتكون أمام التربويين فى كل مؤسساتنا التى تهتم بتخريج الأجيال من أبناء الأمة ، وليقدموا للصغار فى مجتمعاتنا ، مجموعات القيم الإسلامية الرائعة التى تربى عليها هؤلاء النفر العظام ، من صحابة رسول الله -ﷺ- لتكون نبراسا لأعمالهم يقدمونها للأطفال والشباب نماذج حية غيرت وجه التاريخ ، وأقامت حضارة أذهلت الشرق والغرب على السواء ، واعترف بها علماؤهما ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

سادسا : ضرورة شمول التربية لكل طوائف المجتمع :

عندما نقول إن الثقافة تنتشر بين جميع طوائف المجتمع وجماعاته فإن ذلك يمثل عبئا كبيرا جدا ومسؤولية ضخمة على جميع المؤسسات التربوية العاملة فيه ، بحيث تصل خدماتها إلى أفراد كل هذه الطوائف ، دون استثناء من الصغير إلى الكبير ، ومن الغنى إلى الفقير ، ومن العامل والصانع ، إلى الفلاح والزارع ، ومن المثقف القارئ إلى الإنسان العادى الذى – ربما – لا يقرأ ولا يكتب .

إن كل المؤسسات التربوية التى سبقت الإشارة إليها ، بالإضافة إلى الجامعات والمكتبات العامة ، والأندية الثقافية والأدبية والرياضية ، مطالبة بأن تنزل إلى المواطنين فى تجماعتهم حيث كانوا ، وأن تفتح أبوابها لهم ، وتدعوهم إلى منتدياتها ولقاءاتها ، حتى تصير الثقافة العامة شائعة بين الجميع ، ومتاحة لهم ، وحتى تكون هناك خيوط اتصال متينة تربط بين أبناء المجتمع ، توحد بين فكرهم ، وتؤلف بين مشاعرهم ، وتشدهم إلى اهتمامات خاصة بقضايا مجتمعاتهم .

إن الجامعات الأمريكية فى الغرب ، على سبيل المثال ، لم تعزل نفسها خلف أسوارها ، ولم يعش أساتذتها فى أبرج عاجية يجرون تجاربهم ، ويؤلفون كتبهم وبحوثهم ، وإنما هو نزلوا إلى مجتمعاتهم يبحثون فى مشكلاتها ، ويقدمون لها ما توصلوا إليه من حلول واقتراحات ، بحيث أن ما عقد من لقاءات ومؤتمرات فى عام واحد – تناولت أمورا تخص المجتمع الأمريكى قد بلغت الآلاف .. دون أدنى مبالغة [١] .

سابعا : العلاقة بين الثقافة والتربية :

وأخيرا .. نصل إلى جّماع ذلك كله فى العلاقة بين الثقافة والتربية – إن التربية هى – بلا شك – وسيلة اكتساب الثقافة ، وهى – بلا شك كذلك – التى تعين أجيال المجتمع على تمثلها وهضمها ، ثم إنها هى – أى التربية – التى تعد أفراد هذه الأجيال للحفاظ عليها ، بل وللدفاع عنها ، ربما بحياتهم .. إذا اقتضى الأمر ، ولا يمكن لإنسان أن يضحى بحياته ، أو يطلب منه – فى لحظة معينة – أن يفعل ذلك إلا إذا كان قد ربى تربية حقيقية تجعله يقبل على ذلك ، أى على الموت وهو مقتنع تماما قناعة لا يداخلها شك بما يفعل .

لقد أصبحت الثقافة ، بعد مفهومنا لها ، وهى مرادفة لوجود الإنسان ذاته فلا إنسان بلا ثقافة ، فإذا هددت الثقافة فمعنى ذلك تهديد حياة الإنسان ذاتها ، والتربية بمعناها الشامل هى التى تعد الإنسان .. روحيا .. ونفسيا .. ومعنويا .. وجسديا .. للدفاع عن ذاته ، عندما تهدد حياته ، وهى كذلك التى تعد أفراد المجتمع للدفاع عن دينهم وعقيدتهم ومجتمعهم والموت فى سبيل الله ، وهذا هو الفرق بين مجتمع المسلمين المؤمنين ومجتمع الكفار الذين قال الحق – تبارك وتعالى – فيهم ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ (البقرة / ٩٦) .

---

[١] محمد عبد العليم مرسى : التعليم العالى ومسؤولياته فى تنمية دول الخليج العربية ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م .

ونلاحظ هنا أن الله – سبحانه وتعالى – قد وصف ما يحرص عليه هؤلاء الكفار بأنه " حياة " .. مجرد حياة .. أية حياة ، فهى كلمة نكرة تحط من قيمة ما يحرصون عليه ، وتبين أنه لا قيمة ذات معنى لهذه الحياة ، فطالما يحيون فهذا هو المهم ، حتى لو كانت خالية من أى قيمة يحرص عليها الإنسان، ومن أى معنى ، وبلا هدف يسعى الإنسان لتحقيقه ، أو غاية سامية يرجو الوصول إليها ، وتلك على وجه اليقين هى الحياة المادية ، فهم ، وكما وصفهم الحق – تبارك وتعالى – ﴿والذين كفروا يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (محمد / ١٢) .

وذلك – تماما – عكس حياة المسلمين المؤمنين التى اشتراها منهم الحق – جل وعلا – فهنا نجد الهدف واضحا ، كما نجد المثوبة والأجر العظيم ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (التوبة /١٧) ، ولذا جاءت تربية المعلم الأسمى ، والمربى الأمثل -ﷺ- لتبين لنا كيف غرس فى نفوس صحابته الكرام – رضوان الله عليهم أجمعين – حب الاستشهاد فى سبيل الله ، لدرجة أن الرجل منهم كان يستطيل حياته فيما لو بقى على ظهر الأرض حتى ينتهى من أكل تمرات كانت فى يده ، وما ذلك إلا لأنه وثق – تماما – أنه سوف ينال الجزاء الأوفى .. فورا .. وأن وعد الله – جل وعلا – حق ، وأنه سوف يدخل الجنة التى عرضها كعرض السماء والأرض ، إذا ما قاتل المشركين فنال الشهادة .

ثامنا : التكامل فى التربية لمواجهة التكامل فى الثقافة :

وإذا كانت الثقافة ، كما سبق الشرح فى فصل سابق من فصول هذا الكتاب، تتميز بالتكامل وبالتغير والتطور والانتقاء والشمول ، فإن التربية ينبغى

ألا تتخلف عن تحقيق كل هذه الصفات فى برامجها ومناهجها وأوجه النشاط فيها، إذ أنه لا يعقل أن تكون أوجه الحياة فى المجتمع نشطة فوارة ، تموج بالحركة والحيوية ، ويقبول الجديد والتعامل معه ، بينما برامج التربية ومناهجها ومناشطها قديمة بالية . أكل عليها الدهر وشرب ، وفاتها قطار الحركة والتغير والتطور والنمو .

إن هذا الوضع إن سمح له بالاستمرار فمعناه المبدئى والفورى أن تلك النوعية من التربية إنما تسمح لنفسها بأن تخرج لمجتمعها شبابا لا ينتمون إليه ، ولا إلى عصره الذى يعيش فيه . شباب درسوا وتربوا على أمور لا صلة لها بواقع الثقافة فى مجتمعهم ، وبالتالى فإن هؤلاء الشباب الخريجين من مؤسسات تربوية هذا شأنها يصبحون أمام موقفين : الأول .. إما أن يتعاملوا مع أفراد المجتمع من حولهم على أساس ما تعلموه فى المدارس وغيرها ، وما تربوا عليه وهو – فى معظمه – غريب على قيم مجتمعهم وعاداته وتقاليده ، باختصار ثقافته ، والثانى .. أن يتعاملوا مع مجتمعهم على أساس الثقافة الفعلية السائدة فيه هو ، ومن ثم فإنهم مضطرون بأن يلقوا خلف ظهورهم بكل ما تعلموه ، وكل ما دربوا عليه ، وهذا فى حد ذاته موقف صراعى لا يسهل فيه اتخاذ قرار ، خاصة وأن ما يتعلمه الشباب وما يربون عليه يدخل جزء كبير منه فى بناء شخصياتهم ، وبالتالى لا يسهل سحبه أو انتزاعه منهم ، بالإضافة إلى أن محاولاتهم نسيان الذى تعلموه أو التخلص منه فيه إهدار لعنصر الوقت المتمثل فى السنوات الطوال التى عاشوها يطلبون العلم فى مدارس لم تفهم معنى رسالتها ، ومع برامج ومناهج ومناشط لم تعد للحياة فى المجتمع ولا للعصر الذى توجد فيه ، وفى كلتا الحالتين فإن الخسارة كبيرة ومؤكدة على كل تعليم غير مناسب، وعلى كل تربية تصادم المجتمع ولا تخدم متطلباته، ولا تحقق أهدافه.

إنها خسارة علي المجتمع الذى لم يستفد من جهود المدرسة – على سبيل المثال – التى وثق فيها ، والتى أنفق عليها ورصد لها الملايين من ميزانيته ، وعلى المدرسة التى أضاعت أياما غالية من عمرها ، بل سنوات طوالا من عمرها وعمر مرتاديها ، بينما هى كانت تحرث فى البحر ، والمنتسبون إليها يظنون أنهم " يحسنون صنعا " ، وعلى الطلاب الذين أرسلهم ذووهم ليتلقوا العلم ، وليتلقوا التربية ، فإذا بهم تخيب آمالهم ، وتتخرج منهم طوائف وأجيال يشعر أفرادها بأنهم أضاعوا أعمارهم فيما لا فائدة فيه ، ولا طائل من ورائه ، بل ويشعرون أنهم فى حاجة لأن تعاد تربيتهم ، وأن يعاد تدريبهم من جديد (!!) حتى يستطيعوا التواؤم مع ما يجرى حولهم فى مجتمعاتهم من أمور ، بل إنهم محتاجون للتواؤم مع الحياة ذاتها ..

إن المؤسسات التربوية فى مجتمعاتنا عليها واجب لا فكاك منه ، ولا محيص عنه ، وهو أن تعيد النظر فى كل ما تقوم به ، حتى ترى موقعها وموقعه من قضايا الثقافة فى المجتمع ، وعلى سبيل المثال فقط لا الحصر : أين التربية من قضية التماسك الاجتماعى .. أى تماسك البناء الاجتماعى داخل مجتمعاتنا .. ؟؟ بمعنى هل هناك من المناهج والبرامج والمقررات وأوجه النشاط ما يعمل جاهدا على توضيح قيم المجتمع ومعاييره وترسيخها فى نفوس وشخصيات أجيال المستقبل .. ؟؟ توضيحها شرحا مكتوبا ومقروءاً ، وتوضيحها سلوكا عمليا منفذا ومطبقا .. ؟؟

وهل هناك من هذه المناهج والبرامج والمقررات والمناشط ما يساعد على وحدة الأمة (الإسلامية والعربية) ، وما يؤكد ذات الفرد المسلم باعتباره عضوا له كيانه ، وله قيمته ، لأنه إذا كانت اللبنة الأولى قوية متينة كان البناء كله متماسكا قويا ، وذلك استنادا لتكريم الله – سبحانه وتعالى – للإنسان منذ خلقه

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء / ٧٠) . فهل يحدث هذا فعلا فى مدارسنا ومعاهدنا التربوية بحيث تخرج هذا الإنسان المكرم الذى يعيش فى مجتمع حر كريم ، يرفع رأسه ، ويعتز بكرامته ، ويقول رأيه معتدا بذاته ، واثقا من نفسه، آمنا على حياته ، وعلى رزقه ، وعلى أولاده ومستقبلهم ، إن كنا نفعل ذلك فهذا الإنسان هو اللبنة المنشودة حقا ، لبنة الثقافة الطيبة التى نسعى لأن تكون هى السائدة فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية .

كل هذه الأسئلة ، وهناك غيرها كثير ، وهى تحتاج منا نحن التربويين أن نقف عندها ، وأن نفحصها بعناية ، وأن نعيد النظر فيها ، وفى إجاباتنا السابقة عليها ، إن كنا قد تعاملنا معها من قبل ، نظراً لما جرى ويجرى فى مجتمعاتنا وثقافتنا من تغير وتطور وتحول ، ثم إنه علينا - من بعد ذلك - أن ننظر فى مناهجنا وبرامجنا ومقرراتنا وأنشطتنا فى مدارسنا ومعاهدنا والجامعات ، وأن نرى موقعها من هذه الأسئلة ومن الإجابة عليها .

ثم إن علينا أن نفحص - بعناية وجد وبروح مسؤولة وأمينة - ما تقدمه وسائل الإعلام عندنا من برامج وأفلام وتمثيليات ومسلسلات ، بل وإعلانات تجارية كذلك (!!) لنرى موقع ذلك كله من تربية الإنسان ، ومن إعداده لتحمّل مسؤولياته ، داخل ثقافة مجتمعه المسلم ، وهل هذه البرامج والأفلام والتمثيليات والمسلسلات ، وكذا الإعلانات ، هل تساعد ذلك الإنسان المسلم على أن يُبنى داخليا ويربى بحيث يكون لبنة قوية صالحة داخل البناء الثقافى فى مجتمعه العربى المسلم ، أم أنها تعمل على تغريبه وتهميش دوره ، وذلك من خلال الإصرار على سهره حتى الساعات الأولى من الصباح .. بل حتى إلى اليوم التالى ، طوال أيام الأسبوع (!!) ن وهو يشاهد برامج وأفلاما ومسلسلات

وتمثيليات وإعلانات تسلب لبه ، وأحيانا فكره ، ومشاعره ، ومن ثم إرادتـــه ، حتى إذا ذهب إلى العمل كان حطام إنسان ، وبقايا بشر ، لا ينتج لنفســـه ، ولا لمجتمعه ، ولا لأمته .. ؟؟

كل ما سبق ، وغيره كثير ، مسؤوليات أهل التربية ، فى كل موقع ، وفى كل مجال ، ولا حيلة لنا ، ولا مفر من تحمل هذه المســؤوليات ومواجهتـها ، والتعامل معها .. فى مدرسة ، وفى بيت .. فى مسجد ، وفى صحيفـــة .. فـــى مجلة ، وفى تليفزيون وجهاز راديو ، فى ناد ثقافى أو أدبى ـ رياضى ، فـــى مكتبة عامة وفى غيرها ولو فعلنا ذلك بأمانة وعلمية وواقعية .. ومسؤولية ، لو فعلناه لأعدنا للبشرية سيرة الأبطال العظام من الغر الميامين أصحاب رسول الله -ﷺ- أولئك الذين صنعوا ، بفضل تربيته لهم ، هذه الثقافة الإســـلامية التـــى نكثر الحديث عنها ، والتى نعتز بها .

وللعلم .. وفى الختام فإن هناك كلمة أخيرة واجبة ينبغى أن نتوجـــه بـــها لأنفسنا ، وهى تتعلق بثقافتنا الإسلامية وحضارتنا التـــى نجيـــد التغنـــى بـــها وبأمجادها فى شتى المجالات ، إننا نجيد الكلام ، ونتفنن فى التمجيـــد ، ولكـــن الحديث وحده لا يعيد مجدا ، والتمجيد لا يبعث حضارة ، والاتكاء على وســـادة التراث لا يوقظ أمة ، ولا يعيد مجدا ضائعا ، وإنما العمل ، والعمـــل الجـــاد ، والجهد الصادق ، والعزم والإصرار ، والسهر والعرق والدموع ، والصدق مـــع الله ، ثم مع النفس ، ومع الناس .. كل هذه الأمور مطلوبة وواجبـــة ، إذا كنـــا نريد حقا أن ننشئ أجيالا – بالتربية الإسلامية – يعتمد عليها فى المســـــتقبل ، بحيث تكون هذه الأجيـــال هى الركيزة الأساسية لعودة الحضارة الإســـلامية ، ولبعث الثقافة الإســـلامية ، ولا شئ غير هـــذا .

المراجـــع

العربيــة والأجنبيــة

مراجع الكتاب

أولا :

المراجع العربية :

١ - **إبراهيم عصمت مطاوع :** أصول التربية ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠ .

٢ - **أبو الأعلى المودودى :** الربا ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، ط٢ ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

٣ — **أبو الحسن على الحسنى الندوى :** ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار عمر بن الخطاب ، الإسكندرية ، (د . ت) .

٤ - **أبو الفتوح رضوان وآخرون :** المدرس فى المدرسة والمجتمع ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٥ — **أحمد عبد الرحيم السايح :** أضواء على الحضارة الإسلامية ، دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

٦ — **أحمد على الملا :** أثر العلماء المسلمين فى الحضارة الأوروبية ، دار الفكر ، بيروت ، (د .ت) .

٧ — **إدواردر . بو شامب :** التربية فى اليابان المعاصرة ، ترجمة محمد عبد العليم مرسى ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م .

٨ — **السيد سابق :** عناصر القوة فى الإسلام ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٤٠٦هـ .

٩ — **السيد عبد العزيز سالم :** قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٢م .

١٠ — **أحمد كمال أحمد ، عدلى سليمان** : المدرسة والمجتمع ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٦م .

١١ — **أحمد محمد العسال ، فتحى أحمد عبد الكريم** : النظام الاقتصادى فى الإسلام، مبادئه وأهدافه ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .

١٢ — **أ . ك . أوتاواى** : التربية والمجتمع ، ترجمة وهيب سمعان وآخرين ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

١٣ — **أولفا بنكس** : اجتماعيات التربية ، ترجمة محمد على المرصفى ، (بدون ناشر أو مكان نشر) ، ١٤٠٩هـ — ١٩٨٨م .

١٤ — **باتريشيا كروسون** : الخدمة العامة فى التعليم العالى بالولايات المتحدة الأمريكية ، ترجمة ونشر مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٧هـ _ ١٩٨٦م .

١٥ — **جمال حمدان** : شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، المجلد الثانى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١م .

١٦ — **جون ديوى** : الديموقراطية والتربية ، ترجمة متى عقراوى ، زكريا ميخائيل، القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٧ – **حسان محمد حسان** : دراسات فى الفكر التربوى ، دار الشروق ، جدة ، ط ٢، ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢م .

١٨ — **حسن عبد العال** : التربية الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

١٩ — **خالد محمد خالد** : رجال حول الرسول : دار الفكر ، بيروت ، (د . ت) .

٢٠ — **ريتشارد نيكسون** : نصر بلا حرب ، ترجمة محمد عبد الحليم أبو غزالـــة ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القـــاهرة ، ١٤٠٩هـــ — ١٩٨٩م .

٢١ — **روبرت د . كانتور** : السياسة الدولية المعاصرة ، ترجمة أحمد ظاهر ، مركز الكتب الأردنى ، عمان ، ١٩٨٩م .

٢٢ — **د . ف . سويفت** : اجتماعيات التربية ، دراسة تحليلية ، ترجمة محمد ســمير حسانين ، مؤسسة سعد للطباعة ، طنطا ، ط٢ ، ١٩٧٧م .

٢٣ — **رشدى سعيد** : الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى المعاصر ، مجلة الـهلال ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٢٤ — **رفيق يونس المصرى** : أصول الاقتصاد الإسلامى ، دار القلـــم ، دمشـــق ، ط٢، ١٤١٣هـــ — ١٩٩٣م .

٢٥ — **رودنى ف . ألن** : التربية وقضايا الطاقة ، ترجمة محمد عبد العليم مرســى ، مكتب التربية العربى لدول الخليج ، الرياض ، ١٤٠٥هـــ — ١٩٨٥ م .

٢٦ — **سعيد اسماعيل على ، زينب حسن** : دراسات فى اجتماعيات التربيـــة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٢٧ — **سعبد اسماعيل على** : رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكـــر العربـــى ، القاهرة ، ١٤١٢هـــ — ١٩٩٢م .

٢٨ — **سعيد اسماعيل على** : النبات والفلاحة والرى عنـــد العـــرب ، دار الثقافـــة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

٢٩ — **سعيد اسماعيل على** : معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة، ١٩٨٦م .

٣٠ — **ستيفن د . بروكفيلد** : تنمية التفكير النقدى ، ترجمة سمير هونة ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة ، الكويت .

٣١ — **سمير نعيم أحمد** : علم الإجتماع القانونى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

٣٢ — **سمير هونة** : نظام التعليم العام فى الكيان الإسرائيلى ، التطور الكمى والنوعى فى التعليم العام حتى بداية الثمانينات ، المستقبل العربى ، العدد ٨٦ ، ابريل ١٩٨٦م .

٣٣ — **سيد قطب** : العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤١٥هـ — ١٩٩٥م .

٣٤ — **شاكر محمد عبد الرحيم** : علاج المسكرات والمخدرات فى ضوء التوجيه الإسلامى ، رسالة الخليج العربى ، العدد ١٤ ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م .

٣٥ — **عباس محمود العقاد** : عبقرية محمد ، دار المعارف ، القاهرة ، (د . ت).

٣٦ - **عباس محمود العقاد** : عبقرية الصديق ، دار المعارف ، القاهرة ، (د .ت).

٣٧ - **عباس محمود العقاد** : عبقرية الصديق ، دار المعارف ، القاهرة ، (د .ت).

٣٨ - **عباس محمود العقاد** : عثمان بن عفان ، ذو النورين ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (د. ت).

٣٩ - **عباس محمود العقاد** : عبقرية الإمام ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (د.ت).

٤٠ - **عباس محمود العقاد** : الصديقة بنت الصديق ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط١٢ ، ١٩٨٨ .

٤١ - **عباس محمود العقاد** : التفكير فريضة إسلامية ، نهضة مصر للطباعة ، والنشر والتوزيع ، القاهرة ، (د . ت) .

٤٢ - **عباس محمود العقاد** : أثر العرب فى الحضارة الأوربيـــة ، دار المعــارف ، القاهرة ، ١٩٤٦م .

٤٣ — **عبد الصبور شاهين ، إصلاح عبد السلام الرفـــاعى** : أمـــهات المؤمنيـــن ، الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، ١٤١٢هـ — ١٩٩١م .

٤٤ — **عبد بن عبد المحسن التركى** : توجيهات الإسلام فى نطاق الأسرة ، جامعــة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٤هـــ — ١٩٨٤م .

٤٥ — **عبد الله ناصح علوان** : تربية الأولاد في الإســلام ، دار الســلام للطباعــة والنشر والتوزيع والترجمة ، سنغافورة ، ط٨ ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥ م .

٤٦ — **عبد الله المصلح** : الملكية الخاصـــة فـــى الشـــريعة الإســلامية ومقارنتـــها بالاتجاهات المعاصرة ، مطبوعات إتحـــاد الدولـــى للبنـــوك الإسلامية ، القلهرة ، ١٩٨٢م .

٤٧ — **عبد محمد الطيار** : الزكاة ، مركز بحوث جامعة الإمام محمـــد بـــن ســعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م .

٤٨ — **عبد رب النبى على أبو السعود** : أحب الأعمال إلى الله ، مكتبـــة وهبــة ن القاهرة ، ١٤١١هـ — ١٩٩٠م .

٤٩ — **عبد العزيز محمد العمرى** : الحرف والصناعات فى الحجـــاز فـــى عصــر الرســول ، صلـــى الله عليــه وســلم ، (بـــدون ناشـــر) ، ١٤٠٥هـــ.

٥٠ — **عبد الغنى عبود** : الأيديولوجيا والتربية ، مدخل لدراسة التربيـــة المقارنـــة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٥١ — **عبد الحليم منتصر** : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م .

٥٢ — **عبد الحليم عويس** : لا نزاع بين الدين والعلم في المنهج والموضوع ، دار النفائس ، بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ .

٥٣ — **على عبد الواحد وافى** : علم الاجتماع ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط٢ ، (د.ت) .

٥٤ — **عبد الرحمن الشرقاوى** : خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز ، مكتبة غريب ، القاهرة ، (د . ت) .

٥٥ — **على عبد الله الدفاع** : إسهام علماء العرب والمسلمين فى الكيمياء ، جون وايلى وأولاده ، نيويورك ، ١٩٧٩م .

٥٦ — **على عبد الله الدفاع** : الموجز فى التراث العربى الإسلامى ، جون وايلى وأولاده ، نيويورك ، ١٩٧٩م .

٥٧ - **على خليل مصطفى أبو العينين** : أهداف التربية الإسلامية ، ومصادر اشتقاقها ، ومعايير صياغتها للمجتمع المسلم المعاصر ، مكتبة إبراهيم الحلبى ، المدينة المنورة ، ١٤٠٨هـ — ١٩٨٧م .

٥٨ — **على خليل مصطفى أبو العينين** : القيم الإسلامية والتربية ، دراسة لطبيعة القيم ومصادرها ودور التربية الإسلامية فى تكوينها وتنميتها ، مكتبة ابراهيم الحلبى ، المدينة المنورة ، ١٤٠٨هـ .

٥٩ — **عبد الرحمن عميرة** : رجال أنزل الله فيهم قرآنا ، دار اللواء ، الرياض ، (د.ت) .

٦٠ — **عبد الفتاح أبو غدة** : قيمة الزمن عند العلماء ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م .

٦١ — **علي عبد الواحد وافي** : الأسرة والمجتمع ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط٧ ، ١٣٩٧هـ .

٦٢ — **علياء شكري** : الاتجاهات المعاصرة في دراسة الأسرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٦٣ — **علي عبد الحليم محمود** : وسائل التربية عند الإخوان المسلمين ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، المنصورة ، ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م .

٦٤ — **علي خليل مصطفى أبو العينين** : **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥م .

٦٥ — **عثمان حسين عبد الله** : الزكاة ـ الضمان الاجتماعي **الإسلامي** ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٦٦ — **عيسى عبده** : النظم المالية في الإسلام ، معهد الدراسات الإسلامية ، القاهرة، (د . ت) .

٦٧ — **مالك بن نبي** : شروط النهضة ـ ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر العربي ، طرابلس ، لبنان ، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٦٨ — **محمد الغزالي** : هموم داعية ، دار ثابت للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ .

٦٩ — **محمد الغزالي** : سر تأخر العرب والمسلمين ، دار الصحوة ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م .

٧٠ — **محمد الغزالي** : خلق المسلم ، دار القلم ، دمشق ، ط١١ ، ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م .

٧١ — **محمد الغزالى :** الإسلام والأوضاع الاقتصادية ، دار الصحوة ، القاهرة ، ط٧ ، ١٤٠٧هـ — ١٩٩٧م .

٧٢ — **محمد أبو زهرة :** تنظيم الإسلام للمجتمع ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

٧٣ - **محمد أبو زهرة :** التكافل الإجتماعى فى الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ .

٧٤ — **محمد فتحى عثمان :** القيم الحضارية فى رسالة الإسلام ، بحوث اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب ، " الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، الرياض ، ١٣٩٩هـ .

٧٥ — **مقداد يالجن :** جوانب التربية الإسلامية الأساسية ، مؤسسة دار الريحانى للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م .

٧٦ — **مقداد يالجن :** علم الأخلاق الإسلامية ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٣هـ — ١٩٩٢م .

٧٧ — **محمد سيد (محقق) :** سيرة ومناقب عمر بن الخطاب ، لابن الجوزى ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ — ١٩٩٩م .

٧٨ — **محمد بن أحمد الصالح :** التكافل الإجتماعى فى الشريعة الإسلامية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٥هـ — ١٩٨٥م.

٧٩ — **محمد عبد العليم مرسى :** ميس رات البحث العلمى عند المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .

٨٠ — **محمد عبد العليم مرسى :** المعلم .. والمناهج وطرق التدريس ، عالم الكتب ، الرياض ، ط٢ ، ١٤١٥هـ .

٨١ — **محمد عبد العليم مرسى :** التربية وكارثة غزو الكويت ، هجر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٤١١هـ — ١٩٩١م .

٨٢ — **محمد عبد العليم مرسى :** التربية ومشكلات المجتمع فى دول الخليج العربية، مشكلة العمالة الأجنبية ، مع نموذج عالمى للتطبيق ، دار الإبداع الثقافى ، الرياض ، ١٤١٥هـ — ١٩٩٥م .

٨٣ — **محمد عبد العليم مرسى :** التربية والتنمية فى الإسلام ، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤١٠هـ .

٨٤ **محمد عبد العليم مرسى :** البحث العلمى عند المسلمين بين ميسّرات الماضى ومعوّقات الحاضر ، عالم الكتب ، الرياض ، ١٤١٠هـ .

٨٥ — **محمد عبد العليم مرسى :** الثقافة .. والغزو الثقافى لدول الخليج العربية ، العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٦م .

٨٦ — **محمد عبد العليم مرسى :** المنظور الإسلامى للثقافة والتربية ، العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٦م .

٨٧ — **محمد عبد العليم مرسى :** غزو الكويت كارثة المسلمين الجديدة ، عالم الكتب، الرياض ، ١٩٩١م .

٨٨ — **محمد عبد العليم مرسى :** أفغانستان المجاهدة أمانة فى أعناق المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ — ١٩٩٠م .

٨٩ — **محمد عبد العليم مرسى :** الإسلام .. ومكانة المرأة ، العبيكان للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٤١٨هـ — ١٩٩٧م . .

٩٠ — **محمد عبد العليم مرسى :** التعليم العالى مسؤولياته فى تنمية دول الخليج ، مكتب التربية العربى لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م.

٩١ — **محمد مصطفى الشعبينى** : علم الاجتماع التربوى ، فى اجتماعيات التربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

٩٢ — **محمد لبيب النجيحى** : الأسس الاجتماعية للتربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٧٨م .

٩٣ — **محمد المختار ولد أباه** : التربية الإسلامية بين القديم والحديث ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم ، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ، ١٤١٠هـ — ١٩٨٩م .

٩٤ — **محمد على الهاشمى** : القيم الكبرى التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية (ندوة الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم) الرياض ، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .

٩٥ — **محمد على طنطاوى** : مقدمات فى فهم الحضارة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٠هـ .

٩٦ — **محمد قطب** : منهج التربية الإسلامية ، دار الشروق ، بيروت ، ١٤٠١هـ .

٩٧ — **محمد يوسف الكاندهلون** : حياة الصحابة ، دار القلم ، دمشق ، ١٤١٠هـ .

٩٨ — **محمد مرسى ، قطب ابراهيم محمد** : السياسة المالية لعمر بن عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨م .

٩٩ — **فرانك كيلسن** : ثورة الإنفوميديا ، الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك ، ترجمة حسام الدين زكريا ، عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت العدد ٥٣ أ ، ١٤٢٠هـ .

١٠٠ — **محمود محمد سفر** : الحضارة .. تحد ، الكتاب العربى السعودى ، تهامة للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٤٠٠هـ .

١٠١ — **محمود محمد سفر** : إنتاجية مجتمع ، تهامة للنشـــر والتوزيـــع ، جـــدة ، ١٤٠٤هـ — ١٩٨٤م .

١٠٢ — **منير المرسى سرحان** : فى اجتماعيـات التربيــة ، الأنجلــو المصريــة ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

١٠٣ — **ناجى معروف** : أصالة الحضارة العربية ، مؤسســـة الرســالة بــيروت ، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .

١٠٤ — **نبيل صبحى الطويل** : الحرمان والتخلف فى ديار المسلمين ، كتاب الأمــة ، العدد ٧ ، رئاسة المحاكم الشرعية ، قطر ، ١٤٠٤هـ .

١٠٥ — **نبيل محمد صادق أحمد** : طرق تنظيم المجتمع فى الخدمة الاجتماعيـــة .. مدخل إسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

١٠٦ — **نبيل السمالوطى** : بناء المجتمع الإسلامى ونظمـــه ، دراســة فــى علــم الاجتماع الإسلامى ، دار الشروق ، جـــدة ، ط٢ ، ١٤٠٨هـــ — ١٩٨٨م .

١٠٧ — **ول ديورانت** : قصة الحضارة .. نشأة الحضارة .. الشرق الأدنى ، ترجمــة ذكى نجيب محمود ، جامعة الـــدول العربيــة ، الإدارة الثقافيــة ، القاهرة ، ط٣ ، الجزآن (١، ٢) ، ١٩٧٢م .

١٠٨ — **ول ديورانت** : قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية ، المجلـــد التاســع ، ترجمة محمد بدران ، ط٣ ، ١٩٧٢م .

١٠٩ — **ول ديورانت** : عصر الإيمان ، المجلدان ١٣ — ١٤ .

١١٠ — **يوسف القرضاوى** : مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام ، مؤسسة الرســالة، بيروت ، ١٠٤٦هـ — ١٩٨٥م .

١١١ — **يوسف القرضاوى** : غير المسلمين فـــى المجتمـــع الإســـلامى ، مؤسســـة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٥ هـــ — ١٩٨٥م .

١١٢ — **يوسف القرضاوى** : الرسول والعلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (د. ت)

١١٣ — **يوسف القرضاوى** : الوقت فى حياة المســـلم ، دار الصحـــوة ، القـــاهرة ، (د.ت) .

١١٤ — **يوسف القرضاوى** : بيّنات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والتغريبيين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٩هـــ — ١٩٨٨م .

١١٥ — **يوسف كمال** : الإسلام والمذاهـــب الإقتصاديـــة المعـــاصرة ، دار الوفـــاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، ١٤٠٧هـــ — ١٩٨٧م .

ثانيا :

المراجع الأجنبية :

1- **Dellbert long & Robrta long:** Education in the U. S. S. R. Phi Delta kappa Educational Foundation, Blooníngton, Indíana, 1980 .

2- **D – J. O'Conor:** An Introduction to the Philosophy of Education, Routledge Kagan Poul, London, 1968 .

3- **Earl Raab & Geertrsede jaques seiziniek:** major serious Prolslems, Harder & Rae Publishers, Ny. & yo – London, 1984.

4- **Eugene w. Kelly Jr:** Beyond schooling, Education in a Broader Centext, phi Delta kappa Educational Foundatiou, Bloomington, Indiana, U.S A. 1982.

5- **Harold J. Burback & Others:** The socio Cultural Founda-. tions of Education, Omin Press Ine, Florida, 1975.

6- **J. A. Kinder:** School public Relations, Communicating to the Community, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana, U. S. A. 1982 .

7- **James E. Fraiser:** An Irtsooluction To The Study of Educa – tion, Harber & Row Publishers, N. y. Third Ed, 1965.

8- **John Childs:** American Pragmatism, An Introduction & Criticism, Henry Halt & Company, N. y, 1985.

9- **Joseph D. Olrander & Others** : School & Society Through Science Fiction. Rond Menally Publishing Company, Chicago. 1964.

10- **Kevin Ryan:** Questions & Answers On Moral Educaton. Phi Delta kappa Educational Foundation, Bloomington, Indian, U. S. A, 1981.

11- **Marle R. symptom:** School Community Relations, Anew Approach, Mcgrow Hill Book Company, N.Y. 1966.

12- **Mouric Kogan & Margaret pope (Edits) .** The Challenge of Change. NF E R publishing company , Windsor , 1972 .

13- **Recardo L . Garcia :** Education For cultural pluralism Global Roots stew, Phi Delta Kappa Educational Foundation, Bloomington, Indiana , U . S . A . 1981 .

14- **Relent M . Hutehina :** The Yearning Society , Fredicr A. Pager (RILAHERA) N.Y, 1988 .

15- **Robert J . Havighurst & Bernice – Neugartin :** Society & Education Allen & Bacon Inc ., Bartan , Third ed , Boston, 1967 .

16- **Roleert J . stalcup :** Sociology of Education , Charles E . Merrill Pullishing Company , Ohio , 1986 .

17- **Roger Hemestra :** The Educative Community , lunking the Community , school & Family , Proffessional Educators Publications , Inc ., lencoln . Nelbraska , 1972

18- **Robert R. Bell (Editor) Harry M . Johnson :** Socialization in the Sociology of Education , Temple University – The Doresy Press. Inc., Home wood , ILL ,1962 .

19- **Ruth Sharl caven** : The American Family, Thomas y crowell Company, N . Y third Ed ., 1984 .

20- **Robert M. Hutthins** : The Basis Education in (Readings) in the socio – Cultural Foundations of Education.

21- **Shintaro Islihara** : The Japan That Can Say No, Translated by Frank Baldwin , Siomo & Chuster N.Y., 1991 .

22- **Toques Martin** : Education At the Carrosaods . New Haven Yale University, 1983 .

23- **Thomas S . Curtis** : Aucentie Education & The Quality of Life , Phi Delta kappa Educational Foundation , Bloominton , Indiana , U . S . A ., 1982 .

24- **Thomas Molnar** ; The Futur of Education, Fleet Pullishing Company, N . y, 1981 .

25- **William Miller** : The Thind Wave & Edueation:s Future, phi Delta kappa Educational faundation, Bloomington , Indiana, U.S . A . 1981.

26- **The warld Almanac Book of facts B** : World Almanac Book , New Jersey 2000 .

المكتبة الجامعية

الأزاريطة - الإسكندرية

ت : ٤٨٤٣٨٧٩